

أحمد عيسى

الحياة فوق الضباب

الناشر
مكتبة مصير
٢ شارع كامل صدقي - النجاة

دار مصدر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

إنه رغم العمر الطويل لا ينسى يوماً واحداً من أيام عشرته لصديقه كمال يحيى الروزناجى .. صداقة بدأت منذ أوائل الأربعينات وأصبحت هى المؤثر الأكبر فى كل حياته وفى كل ما يطرأ على فكره .. وربما لا تزال هى الأقوى فى التأثير عليه حتى اليوم ..

وابتسم ابتسامة تنبض بالسعادة كأنه يهنئ بها نفسه على ما وصل إليه بهذه الصداقة .. وتنبض ابتسامته بالعجب عما جرى له خلال كل هذه السنوات حتى وصل إلى ما وصل إليه ..

لقد التقى بكمال لأول مرة فى الإسكندرية على شاطئ ميامى فى حى سيدى بشر .. وكان هذا الشاطئ يعتبر أيامها خاصاً بأولاد الذوات .. أولاد الطبقة الغنية التى تحكم مصر وتملك كل أرضها .. وهو نفسه لم يكن من أولاد الذوات ولا ينتسب من قريب ولا من بعيد إلى هذه الطبقة .. ولكن كان من هواياته منذ صباه أن يعايش كل طبقات المجتمع المصرى ويدخل فيها بدافع الفرجة عليها .. كيف يعايش أولاد الأغنياء وكيف يعايش أولاد الفقراء .. وكيف يتكلمون .. وماذا يأكلون .. وماذا يحبون ويكرهون .. وكان يعتمد فى فتح مجالات الفرجة على كل نواحي المجتمع على زملائه من طلبة المدرسة .. إنها مدرسة تجمع بحكم موقع الحى الذى تقع فيه بين أبناء كل الطبقات .. وكان بين زملائه ليس متحيزاً لطبقة دون طبقة .. ربما لأنه هو نفسه من عائلة متواضعة تعتبر من النصف الأسفل للطبقة المتوسطة ..

فلا يعتبر غنيا ولا يعتبر فقيرا .. ولذلك فمن السهل عليه أن يعاشر الأغنياء والفقراء .. يعاشرهم دون هدف استغلال .. أى لا يحاول استغلال معاشرته للأغنياء أو معاشرته للفقراء .. إنما هو يتفرج .. ويتنص وهو يتفرج بأنه يقرأ كتابا يزوده بمعلومات جديدة .. وقد كان منذ صباه يهوى قراءة الكتب .. ويسرف في تحقيق هواياته إلى حد أنه تعود أن يسرق الكتب من أى مكان تصل إليها يده .. إن سرقة الكتب لقراءتها لا تعتبر جريمة يحرمها الله .. ما دام لا يسرقها لبيعها .. بل أنه كان يحاول دائما إعادة الكتاب إلى صاحبه الذى سرقه منه بعد أن ينتهى من قراءته ..

ولكن كمال الرومانجي لم يكن زميلا له في مدرسة .. ولم يكن يعرفه أو يسمع عنه .. إلى أن التقى به على شاطئ ميامي .. وإن كان قد تعمد الوصول إلى هذا الشاطئ بدافع هواية الفرجة على أولاد الأغنياء بعد أن سمع عنه كثيراً بل وقرأ عنه — عن هذا الشاطئ — في الصحف .. وكان في هذا العام قد حصل على الشهادة التوجيهية .. التي كانت نهاية المرحلة الثانوية .. وأراد والده أن يكافئه على هذا النجاح مكافأة كبيرة رغم أنه كان قد تعود منه أن ينجح في كل الامتحانات يتفوق .. إن الامتحان الدراسى بالنسبة له ليس أكثر من تذكّر بعض ما قرأ .. وقراءته للكتب المدرسية لا تختلف في استيعابه لها عن قراءة الكتب التي يشتريها أو يسرقها .. الكتب التي تجمع القصص أو التي تسرد التاريخ والتي كان يهوى قراءتها .. إنه يتذكر الإجابة على أى سؤال يقدم له في الامتحان تذكره لمغامرات أرسين لوين التي قرأها في الكتب التي تجمعها ..

وقد كان والده كريما في مكافأته فأعطاه خمسة جنيهات .. وفكر كيف يستغل هذا المبلغ وقرر بسرعة أن يستغله في قضاء أجازته بالإسكندرية ..

وعلى شاطئ ميامي بالذات الذى سمع وقرأ عنه حتى يتفرج على حياة أولاد النوات وكيف يقضون الصيف .. ولكن الخمسة جنيهات وإن كانت مبلغا كبيرا محترما بالنسبة له إلا أنها لا تعتبر شيئا بالنسبة لحياة الطبقة الغنية .. ربما كان الواحد من أفراد هذه الطبقة يصرف الخمسة جنيهات وأكثر منها في يوم واحد أو في جلسة واحدة .. ولكنه اعتمد على ذكائه الطبيعي الذى لا يفعله .. إن له زميلا في المدرسة من أبناء الأسكندرية وإن كانت العائلة تقم في القاهرة والوالد يعمل فيها .. وقد قال له زميله إن شبان العائلة وأصدقاءهم أقاموا لأنفسهم عشة خشبية في صحراء تقع خلف شاطئ سيدى بشر ينفردون فيها بأنفسهم يعيشون أياها حرة إلى آخر منتهى الحرية .. وقد وصل مع زميله إلى أن دعاه إلى قضاء أجازته في هذه العشة بعد أن علم أنه مسافر وحده إلى الأسكندرية وحائر كم تكلفة الإقامة فيها ولو لبضعة أيام ..

وسافر منير غام إلى الإسكندرية بعد أن وافق والده بمضاضة فلم يكن مرناحا أن يترك الحرية لأبيه إلى هذا الحد .. وودعته أمه وأخواته البنات بالدموع .. فلم يكن من عادة العائلة أن تترك بيتها حتى ولو لقضاء أجازة صيف ولم تكن تملك ما يكفى ولو تجرد تخيل مثل هذه الأجازة .. إنه أول فرد في العائلة يسافر لجرد الفسحة وقضاء أجازة الصيف .. وحرصت أمه على أن تملأ حقيبتها بأطعمة قد تكفيه أسبوعا أو أكثر .. إنها تخاف عليه ولا تعطش إلا إذا كانت هى نفسها المستولة عن كل ما يحتاجه حتى عما يأكله وهى تريد أن تحس بمسئوليتها عنه حتى وهو بعيد عنها ..

وبدا منير يرتب حياته في العشة الخشبية التي سيقم فيها .. إنه يستطيع أن يعتمد على نفسه في كل ما يحتاجه .. وقد تعود وهو مع أمه وأخواته أن

يتعلم كل ما تفرضه مطالب الحياة حتى لا يتقل عليهم بكل مطالبه ..
حتى إنه تعلم كيف يطبخ الطعام وإن كان لا يجيد إلا إعداد صينية
البطاطس .. بل وتعلم أيضا الحياكة .. إنه يستطيع أن يعيد حياكة الزوار
الذى يسقط من جلبابه أو قميصه .. ويستطيع أن يرتق أى تمزق في ثيابه ..
ويستطيع ببساطة أن يغسل ويكوى هذه الثياب .. وقد وضع لنفسه ميزانية
ثابتة ينفق على أساسها هذه الجنيئات الخمسة .. كل يوم ينفق فيه قرشين
ونصف .. أى خمسة قروش تعريفة .. وفى كل أسبوع له ليلة يقضاه
أصدقائه فى السهر وينفق من الميزانية عشرين قرشا .. إن هذه الميزانية تكفيه
أن يعيش فى الإسكندرية شهرا كاملا بخمسة جنيهات .. إلا إذا حدث ما لم
يحسب حسابه ..

وأخذ فى كل صباح ينتهى من إعداد مطالبه فى العشة فى وقت مبكر ثم
يذهب إلى شاطئ ميامى وهو يرتدى المايوه . إن المايوه هو الذى ينزل القوارق
بين الطبقات .. كل الناس يرتدون زيا واحدا على الشاطئ يرتدون المايوه ..
كأنهم كلهم يعيشون مجتمعاً واحدا وطبقة واحدة .. وطبعاً لا يفكر واحد
منهم فى الاقتراب من الآخر ليتحسس القماش الذى صنع به المايوه الذى
يرتديه حتى يعرف إذا كان يرتدى الغالى أم الرخيص .. وهل هو من طبقة
الأغنياء أو من الطبقة المتواضعة التى لا تملك ثمن المايوه الغالى ..

وقد عرف من اليوم الأول أنه لى شاطئ ميامى يجب أن يدفع
للحرس الواقف عند المدخل الثلاثة قروش صاغ .. إلا إذا كان صاحب
كاين على الشاطئ فيدخل مجاناً .. إنها إجراءات وضعت لحماية أولاد
اللوات من زحف أولاد الشعب من الطبقة الفقيرة عليهم حتى لا يستولون
على متعتهم ويحرمونهم من الانفراد بالشاطئ ويعكرون هنيئهم وحرمتهم ..

حرية صاحب الملك .. صاحب رأس المال ..

ومنى لم يحسب حساب هذه القروش الثلاثة وهو يضع ميزانية العشة
التي يقيم فيها .. فبدأ يتحائل واكتشف طريقا للوصول إلى شاطئ ميامى
دون أن يمر بالمدخل .. إنه يقفز فوق الصخور التي تقوم بجانب الشاطئ ثم
يسبح مسافة صغيرة إلى أن يجد نفسه فى ميامى .. وقد استمر أياما يتبع هذا
الطريق إلى أن تعود حراس المدخل على رؤيته بين رواد الشاطئ وكل منهم يظن
أنه دخل عن طريق حراس آخر وأنه لا شك صاحب كاين بمظهر نشاطه
بين رواد الشاطئ .. لذلك أصبح يدخل حتى من المدخل دون أن يدفع
شيئا ومع تحية الحراس .. وإن كان مهددا دائما بأن يكشف سره أحد
الحراس .. إلى هذا الحد كان مستوى الحياة أيامها .. إلى حد التحايل هربا
من دفع ثلاثة قروش فقط ..

وقد التقى على شاطئ ميامى ببعض زملاء الدراسة ممن يعرفهم .. وهؤلاء
الزملاء عرفوه بأصدقاء كثيرين .. وكلهم من أولاد اللوات .. ولم يكن كمال
الروزنامي يثر انتباهه بين شبان الشاطئ أو يهتم بمعرفته والسؤال عنه ..
ولكن كان أول من أثار انتباهه من عائلة الروزنامي هى أخته دليز ..

كان من عادته أن يذهب إلى الشاطئ مبكرا .. ولمح فى صباح أحد الأيام
والشاطئ لم يزدحم بعد برواده فنهأ تخرج من أحد كبائن الشاطئ وهى تضع
« برنسا » طويلا فوق المايوه الذى تخفيه تحته .. وتتجه إلى شاطئ البحر
تتبعها امرأة عجوز غامقة السمار سمينة مرهلة الجسد .. لا شك أنها
« الدادة » أو مربيتها المسنولة عنها .. وتدخل الفتاة بقدميها فى مياه البحر
والمرية تتبعها إلى أن تقارب مياه البحر البرنس الذى تلبسه فتقدم المرية من
خلفها فترفع عنها البرنس الطويل وتركها تقوص قورا فى مياه البحر وهى

كأنه يتعجب من انجذابه كل هذا الانجذاب إلى هذه الفتاة .. ويحاول أن يفتح نفسه بأنه ملحوس .. إنها لا شك من أرق مستويات طبقة ميامي .. وهو يستطيع دائما أن يصادق شيان هذه الطبقة ولكنه لا يعتقد أنه يستطيع أن يصل إلى بنت من بناتها .. وهو لم يحاول أبدا مع بنات هذه الطبقة بل إن هوايته الفرجة لم تصل به إلى محاولة الفرجة على حياة هاتيك البنات .. ولم تجذب منه إلا هذه الفتاة .. ويبدو أنها تعيش كل تقاليد طبقتها وترفع حتى عن أن تصل عيون الناس إليها إلا في الجلود التي تسمح لهم بشرف رؤيتها .. إنه لم ير ساقها ولا خصرها ولا نعليها ولا حتى ذراعيها من شدة حرص الدادة التي تتبعها على تغطيتها بالبرنس حين تغوص في الماء وقبل أن تخرج منه ..

وظلت صورة هذه الفتاة تحت كل خيال منير .. بل إنه وجد نفسه يتغير منذ التقت عيناه بها فأصبح يعيش في خياله حتى وهو مع أصدقائه رغم ما هو معروف عنه بينهم من مرح الشخصية وانطلاق لسانه في كل الموضوعات .. وفي اليوم التالي تعمد أن يذهب إلى الشاطئ وكأنه على موعد معها .. وعندما غاصت في الماء لم يكتف بالوقوف على الشاطئ لينفجج عليها من بعيد .. وإنما ألقي بنفسه في البحر وراعاها .. وبقي بعيدا عنها ولكنه سعيد بإحساسه أنه معها .. وقد أصبح ينزل معها إلى مياه البحر كل صباح .. ويبقى دائما بعيدا .. ولكنه بدأ يلاحظ لمحات من عينيها تلتقي بعينه .. ولا يدري هل هي لمحات صدفة عابرة أم لمحات مقصودة .. لماذا لا يكون قد جذبها كما جذبت .. إنه يعلم عن نفسه أنه وسيم الوجه رشيق القوام وأخواته البنات تعود أن يقلن له إن بنات الحى كلهن يذبن فيه وكل منهن تتمناه لنفسها .. ولم يكن يهتم بما يقلن فلم يكن يهتم بالبنات ولا يحس

ووجد منير نفسه ينجذب انجذابا عنيفا إلى هذه الفتاة .. ليس مجرد انجذاب الفرجة الذي تعود أن يشده للفرجة على كل البنات .. إنه انجذاب ينض بالدهشة .. كأنه فوجئ برؤية كان ينتظرها منذ زمن طويل دون أن يدري أنه في انتظارها .. كأنه لم يكن يدري أن هذا هو ذوقه في تقدير الجمال .. وأن هذا هو الأمل الذي يمكن أن يبحث عنه .. إنه منذ النظرة الأولى أحس بجماله .. ولكنه ليس هذا الجمال الزاقي الذي يشد كل العيون .. إنه جمال هادئ تقاطيعه مرتبة كأن كل خط فيها رسمه فنان ليناسب الخط الآخر .. أنفها يناسب عينيها وشفتيها .. وعيناها الملونتان اللتان لم يلمح فيهما اللون الأسود من اللون الأخضر أو الأزرق وضعتا بحيث تناسبان جبينها الواسع كأنه يتسع لاستيعاب كل ما توحيه الحياة .. وهي يضاء .. ولكن ليس هذا البياض الصارخ كيباض نور الشمس ولكنه بياض هادئ كيباض وردة أصيلة كرمية تترك اللون أوراقها الخضراء أن ينعكس عليها .. وشعرها ليس أشقر صارخا وليس غامق السواد كالليل الذي لا ترى فيه شيئا إنه كعينيها تعيش فيه كل الألوان كأنه لم يعد هنالك لون ينقصها فيه ..

ووقف منير بعيدا وعيناه متعلقتان برأسها الذي يعود فوق الماء .. إنها تسبح وذراعاه تحت الماء .. ثم بعد فترة وجدتها تدير رأسها ناحية المرأة التي تنتظرها على الشاطئ .. وبلا أدنى كلمة أو إشارة قامت المرأة وغاصت بقدميها في مياه البحر وألبست الفتاة البرنس فخرجت به إلى الشاطئ ثم سارت إلى الكابين في خطوات سريعة رشيقة .. ومنير يتبعها وكأن عينيها تشهقان .. إلى أن اختفت داخل الكابين .. وعلت شفتي منير ابتسامة

بحاجته إليهن حتى بعد أن كبر وأصبح في الثامنة عشرة من عمره .. وهذه أول فتاة يجس بها ويتذكر وسامته ورشاقته على أمل أن يجذبها .. لماذا لا يكون قد جذبها بمجرد لقاء الصدفة وتبادل النظرات من بعيد .. ولا بهم شكله .. إنها هي نفسها ليست أجمل فتاة رآها .. ثم إنها لا شك لا تعرف بعد شيئا عن أصله وفصله وعن الطبقة التي ينتمي إليها .. إنها لا تراه إلا وهو بالمأيوه .. والمأيوه يخفي الأصل والفصل ويوحد بين طبقات الناس ..

وفي هذه الأيام كان يستدرج أصدقاؤه ليعرف كل شيء عنها وهو حريص على ألا يبدو أنه يعتمد الاهتمام بها .. كان ينتظر المناسبات كأن تمر بهم من بعيد فيثير الحديث عنها .. وعرف أن اسمها دلير .. ابنة يحيى باشا الروزناجي .. وهو من أغنى الأغنياء ويملك مئات الأفدنة بالقرب من قلوب .. وعضو بارز في حزب الوفد ودخل الوزارة الوفدية عدة مرات رغم أنه لم يعرف كشخصية شعبية وليس له مواقف وطنية خاصة .. إن حزب الوفد كان يضم بين قاداته وأعضائه شخصيات ليس لها قيمة إلا أنها شخصيات غنية تملك الأرض .. وليس المهم أبوها إنما الأهم هي أمها .. إنها من عائلة محمد علي .. عائلة الملك .. وهي سيدة محافظة حريصة على التمسك بكل مظاهر وتقاليده الأثرية .. ثم الأهم من أبيها وأمها هو أخوها كمال يحيى الروزناجي .. إن أصدقاء منير يتحدثون عنه بحماس وإعجاب شديد .. وهم يقولون عنه إنه متفرغ تفرغا كاملا لتتقيف نفسه .. لقد قرأ أضعاف ما قرأوه جميعا .. وتخصص في القراءات السياسية .. إنه في نظرهم عالم من علماء السياسة وتعودوا أن يجلسوا إليه كأستاذ لهم .. يعلمهم ما لا يعلمون .. وهو كما كان منير يسمع عنه أكبر منه بعام أو عامين وقد حصل على الشهادة الثانوية منذ عامين ومن مدرسة الجيزويت .. أي تعلم

الفرنسية .. ولكنه لم يدخل الجامعة بعد ذلك .. إن أولاد قمة الطبقة الراقية يترفعون عن دخول الجامعة المصرية ولما أن يسافروا إلى الخارج للالتحاق بجامعة أوروبية أو يعتمدون على تعليم أنفسهم بأنفسهم إذا أرادوا العلم .. وقد أراد منير أن يتعرف بكمال الروزناجي ليتفرج عليه كما هي عادته .. ثم بعد أن رأى أخته أصبح يتعنى أكثر أن يعرفه .. ولكن لم تسنح فرصة تجمعهما .. وهو لا يريد أن يبدو كأنه يسعى إلى معرفته .. وقد كانت هذه هي عادته في التعرف بأبناء هذه الطبقة .. ألا يسعى إليهم حتى لا يظنوا أنه مبهور بهم أو طامع في الإحسان عليه بالوقوف أمامهم أو التمتع بمظاهر مجتمعاتهم .. ثم إن كمال لا ينتقل من كايين العائلة .. إنه يجلس فيها طوال اليوم مسترخيا على مقعد مريح دون أن يقوم ليشتمش على الشاطئ أو يسبح في مياه البحر ولو كمجرد رياضة .. وربما لهذا فهو سمين .. وقوامه متنفخ يشوه قوامه وشبابه .. وكان يجلس طوال اليوم في الكايين أو تحت الشمسية من شاطئ الشاطئ ويلتفت أصدقاؤه حوله في حديث لا ينتهي .. وعادة ما يستمر الحديث حتى يحين موعد الغذاء فيتقدم الخدم وهم مرتدون أثياب الخدمة الرسمية ورئيسهم يرتدي بدلة كأنها بدلة سموكج مما يلبسها أولاد النوات في الحفلات .. ثم يعلون مائدة فخمة زاهية وألوان متعددة من أصناف الأطعمة الراقية .. كأن الشاطئ قد انقلب إلى قصر من قصور الروزناجي ..

ولم تسنح الفرصة لينضم منير إلى شلة كمال دون أن يعتمد السعي إليه .. إلى أن ذهب يوما في الصباح الباكر لينتظر رؤية دلير من بعيد كما تعود منذ أيام .. ولكن دلير لم تأت رغم طول انتظاره .. فقام يسير أمام كايين العائلة لعله يستطيع أن يلمحها .. وقد رأى أخاها كمال من بعيد وهو جالس خارج الكايين .. وكان وحده فالوقت لا يزال مبكرا حتى تجتمع الشلة ..

وكان ينوى أن يمر أمامه بسرعة ويلقي لحة خاطفة داخل الكاين بخنا عن دليبر .. ولكنه ما كاد يضع خطوته أمام الكاين حتى سمع صوت كمال كأنه يناديه :

— أهلا وسهلا .. تفضل ..

وتوقف منير وهو دهش والتفت إلى كمال كأنه يسأله .. هل يناديه هو .. ووقف كمال أمامه وهو يمد يده مكررا :

— تفضل يا أستاذ منير ..

ودهش منير وهو يصافح اليد التي مدت له .. إنه يعرف اسمه .. وقال من خلال دهشته :

— صباح الخير أستاذ كمال .. تشرفت ..

وقال كمال وهو يلقي جسده السمين على المقعد المريح وعلى شفثيه ابتسامة مرحية :

— إن أصدقاءنا حدثوني عنك كثيرا .. حتى أصبحت أعرفك دون أن نلتقى ..

وقال منير وهو يخلق في وجه كمال :

— إني أعرفك من قبل أن يحدثني عنك الأصدقاء فأنت شخصية معروفة ..

وأحس بالراحة وهو يخلق في وجه كمال .. إنه وجه ليس فيه لحة مفتعلة كوجوه أولاد الذوات الذين يفتعلون التعالي والجدية مع الغرباء .. إن كل ما على وجهه يبدو مرحيا فعلا به ترحيبا طيبيا كأن لا فرق بينهما .. لا فرق بين الطيقتين .. وابتسامته تبدو صادقة في الترحيب به وليست مجرد ابتسامة مجاملة .. وهو أكثر بياضا في لون بشرته من أخته دليبر .. لعله أخذ

من لون أمه أكثر مما أخذ من لون أبيه ..

وقال كمال من خلال ابتسامته المريحة :

— لقد قال لي الأصدقاء إنك من هواة القراءة .. وأنا أيضا من هواة القراءة ..

وقال منير ضاحكا :

— إني لا أحب قرقرة اللب .. فأقرقر السطور المكتوبة بدلا من قرقرة اللب .. هذا هو كل شيء ..

وقال كمال وهو يشاركه ضحكته :

— وهل تهوى قرقرة اللب الأبيض أم اللب الأسمر .. أى ماذا تقرأ ؟

وقال منير بلا اهتمام :

— لا يهمنى أن أختار ما أقرأ .. فإني أبدأ بقراءة أى سطور وإما أن أعيش فيها إلى أن أنبها وإما أن ألقى بها بعيدا بعد سطرين أو ثلاثة .. إني أحس وأنا أقرأ كأنى أفرج .. وهناك ما يشدنى إلى الفرجة وما يصرفنى عنها .. وأنا حر .. ولكن الواقع أنى أميل إلى الفرجة بقراءة القصص والكتب التاريخية ..

وقال كمال بصوته الطبيعي العادى الذى لا تكبر فيه يعبر عن إحساسه بطبقته :

— لقد كنت مثلك وأنا شاب .. كنت أهوى قراءة القصص وكتب التاريخ .. ولكنى اكتشفت أن القصص تمتعنى بخيالى والتاريخ يشدنى إلى الماضى .. فى حين أنى أبحث عن الواقع وأريد أن أعيش فيه .. ووجدت الكتب التى تربطنى بالواقع فتعلقت بها وأدمنتها ..

وقال منير كأنه يصحح له :

— إنك لا تزال في عرشك ..

وقال كمال في جدية :

— إن العمر يقاس بما يملأ فكري من معرفة .. وإن أحيانا من كثرة

ما عرفت يغيب إلى أني اجتزت عمر الشباب ..

وقال منير كأنه يتباهى بأنه يعرف عنه كل شيء :

— إنى أعرف عنك أنك تخصصت في الدراسات السياسية ..

وقال كمال ساخرا :

— لا أحب أن أسميها سياسة .. إن الدراسات التي تقصدها هي دراسة

الواقع .. وهناك واقع عام .. وواقع طبقي .. وواقع شخصي .. والفكر في

حاجة إلى دراسة وفهم كل هذا الواقع حتى يصبح فكرا سياسيا يخطط

سياسة التعامل مع هذا الواقع ..

وقال منير وهو مبهور :

— لم أصل بفكري إلى هذا الحد من الفهم ..

وقال كمال مبتسما دون أن تبدو في كلامه هجة الأستاذ :

— أي كلية ستلتحق بها بعد أن حصلت على التوجيهية كما عرفت ؟

وقال منير في بساطته :

— لقد كنت في قسم أدبي وقد اخترت أن التحق بكلية الحقوق ..

(وضحك قائلا) .. ليس معنى هذا أني أريد أن أكون وزيرا كما يقولون إن

كل الوزراء من خريجي الحقوق ..

وقال كمال وهو يلوى شفتيه كأنه يستهين بما يقال :

— لقد كان أني وزيرا كالأشك قد سمعت عنه .. ورغم ذلك لم يكن من

خريجي الحقوق .. ولا من خريجي أي كلية .. إنه وزير يحكم الطبقة التي

ينتمي إليها .. الطبقات هي التي يقوم عليها تنظيم الحكم .. والأحزاب التي

تتبادل الحكم تختلف بنسبة تمثيلها لكل طبقة .. ولا يقوم أي حزب منها على

مذهب أو على علم ولا حتى على خطة .. إنها مجرد تنظيمات للطبقات التي

تعيش في مصر .. ودراسك في كلية الحقوق ستكون لك دراسة هذا الواقع

ولكن لا تكفي بدراسة ما يقدمونه لك في الكلية ليمتحنوك فيه .. إن الواقع

أوسع بكثير مما تجمعها كتب الجامعة ..

وقال منير في دهشة بعد أن سمع كمال يقول عن أبيه هذا الكلام :

— إنى سمعت أنك وفدى .. أي تنتمي إلى حزب من الأحزاب التي تقول

إنها لا تمثل مبادئ ولا مذاهب بل تمثل طبقات .. كأنك أنت أيضا

مستسلم للواقع الطبقي ..

وضحك كمال قائلا :

— إن الناس تقول عنى إلى وفدى لأنى من أب وفدى .. تماما كما يقولون

عنى إلى مسلم لأنى من أب مسلم .. وأنا لم أقرر أن أكون وفديا ولا حتى

مسلم .. ولكنى أنسب إلى والدى كما ينسب إليه اسمى الذى اختاره لى دون

أن يكون لى دخل فى اختياره .. وكأن هذا الاسم الذى اختاره والدى هو ..

كمال يحيى الروزناجى الوفدى المسلم .. ومن حقى أن أرفض ما اختاره والدى

لى .. وأن أكون حرا فى اختياري وفقا لاعتناعي .. ألا أكون وفديا إلا إذا

اقتنعت بحزب الوفد .. ولا أكون مسلما إلا إذا اقتنعت بالإسلام ؟ اقتناع

شخصي ينطلق من عقليتي أنا لا اقتناع مفروض على بحكم الوراثة .. بل إلى

لست مقتنعا حتى باسم العائلة .. الروزناجى .. إنه اسم يعبر عن أيام

الأتراك .. وأنا أبعد عن الأتراك من أنى .. إلى ولدت في واقع يختلف عن

الوقائع الذى ولد فيه أنى .. والواقع هو الذى يحدد الشخصية والصفة ..

والاسم هو الذى يرمز إلى هذه الشخصية والصفة .. فلماذا لا أسمى نفسى
عوضين بدلا من الروزنامجى .. ما دام واقعى هو واقع فلاح مصرى
يزرع فى أرض مصر وليس واقعا تركيا فرض نفسه على حكم مصر كما كان
واقعا أنى وجدى وجد جدى الذين كان يعبر عنهم باسم الروزنامجى ..

وأحس منير كأن كمال رقه بكلامه وقذف به وسط سحب داكنة سوداء
لا يرى من خلالها شيئا .. إنه حائر تائه فى كل كلمة سمعها إلى حد
الذهول .. ماذا يريد أن يقول هذا الوافد الجديد على دنياه .. ماذا يقصد ..
وماذا يريد إقناعه به .. بل لماذا يقول هذا الكلام .. هل له هدف يريد أن
يشله إليه ..

وأفاق منير من ذهوله ودلبر تدخل إلى الكابين .. ووقفت أمامه هو وأخيها
وبين شفيتها ابتسامة كأنها فرحة لأنها وجدته بعد أن ضاع منها موعد لقائه ..
إنها أول مرة يرى فيها ابتسامة حلوة هادئة صادقة لا تحس فيها بأنها مجرد
ابتسامة مجاملة تقليدية .. وقدمه إليها أخوها :

— الأستاذ منير ..

وقالت دلبر فى طعنة عادية مع ابتسامتها :

— لقد كنت أراه فى البحر ..

كأنها كانت تعترف بأن هناك ما يجمعهما .. رآته كما رآها .. وقد
مدت يدها تبصافحه .. أول مرة يلمس قطعة منها .. إن يدها أرق وأنعم مما
كان يتخيل .. وأصابعها أرفع كأنها خيوط من حرير .. وأخذت دلبر يدها
بسرعة من يده وخطت داخل غرفة الكابين .. واعتقد منير أنها دخلت
لتبذل ثوبها وتضع على جسدها المايوه وفوقه البنفسج لتدعوه إلى لقاء البحر ..
ولكنها عادت وهى فى ثوبها الكامل وفى يدها كتاب وجلست فى ركن بعيد

عنها وبدأت تقرأ فى الكتاب .. إنه كتاب باللغة الفرنسية .. إنها طبعاً
لا تقرأ العربية ..

وبعد لحظات جاءت وراءها أختها الأكبر نسليار .. كما عرف اسمها فيما
بعد .. ولم تقف لتبصافحه بل لم تلتفت إليه .. ثم وقفت بجانب أختها دلبر
الجالسة تقرأ فى كتابها وشدتها من يدها إلى داخل الكابين حيث بقيتا
لحظات وهو يسمع صوتيهما كأنهما يتهاامسان .. ثم خرجا وبدلا من أن تعود
دلبر إلى مكانها الذى كانت تجلس فيه سارت مع أختها إلى الشاطئ حيث
جلستا تحت إحدى الشماسى .. ربما كانت نسليار قد أنبت أختها دلبر على
جلوسها بجانب غريب حتى ولو فى وجود أخيها .. وأخذتها بعيدا عن
الغريب ..

وبعد لحظات أخر دخل عليهما فؤاد أخو كمال الأكبر .. إنه شخصية
مختلفة تماما عن شخصية كمال .. كان يرتدى زيا أرستقراطيا .. برنيطة فوق
رأسه .. وجاكت رياضية من الجلد المطرز فوق قميص زاه بالنقوش
والألوان .. وينظرون طويل لا تزال المكواة ترسم لخطوطه .. وحذاء كاملا
وإن كان نعله من الكاوتش السميك .. إنه زى لا بد أنه مستورد ولكنه رغم
فخامته لا يمكن أن يصلح ليوم مريح تلعب فيه على الشاطئ .. وقام منير
واقفا فى استقبال الأخ الأكبر .. وقال كمال وهو جالس مكانه ودون أن يرفع
عينه إلى أخيه وهو يقوم بمهمة التقديم :

— أخى فؤاد .. الأستاذ منير ..

وقال منير فى لهجة رسمية ودون أن يتسم فشكل فؤاد لم يدفع شفتيه إلى
الابتسام :

— تشرفنا ..

وهو فؤاد رأسه في تحية رسمية دون أن يمد يده المصافحة .. وكان منير حريصا فلم يسبقه بمد يده ..

واختار فؤاد مقعدا في مواجهتهما جلس عليه وهو ينظر إليهما نظرات جادة كأنه يأمرهما بأن يكشفوا عما بينهما وعما يدور بينهما من حديث .. وكان منير لا يزال واقفا والتفت إلى كمال مستأذنا في الانصراف .. وكأن كمال يعرف أن لا أحد يطيق أن يجلس معه ومعهما أخوه فؤاد فقال راجيا :
— انتظر .. سنتنقل لنجلس تحت شمسية .. قريبا من البحر وأواجه ..

وقال منير معتبرا من خلال ابتسامة :

— آسف .. مضطر أن أذهب ..

ونظر إليه كمال كأنه يفهمه :

— إذن .. انتظر لحظة .. سأعطيك كتابا أتمنى أن تقرأه حتى أبدا في إقناعك بالدنيا التي أعيش فيها .. ولعلك تتفجع أن تعيش فيها معي ..
وعطاه إلى داخل الكابين ثم خرج يحمل كتابا ناوله لمنير وهو يقول :
— إنه بالإنجليزية .. لا شك أنك تقرأ الإنجليزية ..
وقال منير وهو يقلب الكتاب في اسمه ويقرأ عناونه :
— شكرا .. وإلى اللقاء ..

وابتعد والكتاب في يده .. إنه كتاب ميكافلي بعنوان « الأمير » .. وقد سبق أن سمع عن هذا الكتاب ولكنه لم يقرأه .. ولا يحس الآن بدافع لقراءته .. إن كل ما يسيطر على كل فكره هو الكلام الذي سمعه من كمال ..

(٢)

عاش منير كل ساعات يومه والكلمات التي سمعها من كمال الروزنامي تعطن في أذنيه وتقلأ رأسه .. لم يكن ينتظر أن يسمع مثل هذه الكلمات من أحد أبناء هذه الطبقة .. ما حاجته إلى أن يبحث عن واقع آخر غير واقع طبقته .. وهو واقع يغنيه عن التفكير عن أي شيء خارجه .. بل ويغنيه عن التفكير في المستقبل لأنه واقع يضمن مستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده .. إنه يملك مئات الأفدنة من الأرض .. والأرض هي التي تقم الدولة ومالكها هو رئيس دولة .. حتى لو كانت دولة صغيرة تقوم على هذه المساحات من الأفدنة .. والدولة ليست في حاجة إلى البحث عن واقع غير واقعها .. وواقع الأفدنة وصل بهم إلى الواقع العام .. فوالده عضو بارز في حزب الوفد وتولى الوزارة عدة مرات .. أي تولى الحكم .. وأمه من العائلة المالكة التي تحكم مصر كلها حتى لو كانت من فرع بعيد من العائلة .. فإن الحكم في مصر في يد العائلة كلها تختار من بينها من يحمل لقب ملك ويتحمل مسؤولية ملك .. ولكن كمال يقول كلاما عجيبا وربما لو طالعت جلسته معه لسمعته منه كلاما أعجب .. إنه يقول إن والده لا يستحق أن يكون وزيرا .. وأنه لا يعتبر نفسه وفديا مجرد أن والده ينتمي إلى حزب الوفد .. بل لا يعتبر نفسه مسلما مجرد أنه ولد لمسلمين فالإيمان بالدين لا يقوم على مجرد الإرث بل يقوم على الاقتناع الكامل .. والاقتناع الكامل لا يقوم إلا على حرية الاختيار .. أي حتى يكون مسلما يجب أن يكون قد اختار الإسلام بعقلية

هو .. بل إن كمال وصل إلى حد أن قال إنه يرفض الاسم الذى يحملته ..
الروزنامى .. لأنه اسم لم يختره لنفسه ولم يعد يعبر عن واقعه الذى أصبح
مختلفا عن واقع أبيه وحده أى واقع من اختار لنفسه هذا الاسم ..

ويرتفع طين هذا الكلام فى فكر مير .. ثم يمر به حاطر أن كمال محق فى
كل ما قاله .. بل إن بعض ما قاله ينطبق عليه هو شخصيا .. فهو مثلا
ليس وفديا ولا ينتمى إلى أى حزب من الأحزاب السياسية رغم أنه يشترك فى
كل المناقشات التى تنور بين زملائه .. وكان يشترك فى كل المظاهرات
السياسية التى تخرج من المدرسة .. وكان له فيها معارك عنيفة مع البوليس ..
ولكنه كان يشترك فيها بقوة الدوافع الوطنية دون أن يحس وهو فيها بأنه ينتمى
إلى حزب تعبر عنه هذه المظاهرة .. لماذا ؟ .. لماذا لم يفكر فى أن يكون وفديا
أو ينتمى إلى أى حزب سياسى ؟ .. ربما لأنه لم يرث الحرية عن والده كما
يقول كمال .. إن والده متباعد عن كل الأحزاب .. وقد ورث عنه هذا
التباعد .. وإن كان يختلف عنه فى تباعده .. فوالده متباعد حتى عن مجرد
التفكير السياسى فى حين أنه هو يهوى الفكر السياسى .. إنما يجب أن يصعب
نفسه فوق شخصية أبيه ولا يستسلم للإرث .. يجب أن يبدأ فى الاتصال
بكل الأحزاب ويترسها ويعرف حباياها وربما اختار من بينها حزبا ينتمى
إليه .. وهو لن يبدأ باعتبار نفسه وفديا مجرد أن الوفد هو حزب الأغلبية ..
سيكون حرا حتى بالنسبة للأغلبية .. وقد انتهى بأن يرفض الانتماء إلى أى
حزب سياسى ويبقى كما هو الآن .. ولكنه يكون قد اختار وليس مجرد
مستسلم لطبيعة شخصية ورثها عن طبيعة أبيه ..

ثم لماذا هو مسلم ؟

إنه أكيد مسلم وحريص على إسلامه .. وقد بدأ القرآن مدك كاد صيبا

ويصلى ويصوم .. وإن كانت قد مرت به حالات حرم نفسه فيها من الصلاة
وحتى من صياه أيام من أيام رمضان .. ولكنه مسلم دائما حتى لأنه رغم ثقته
الكاملة فى نفسه وهو يدخل امتحان المدرسة لا يستطيع أن يبدأ فى كتابة
الإجابة على الأسئلة إلا بعد أن يقرأ العائنة داعيا الله ونبي المسلمين أن يوقروا
له النجاح .. ولكن لماذا هو مسلم ؟ .. إنه قطعاً لم يمر بأى تجربة دفعته إلى
اختيار الإسلام .. لقد وجد نفسه منذ فتوح وعيه أنه مسلم .. واستسلم لما
وجد نفسه فيه إلى حد الإيمان الكامل بالإسلام .. ولكنه إيمان ورثه عن أبيه
وعن عائلته دون أن يخطر على باله أى تساؤل .. لماذا هى عائلة مسلمة ..
ومادا كانت عليه قبل أن تصل دعوة الإسلام إلى مصر .. هل كانت عائلة
مسيحية .. أم عائلة يهودية .. أم عائلة تعبد آمون إله الشمس كأجدادنا
الفراعنة .. وكيف احتارت الإسلام .. هل نفاقا للحاكم الجديد كما فعل كثير
من اليهود .. أم غيرها من دفع الجزية كما فعل كثير من المسيحيين .. أم إنها
عائلة احتارت الإسلام عن اقتناع كامل رفعها إلى مستوى الإيمان .. إنه هو
شخصيا لم يضع نفسه فى حالة اختيار .. بل إنه يعتبر نفسه جاهلا فى فهم
الإسلام .. مكتفيا بالإيمان عن الفهم .. لا .. يجب أن يدرك الإسلام
وبهمه حتى يختره ويكون أقوى إيمانا باختياره عن الإيمان بالامتثال ..
ولكن كيف .. كيف يبدأ ؟ ..

وعشرات التساؤلات تنطلق مع طنين كلمات كمال الذى يملأ رأسه ..
حتى وجد أنه حرم نفسه من متعة الأيام التى يقضيها على الشاطئ ..
فلا يسبح فى مياه البحر .. ولا يجتمع بأصدقائه .. ولا يتمتع بالفرجة على
أولاد النوات المتجمعين فى ميامى .. إنما الروى فى ركن بعيد من الشاطئ
وألقى بعصه رفد على الشاطئ سارحا فى تساؤلات فكره .. إلى أن وجد

نفسه قبل أن تعيب الشمس يقوم بجري إلى كايين كمال باحثا عنه كأنه يريد أن يحمله مسئولية هدمته .. ولكنه وجد الكايين مقلقا ولم ير كمال ..

وكل ذلك ودون أن تضع من خياله ولا من إحساسه صورة دلر أحت كمال .. إنه يناقش كمال وهو يحس كأنه يناقشها .. ويحاول أن يفهمه كأنه يحاول أن يفهمها .. حتى وهو يجري باحثا عنه كانت صورتها في إحساسه كأنه يبحث عنها ..

وفي صباح اليوم التالي وضع المايه وذهب إلى الشاطئ ميكرا كمادته في انتظار أن تلتقي عيناه بدلبر .. وجاءت في موعدها الميكرا وهي تخفي المايه وتفصيل قوامها خلف البرنس السميك الطويل .. ومن خلفها الدادة العجور داكنة السمار .. ونزلت إلى البحر والدادة تفوس في المياه وراعيها لتخلع عنها البرنس ثم تركتها تغطس وحدها .. وغطس في المياه معها .. إن من حقه الآن أن يهادنها بعد أن تعارفا .. واقترب منها وقال بابتسامته التي تنبض بفرحة :

— صباح الخير ..

وردت نحيته وابتسامتها تضيء بفرحتها :

— بونجور ..

وقال كأنه وضع تحفيظا لده حديث طويل معها :

— لقد أسعدني الحظ بالتعرف إلى أخيك كمال .. وكأننا تعارفا نحن الاثنين أيضا .. ولكن الواقع أن كمال أدهشني وحرى بكلامه معي .. حتى أني لم أستطع فهمه .. وقضيت طول نهار أمس وطول الليل كأني أناقشه لأصل إلى فهمه ..

وصحكت ضحكة صغيرة هادئة وقالت :

— إنك إذا فهمت كمال فليس معنى هذا أنك فهمت العائلة .. بل إنك حتى تفهم العائلة يجب ألا تفهم كمال فهي عائلة كل أفرادها لا يفهمون كمال .. كأنه يتكلم بلغة غريبة لا يتكلمها واحد ما .. حتى انقطع الكلام بينه وبين بابا .. وبين أخى فؤاد .. بل وبينه وبين ماما .. وأختي نسيهار .. ربما كنت أنا الوحيدة التي تستطيع أن تتبادل معه بعض الكلمات بلغته .. وإن كنت لا أفهم كل كلامه ..

وقال من خلال فرحته :

— لقد أراد كمال أن أفهمه وحاول أن يفهمني نفسه .. وأتمنى أن أجد من يحاول أن يفهمني العائلة ..

وقالت دون أن ترد عليه وهي تحرك ذراعها تحت الماء وتسبح بعيدا عنه :

— بردون ..

كأنها تعذر عن اضطرابها للابتعاد عنه ..

ولمح الدادة السمراء التي كانت جالسة على حافة الشاطئ قد قامت واقفة وهي تنظر إليه من بعيد كأنها تراقبه وتهم أن تدعو البوليس لانتقاد دلبر من شاب يعاكسها وهي تسبح في البحر ..

وابتسم كأنه يهني نفسه .. ويكفي أنه استطاع أن يبدأ الحديث معها حتى لو كان بضعة كلمات .. وأخذ يسبح منفردا إلى أن نهها تخرج من البحر والدادة تتبعها بالبرنس .. وتتبعها بهيمه حتى دخلت الكايين .. ثم ترك مياه البحر وألقى بنفسه على رمال الشاطئ تحت الشمس حتى يجف .. ثم قام ونفض نفسه من الرمل بدقة أرالت كل حبة رمل ثم سار متجهها إلى كمال .. لا يصح أن يبدو أمام أولاد الدوات وهو ملوث بحبات الرمال .. واستقبله كمال مرحبا بلهجة الطيبة التي لا يشوبها أى افتعال مما تعود

أولاد النوات .. وقال وهو يشبه من يده :

— سنجلس تحت شجرة حتى لا يقطع أحد حديثنا ..

وابتسم منير بينه وبين نفسه مستسلما .. إن الجلوس تحت الشمية
يبعده عن دلب .. وقال له كمال وهما يجلسان :

— هل بدأت تقرأ ميكافلي ؟

وقال منير من خلال ابتسامته :

— الحقيقة أني لم أقرأ شيئا منذ تركت .. حتى ولا جريدة صباح
اليوم .. إن عقلي مشغول بمحاولة فهم ما سمعته منك ..
وضحك كمال قائلا :

— إن فهمي يبدو صعبا في اللقاءات الأولى .. وأعرف أن ما أقوله يعتبر
مفاجأة لمن يسمعي أول مرة .. كيف يقول ابن الباشا هذا الكلام .. ولكن
المفاجأة لا تلبث أن تزول وأصبح سهل الفهم على كل من يسمعي .. على
الأقل يفهمون أني لم أحتر والدي ولكني ولدت له دون اختيار ..

وقال منير كأنه يلقي نكتة :

— إنما إرادة الله .. أنت ابن باشا وأنا ابن أُندي ..

وقال كمال وهو يضحك على النكتة :

— لو كان الله موجودا لناقشته في حقه أن يفرض على أبا لا أحتاره ..

وقال منير كأنه يستغفر قبل أن تلحقه مصيبة :

— إن الله موجود ..

وقال كمال ساخرا :

— موجود في خيالك .. وأنا لم أعد خياليا .. وعده ما يجيل إليك أنك
تحدث الله فالواقع أنك تحدث نفسك .. لا أكثر .. وتصور أنك تحدث

الله لتهرب من نفسك .. من ضعفك .. من الواقع الذي تعيش فيه .. وأنا
أعيش الواقع لذلك فإنني أتحدث مع واقعي لا مع خيالي .. أي أن أتحدث
إليك مثلا .. لأنك واقع في حياتي ولست مجرد وهم أتصوره ..

واتسعت عينا منير مبهلحا في كمال .. إن هذا الشاب كافر .. إنه
لا يؤمن بالله .. وصرخ :

— إن الله موجود سواء رفعت حديثا إليه أو لم ترفع .. وهو ليس موجودا
في الخيال .. ولكنه موجود بوجود الأرض والسماء والشمس والقمر ..
والجبال والبحار .. والحر والبرد .. موجود داخل وجودك .. لولا الله لما كنت
ولما كانت كل المخلوقات .. ذلك نلجأ إليه مستغيثين أو مستغفرين ..
بطلب أن يرحمنا وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم ..

ونظر إليه كمال في دهشة كأنه فوجئ بتمسكه بإيمانه .. ثم قال هادئا
كأنه هو الآخر متمسك بإيمانه :

— إن الموجود هو الإنسان .. والإنسان كأى شيء يوجد .. يبدأ ببدرة
ثم ينمو .. وكلما نما الإنسان اكتشف سرا من أسرار وجوده .. وتصور
الإنسان منذ مليون سنة مثلا .. لم يكن قد اكتشف سر الزراعة .. كان
يأكل ما يجده على الأرض .. ولكنه مع نموه عرف كيف يزرع وكيف يختار
ما يزرعه .. وسيستمر الإنسان في النمو حتى يكتشف سر الأرض والسماء
والشمس والقمر والحيات والوديان .. أى يستكمل الانفراد بإرادته وحرص
ما يختاره ..

وضحك منير وهو يصبح قائلا :

— أنت الآن حيائي ولست واقعي .. إنك تتحيل الإنسان منذ مليون
سنة .. وتحييه بعد مليون سنة .. ولكن حتى كل هذا الخيال لا يستطيع

أن يكشف لك أسرار الواقع .. إنك تقول إن وجود الإنسان بدأ بدة أخذت تنمو .. ولكنك لا تسأل نفسك .. من أوجد هذه البدة .. من خلق هذا الواقع منذ بدأ .. إنك لو ساءلت نفسك لا اعترفت بوجود الخالق .. بوجود الله .. إن الله هو الواقع الوحيد الشامل والأسمى والذي يؤمن به كل فكر واقعي مهما اشتط به الخيال .. فأفق من خيالك وكن واقعيا ..

وقال كمال وهو يفتعل ابتسامة :

— إن من الواقعية أننا يمكن أن نستمر في مناقشة هذا الموضوع العمر كله .. فدعنا منه الآن .. وقد قلت لي إنك لا تفهمني .. فلنبدأ فهم ما تريد فهمه ..

وفي هذه اللحظة تقدم السفرجي الأنيق وهو في زيه الرسمي يحمل صينية فضية عليها كوبان من العصير وانحنى بها أمامهما .. ومن كل منهما يده بسرعة يلتقط كوبا ويرفعه مباشرة إلى شفتيه كأنه يريد أن يخفف به من حذته ..

وقال منير وهو يتلعب ببقه كأنه يتمتع بما بقى فيه من قطرات العصير :

— الواقع ألى أريد أن أفهم أولا ما سمعته عن حداثك الخاصة حتى أستطيع أن أقيم عليها فهمي لأرائك .. لقد سمعت أنك حصلت على الشهادة الثانوية منذ ستين .. فلماذا لم تلتحق بالجامعة كما يعمل كل من ينال التوجيهية ..

وقال كمال من خلال ابتسامته :

— ربما سمعت أن أولاد الأعيان لا يدخلون الجامعة لأن الشهادات الجامعية مخصصة للحصول على وظائف الحكومة وهم ليسوا في حاجة إلى وظيفة حكومية .. وأنا منهم .. وقد يكون هذا صحيحا في ناحية من

النواحي .. ولكنه ليس السبب في أني لم ألتحق بالجامعة .. السبب هو أني وجدت أن الزايج الدراسية في أى كلية نظرية وأما أميل إلى الدراسات النظرية ، وجدتها لا تكفي ولا تحقق ما أريد دراسته .. لذلك بدأت الدراسة عن طريق التراسل مع جامعة كامبريدج .. وبعد أن تنهى الحرب العالمية سأسافر وألتحق بها .. ولن أكتفى بالدراسة في كامبريدج .. بل سأسافر بعدها إلى موسكو لأدرس هناك ..

وقال منير في دهشة :

— لماذا موسكو ؟

وقال كمال في هدوء :

— لأدرس تطبيق النظرية ..

ويتعلق منير في وجه كمال قائلا كأنه يواجهه بتهمة :

— لقد سمعت أنك ماركسي ولكني لم أصدق ..

وقال كمال ساخرا :

— لماذا لم تصدق ؟

وقال منير بسرعة :

— لأن الواقع الذي يحيط بك لا يمكن أن يؤدي بفكرك إلى الماركسية .. إن الفكر ينطلق من الخواطر .. والخواطر تنطلق من الواقع الذي يحيط بصاحب الفكر .. وما يحيط بك لا يمكن أن يثير هيئ خواطر تؤدي بك إلى الفكر الشيوعي .. أو الفكر الماركسي ..

وقال كمال في هدوء الأستاذ :

— إن الفكر أحيانا يخرج عن الواقع الشخصي ويشمل الواقع العام .. وهنا ما وجدت فكري يطلق إليه .. والواقع العام يقوم على عدم عدالة

التوزيع .. توزيع مطالب الحياة .. إن والدى مثلا يملك ألف ومائتى فدان ويستولى على كل إنتاجها فيما الذى يتحمل مسئولية هذا الإنتاج هو الفلاح .. ووالدى ونحن معه نعيش فى منتهى الرخاء .. الخد الأقصى من الرخاء .. بينما مئات الفلاحين يعيشون على أرضنا فى منتهى اليأس .. فأين عدالة التوزيع ؟ .. ثم ماذا يوفر إنتاج المصنع .. إنها الآلة وهو العامل .. وقد يهتم صاحب المصنع بتوفير مطالب الحياة للآلة حتى يضمن تشغيلها ولكنه لا يهتم بتوفير مطالب الحياة للعامل لأنه لو تركه يموت فسيجد غيره .. وأقصد توفير مطالب الحياة المتساوية .. أى يعيش الفلاح والعامل فى نفس المستوى الذى يعيشه أى وعبود باشا .. وأنا وإحرقى ..

وقال مير معارضا :

— هناك فارق بين الإصلاح والنظرية الماركسية فهى نظرية تطالب بمحو طبيعة النظام الإنسانى الذى وضعه الله .. وقد نص فى القرآن .. ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ ..

وقاطعة كمال قائلا فى رجا :

— لا تستشهد فى كلامك بما جاء فى القرآن لأنى لا أستطيع أن أناقش الله .. إني أناقشك أنت .. فقل رأيك الخاص حتى مع إيمانك بالله .. ثم ماذا يقصد الله بأنه رفعنا بعضنا فوق بعض درجات .. لا شك أنه يقصد أنه ميز بين الأفراد فى مستوى الذكاء .. أو فى مستوى القدرة على الإنتاج .. أو فى مستوى الاحتمال .. أو .. أو .. ولكنه لم يميز بتخصيص الحياة للبعض وسحرمانها على البعض الآخر وإلا لما خلق هذا البعض .. ثم من يحدد أجر العامل ؟ .. الله أم صاحب المصنع .. وصاحب هذا المصنع قد يدخل الحميم ولكن الله لا يغضب علينا إذا استطعنا أن ندخله جحيم الدنيا قبل أن

يصل به إلى جحيم الآخرة .. إن سيدك عمر بن الخطاب كما هو مسجل فى الكتب وجد بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية أنه أخطأ فى ترك الحرية للمسلمين ليصل كل من يستطيع منهم إلى منتهى درجات السلب والنهب .. وأصبح من بينهم العنى بلا حق والفقير بلا ذنب .. فقرر أن يضع نظاما جديدا يور المساواة والعدالة الاجتماعية لولا أنه قتل قبل أن يضع هذا النظام .. وهو نفس ما تفكر فيه اليوم ..

وقال منير كأنه فرح بإيمانه :

— لقد قلت ما ترد به على نفسك .. فسيدينا عمر لم يكن ماركسيا ولكنه كان مسلما كاملا .. أى أن الإسلام يقضى عن الماركسية .. فلماذا أنت ماركسى ؟

وقال كمال وهو لا يزال هادئا كأنه تعود مثل هذه المحادثات :

— أما لا أحب أن يقال عى إى ماركسى أو لينينى .. إني إنما مقتنع بالماركسية اللينينية .. والافتناع يحتفظ لصاحبه بشخصيته .. أى أنى أستطيع أن أطبق نفس نظرية ماركس فى إطار آخر غير الإطار الذى رسمه ماركس .. بل إن ما طبقه لينين لا يقاس بما كان يتصوره ماركس .. حتى إنه من المعروف أن الشيوعية لم يحققها نظام حتى اليوم .. لا فى روسيا ولا فى غيرها .. لذلك لا تقل عى إى ماركسى .. قل عى إى كمال يحيى الرورناجى ..

ودهش منير . هل كمال إسماعيل معروف حتى يتصور نفسه زعيما قائما بذاته ويرفض أن يسبب إلى أى نظرية حتى نظرية ماركس فى حين أنه يقول إنه مقتنع بها .. وقال منير مبسما :

— على كل حال فإن اقتناعك يسهل عليك تحقيقه فى واقع .. فعد وفاة

والدك أطال الله في عمرك تستطيع أن تقنع زوجتك بتوزيع الأرض على
الفلاحين الذين يزرعونها .. وتصبح النظرية واقعا ..

وارتفع صوت كمال محتدا :

— لا يمكن .. هذه جريمة تفصى على المستقبل كنه .. فالأرض الزراعية
التي يجب أن توزع ليست أرضنا وحدها .. بل يجب أن توزع كل أرض الله
الزراعية على من يزرعها .. وتوزع المصانع على من يحقق إنتاجها .. وكل هذا
لا يتحقق إلا بثورة .. بما فيها ثورة فلاحيا على والدي وعائتي وعلى أنا
شخصيا إذا لم أشارك في ثورتهم .. ولو وزعت أرضنا على فلاحينا فكأنى
أوزع عليهم رشوة حتى لا يشتركوا في ثورة مصر ..

وقال منير وهو حائر في دهشته :

— إنك على الأقل تستطيع أن ترفع من دخلهم حتى يصلوا إلى مستوى
أرفع في تحقيق مطالب الحياة ..

وصاح كمال :

— حتى هذا لن يحدث ولن أقدم عليه .. سأتركهم لما يعانونه حتى يجدوا
الطريق للتعلب عليه .. بل لكى فكرت يوما في أن أقيم مدرسة في أرضنا
وعدت وعدت .. إنى أصبحهم بكلامى أن يفتحوا لأنفسهم مدرسة
ليعلموا فيها أولادهم .. فلما أن يفتحوا هذه المدرسة بأنفسهم وإما أن يثوروا
مع ثورة كل فلاحى مصر حتى يحصلوا على حقوقهم في تعليم أولادهم .. وأنا
أتمنى ثورة الفلاحين حتى لو قتلوا فيها لذلك لا أوزع عليهم الرشاوى حتى
أحمى نفسى ..

وسكت منير تائها في حيرته .. ما حقيقة هذا الشاب .. ربما كان
صادقا في اقتناعه بما يقول .. ولكن ربما أيضا يكون مدعيا يحاول أن يرسم

لنفسه صورة مطهرة تختلف عن صورة أولاد الدوات حتى يمثل بهم
شخصية جديدة شتهر في مجتمعهم ويستطيع أن يكسب بها شانا من
خارج هذا المجتمع فتصبح له قيمة أخرى .. ولكن إذا اضطرتبه هذه
الشخصية إلى التنازل عن شيء من أملاكه وأمواله التي توفر له وضعه الذى
ولد فيه .. هل يتنازل عن مليم واحد .. لا للفلاحين ولا للعمال .. إن كل
ما هناك أنه يكتشف لعبة جديدة يسلى بها نفسه ويقطع أوقات فراغه ..
وبدلا من أن يقيم الحملات الرافضة أو يجمع حوله الأصدقاء ليعبوا الكوتشينة
أو الطاولة .. فهو يلعب ويسلى نفسه بالمذاهب السياسية وادعاءه
الماركسية .. حتى يفاجئ الناس كأنه أول واحد من طبقته يلعب هذه
اللعبة .. كما كان الكاتب الروسى تولستوى .. لقد كان من طبقة أصحاب
الأرض الذين يحكمون روسيا ولكنه اكتسب شهرة عالمية لأنه كان يكتب
عن حياة الفقراء في مواجهة طبقته .. من يدري حقيقة كمال يحيى
الروزنامى ؟ .. من يدري ؟ .. ربما كان فعلا يحلم بثورة يصل بها إلى أن
يكون هو شخصيا الذى يحكم مصر فالثورة التي قام بها أحد أجداد أمه على
الممالث وذبحهم كلهم في ولجة غداء وانفرد بعدهم بالحكم .. بقصد ثورة
محمد على ..

وأحس كأنه يكاد ينهار أمام كل هذه المخاطر التي تزدهم في رأسه
فاستأذن في إنهاء المناقشة والابتعاد .. وألح كمال عليه أن يبقى معه لتناول
الغداء ولكنه أصر على اعتذاره .. إنه يلح من بعيد الولايم الضخمة التي تقام
كل يوم في كابين كمال وتضم أفراد العائلة وأصدقاءهم مورعين داخل الكابين
وتحت الشاسى .. ويلح عشرات الأطباق من الأطعمة التي تقدم تشده
حتى وهو بعيد .. ويقاومها .. إنه لا يريد أن يعود نفسه على أكثر من الطعام

الذى يعده لنفسه وتكلفه الثلاث وجات معه خمسة قروش تعريفه .. إنه لو قبل دعوه فقد يهود نفسه على أن يبحث عن دعوة كل يوم حتى يمتنع نفسه بأطياب الأطعمة ويوفر الخمسة القروش تعريفه والجهد الذى يبذله فى إعداد الطعام لنفسه ..

وقال كمال وهو يصافحه ويضمه داخل ابتسامته :

— إننا نجلس كل مساء ابتداء من الساعة السابعة فى مقهى بيترو عند مدخل سيدى بشر .. وسأكون فى إنتظارك ..

وهز منير رأسه شاكراً .. ثم أدار رأسه مع أول خطوه بخطوها بعيداً عنه إلى ناحية الكاين .. يريد أن يرى دلبر .. وقد رآها .. ورآها تظر إليه .. خيل إليه أنها تهتسم له .. بل خيل إليه أنها اختارت جلستها داخل الكاين بحيث تستطيع أن تسلط عينها عليه طول وقت جلوسه مع أخيها ..

وانتسم يبه وبين نفسه متنبها كأنه يتعجب من أحلامه .. وسار المشوار الطويل وقدماه تغرران فى رمال الصحراء إلى أن وصل إلى العشة الخشبية التى يقيم فيها .. وأوقد هـ وابور الجاز هـ وبدأ يعد حلة البطاطس التى يعتمد عليها فى إشباع جوعه .. وإلى أن يستوى البطاطس التقط كتاب ميكافالى الذى أعطاه له كمال وبدأ يقرأ .. إنه كتاب عجيب يضع للحاكم .. أى حاكم لأى بلد .. صورة نصاب حظير ينصب على الناس ويهذبهم بامتصاص دماهم حتى يحقق أغراضه الخاصة التى تبدأ بفرض استمراره فى الحكم مهما كان رأى الناس فيه . وهو كتاب صغير لم يستطع أن يرفع عيبه عن سطوره إلا بعد أن شم رائحة الدخان تنطلق من حلة البطاطس وقد احترق ما فيها .. وقفر واقفا نحو وابور الحار ثم جلس أمام الحلة يأكل ما فيها برغيف العيش الذى يحتفظ به منذ الأمس .. ولا يهجه أن البطاطس أصبح محروقا ..

المهم أن يملا معدته بأى شئ .. وكان وهو يأكل يستمر فى كل تقليد صفحات الكتاب إلى أن انتهى من قراءته .. لماذا أعطاه كمال هذا الكتاب كهدية للتعارف .. ربما أراد أن يقنعه بمصاد كل الأحكام حتى يسهل عليه بعد ذلك أن يقنعه بالثورة على أى حاكم ..

وفى المساء قرر منير أن يذهب للقاء كمال فى مقهى بيترو .. إنه يحس بانجذاب للقاء كمال لا مجرد الفرجة عليه كواحد من طبقة أولاد النوات كما كان من عادته أن يعرج بهذه الفرجة .. ولكن هناك فرجة أخرى أثارها فيه كمال .. الفرجة على آراء جديدة كأنه يسافر بعقله إلى بلاد جديدة ويكتشف فيها آراء لم يعشها ولم يسمعها من قبل .. ثم إن كمال فى الواقع شخصية جدابة ترفع الكلفة سريعا بينه وبين من يجادته .. وحديثه مشوق إلى الاستمرار فيه .. إنه يعرض الآراء العجيبة بلهجة بسيطة وكلمات مريحة كأن ليس فيها ما يثير العجب .. إنها مجرد واقع نواجهه بالاستسلام الطبيعى ..

وقد قام كمال يستقبل منير بابتسامة واسعة وفرحة رنانة .. ربما كان فرحا بنفسه لأنه استطاع أن يجديه إليه .. وكان حوله ثمانية من أصدقائه يلتفون حول مائدة واحدة .. قدمهم إليه كمال فردا فردا .. عجيبة .. ليس كمال وحده من أولاد النوات .. إن معه ثلاثة آخرين من نفس الطبقة .. ابن الماسترلى .. وابن عائلة دو الفقار .. وابن عائلة شريف باشا .. لا شك أنهم الثلاثة شيوعيون مثل كمال وإلا لما اجتمعوا به هذا الاجتماع الخاص .. والباقيون بينهم خليل وهو زميل فى المدرسة وهو يعرف عنه أنه من عائلة أقل فى مستوى الطبقة الوسطى من عائلته .. من السهل أن يقتنع خليل بالشيوعية .. أما الآخرون فإن منير يلتقى بهم لأول مرة ..

وقال كمال بعد أن لاحظ أن منير يدير عينيه في نظرات صامتة ولكنها حائرة بين أصدقائه الجالسين معه :

— نحن أصدقاء نجتمع هنا كل مساء .. وأهم ما يجتمعنا أننا نخلصنا من الإحساس الطبقي .. كلنا طبقة واحدة .. بل إن المانسترلي وأبوه صاحب مؤدد يعتبر أن تحليل الذي يعمل أبوه ساعيا في المكاتب الحكومية أرق منه في الطبقة التي وصل إليها .. الطبقة المكرية .. الطبقة التي وصلت إلى أبعد في تحليل مبادئ العدالة الاجتماعية بالنسبة لمصر .. والتي ستكون يوما ما الطبقة المستولة .. ولكن لا تعتقد أننا نكون حزبا سياسيا .. فرغم نجاحنا في كل آرائنا إلا أننا لسنا حزبا وليس لنا تكوين حزبي .. إنما مجرد شلة .. ورفع منير حاجبيه دهشة .. لماذا يعتمد كمال أن يفى اجتماعهم كحزب سياسي .. لعله لا يأمن بعد إليه ويخشى أن ينقل ما يسمعه من أسرار الشلة إلى المباحث العامة ..

وتغلب منير على دهشته وقال مبتسما :

— إنى لا أعانى أى إحساس طبقي .. فأنا لست عنيا من أولاد النوات .. ولست أيضا فقيرا إلى حد أن أكون واحدا من الطبقة الفقيرة .. إنى كما يقال من الطبقة المتوسطة الحائرة بين الطبقة العنية والطبقة العقيمة .. وربما استطعت أن أصل إلى هذه الطبقة أو أقع في الطبقة الأخرى .. يمكن أن يقال إنى من الطبقة الحرة .. حر في اختيار مكافئ وأين أكون ..

وقال مصطفى وهو واحد ممن يلتقى بهم منير لأول مرة :

— كلام معقول .. أنا مثلك من الطبقة الحرة .. ولكنى سبقتك واخترت الطبقة التي تعتبر الطبقة الأحدث .. والطبقة العاملة .. وبدأ النقاش يتسع ويستمر طويلا بين أفراد الشلة .. وكله يدور حول

موضوع واحد .. موضوع النظام الطبقي ..

إلى أن قال منير كأنه يحاول أن يخرج من حيرته ويسترخ :

— لماذا نحصر كل تصورنا للمستقبل في موضوع الطبقة .. بل لماذا يكون الحل الذي نحلم به .. هو أن نحصر الحاكم في طبقة واحدة إلى حد أن نتصور الإطاحة بباقي الطبقات .. لماذا لا نتفتح بأن كل شعوب الدنيا تضم الأغنياء والفقراء .. وبحاول التوفيق بين هذه الطبقات في نظام لا يحقق سيطرة طبقة على طبقة أو أن تمش طبقة على حساب حق طبقة أخرى في الحياة .. كما حدث بين الشعب الإنجليزي ..

وصاح المانسترلي صاخطا :

— هل تعارض كارل ماركس ؟ ..

وقال منير وهو ينظر إليه متحمدا :

— إنى لم أقرأ كارل ماركس بكل تفاصيله .. ولكنى قرأت وسمعت ليكون لى رأى سطحي .. ولكن هل معارضة كلمات كارل ماركس كمعارضة كلمات القرآن يحرمها الله ويدخل المعارض الجحيم ..

وصاح المانسترلي :

— ما لنا والله ؟ .. إننا نتحدث عن كارل ماركس ..

وقال كمال مقاطعا وهو يتسم مهدئا :

— كلنا عارضنا كارل ماركس عندما بدأنا الالتجاء إليه .. ولكن اسمع يا منير .. هل قرأت كتاب ميكافلي الذي أعطيتك ؟ ..

وقال منير وهو لا يزال ينهج من ثقل النقاش :

— إن ما فهمته من كتاب ميكافلي هو أن الحاكم لا يعتمد على طبقة ولا يعتمد على مذهب من مذاهب الحكم ولكنه يعتمد على

نفسه في تحقيق أعرضه .. أو أنى فهمت أن الواقع هو أن الشعوب لا تقسم إلى طبقات وفقا لموضع الاقتصادى كما تقولون .. بل تقسم إلى طبقتين فقط .. طبقة الحاكم وطبقة المحكومين .. بصرف النظر عن المذاهب .. كل المذاهب .. حتى إلى بدأت أقنع بأنه حتى في روسيا اليوم ليست طبقة واحدة هي التي تحكم .. إنها هي طبقة الحكام وطبقة المحكومين ..

وقال كمال في بساطة وهو لا يزال مبتسما :

— إنك لم تخرج عن الفهم الصحيح .. وأنت قد استشهدت في كلامك بالشعب الإنجليزي .. إن الطبقة المحكومة في إنجلترا هي طبقة الأغلبية قضت مائتى عام في ثورة على طبقة الأقلية الحاكمة .. حتى تحقق توحيد الطبقتين في نظام واحد يحقق أهداف كل منهما .. وكارل ماركس وفر عليك هذه المائتى عام ووضع النظام الذى يحقق المساواة في الحال ومجرد استطاعتك تطبيقه .. وقد جئت معي بكتاب كارل ماركس لقرأه .. لقد كنت واقفاً أنك ستأتى لجلس معاً .. وهو مترجم إلى العربية حتى يصح سهلاً عليك .. ولكن كن حذراً وحريصاً .. إنه كتاب محرم في مصر ولو ضبط معك لوقعت عليك وربما علينا كلها مصيبة ..

وبد منير يده وأخذ الكتاب شاكرًا بلا حماس .. ثم استأذن وقام منصرفاً دون أن يكلف نفسه مصافحة أفراد الشلة .. وسار طريقه وآرؤهم فيما سمعهم ثائرة كأنها زوابع تصف برأسه .. وعندما وصل إلى عشته ألقى بكتاب كارل ماركس بعيداً بسخط وحده .. إنه لم يقرأه .. ولن يعود مرة ثانية إلى لقاء هذه الشلة .. إهم كلهم شيوعيون .. ماركسيون .. وهو لا يريد أن يصمم إلى أى مذهب .. ولا حتى أن يتخذ معارضة أى مذهب .. إنه

سيفقى ويتمسك بحريته .. حريته كعمره .. ومن حقه أن يقتنع أو يعارض كل صفحة يقرأها عن أى مذهب .. إن حريته الفردية العقلية هي المذهب الذى يؤمن به .. حرية فوق كل المذاهب ..

وفي صباح اليوم التالى لم يتردد في السعى إلى الشاطئ بحثاً عن دليل .. ووقف بعيداً يلمحها وهي تعوض في مياه البحر والدادة الغامقة السمار تتبعها .. وغاص وراءها .. ولكن هل يتقدم ليبدأها بالحديث .. إنها في الأمتس سمحت له بكلمتين ثم تركته .. لعلها اليوم لن تسمح له حتى بهاتين الكلمتين .. وقد تتجراً أكثر الدادة التي تراقبها من على الشاطئ وتستدعى البوليس ليحمي دليل من شاب يعاكسها .. وظل متردداً .. إلى أن فوجئ بدليل هي التي تقرب منه وتبديو الحديث :

— بونجور ..

ورد عليها فرحاً بها :

— صباح الخير ..

وظال الحديث عن الكلمتين اللتين سمحت لهما أمس .. والدادة واقفة على الشاطئ تبهلق فيهما ولكنها لم تستدع البوليس ..

اعتزازه وثقته بنفسه وهو يتحدث .. وأنا أعطى الحق لكل فرد في أن يتحدث فيما يريد حتى لو لم يجد مستمعين يفهمونه كما لا أفهم أنا كمال ..

الحمد لله .. إن أخاها لم يقنعها بالمراكسية .. رغم أنه كانت قد بدأت تظهر في تلك الأيام بنات بتظارهن بالمراكسية كتظارهن بأخر موضة وصلت إلى مصر ..

إلى أن بدأ أحوها يخفى من أحاديثهما .. إنهما يتحدثان عن كل ما في الدنيا وكأن كلا منهما يحاول أن يدخل في حياة وفي فكر الآخر .. والمهم أنه حديث لا يرهان له نهاية .. حديث لا يهمهما فيه ما يقولانه وكل ما يهمهما أن يستمرا فيه دون أن ينتهي ..

وبدأ مير يحس بقوة ارتباطه بدلير .. إنها معه في إحساسه وفي عقله وفي خياله طوال دقائق عمره .. حتى عندما ينام يحس أنه يغمض عينيه وهو معها بين أمواج البحر .. إنه يحبها .. لا يمكن أن يكون كل هذا الإحساس بها إلا إحساس الحب .. ولكن ماذا يمكن أن يحقق هذا الحب له أو لها ؟ .. كيف يمكن أن يجمعهما في كيان واحد ؟ .. إنها ابنة يحيى باشا الروزنامي .. ابنة الطبقة الراقية .. ابنة كل هذا الترف الباذخ .. وهو ابن عبد الله الأفندي غلام الموظف البسيط في وزارة المعارف .. ابن الصف الأسفل من الطبقة التي تسمى الطبقة المتوسطة .. ابن الناس الذين يقوم سعادتهم على الاكتفاء بما في أيديهم .. فكيف يصل ابن الأفندي إلى ابنة الباشا .. وكيف تهجر ابنة الطبقة الراقية طبقها لتعيش محرومة داخل الطبقة المتوسطة .. كيف تقبل ثاة تعيش بين فئة مميزة من الناس أن تنزل لتعيش بين ملايين الناس العاديين .. إن الحب لا يمكن أن يصل إلى هذا الحد .. الحب ليس ارتباطا بين اثنين .. فتي وقتاة .. إنه ارتباط بين حالة وحالة من

(٣)

إن الأيام تجري به وهو على شاطئ ميامي ..

وقد أصبح يلتقي كل صباح بدلير كأنهما على موعد يجمعهما دون أن يتفقا عليه .. ولم يعد يهمهما وقوف الدادة على الشاطئ تبحلق فيهما حتى استسلمت الدادة ولم تعد تقف على قدميها لترقبهما .. ولكنهما كانا يحرصان على الانزواء ليلقاها كأنهما يحترقان بأنه لقاء سر بينهما وليس من حق الناس أن يكتشفوا سرهما بل وليس من حقهما أن يواجهوا الناس به .. فكانا لا يلتقيان إلا بين أمواج البحر .. وخارج البحر لا يلتقيان إلا بمجرد نظرات من بعيد إذا التقت عناء بهيبي صدفه .. وحديث اللقاويل دون أن تقطعه هوائيهما للسباحة .. إلى أن تقلد دلير أن أفراد عائلتها بدعوا يتوافدون على الكائين فاعتلر له وابتعد دون أن يتفقا على لقاء الغد .. كأنهما مستسلمان للقدس .. أو الصدفة ..

وفي أوائل أيام اللقاء كان يكر في التحدث معها عن أخيها كمال .. كأنه يعتبر أن صداقته لأخيها هي كل دافع لقاها .. وكان في الوقت نفسه يريد أن يعرف منها المزيد عن أخيها بعد أن أصبح يشغل بآرائه فكره كله .. وكانت ترد عليه مبتسمة :

— قلت لك إنني لا أهمل جهدا في فهم ما يقوله أخي .. وهو يقول لي أكثر مما يقوله لأحد من إخوتي .. ولكنني أبذل الجهد في استمرار سماعي له لأني أحس بأن أسعده هذا الاستماع .. وأنه في متبى السعادة وفي قمة

حالات الحياة .. وربما كان عليه أن يرحم نفسه من هذا الوهم الذى يعيش به ويهرب من هذا الحب .. أسهل عليه الحرب الآن قبل أن يشتد به هذا الحب ويهجر عن الحرب منه ..

وقرر أن يصارحها بكل خواطره حتى يرتاح .. وحتى يواجه المستقبل كما يتفق عليه حتى لو اتفقا على إلغاء مستقبلهما معا .. وقال من خلال ابتسامة يرسمها على شفتيه وهما فى البحر :

— إلى أعرفك أكثر عما تعرفيننى ..

وقالت فى ابتسامة مرحة :

— إلى أعرف عنك ما يكفينى ..

وقال جادا :

— لن يكفينك ما تعرفينه مع الأيام .. إلى أعرف أنك ابنة الروزناجى باشا .. وأنت من بات الدوات .. وأن عائلتك فى متنى الغراء .. ولكن أنا ..

وقاطعته قائلة فى مرح :

— وأنا أعرف اسمك كاملا .. من غلام .. وأعرف أنك ستلتحق بالجامعة هذا العام .. وأعرف أن أخى معجب بك ويتحدث عنك كثيرا وإن كان يشكو منك كثيرا أيضا .. وقد قلت لك إلى قرينة جدا من أخى كمال .. وما يعجبه يعجبني دائما ..

وقال وهو أكثر جدية :

— كل هذا لا يكفى .. إنك لا تعلمين أنى ابن موظف عادى من موظفى الحكومة .. وأنا فقراء .. لسنا محتاجين لأحد ولكننا لسنا أغنياء .. وأخواتى البنات لا يستطعن قضاء الصيف على شاطئ ميامى والتمتع

بالساحة فى البحر مثلك .. لأنهن من عائلة فقيرة .. وأنت لا تعلمين كيف أعيش هنا .. إننى هنا وحدى وأقيم فى عشة خشبية فى الرمال .. وأخدم نفسى .. أطبخ وأغسل وأكنس .. لا أظن أنك تعرفين ما هو الطبخ أو الغسل .. (واتسعت ابتسامته مستطردا) .. ربما لو كنا قد التقينا فى القاهرة لما استمر هذا اللقاء .. فإنى فى القاهرة لا أستطيع أن أخفى حقيقتى داخل المايوه كما أفعل هنا .. وليس فيها مكان يجمع بنات الدوات وأستطيع أن أتسلل إليه لأراك ..

وقالت وابتسامتها تملأ عينها كأنها تتعمد أن ترفه عنه :

— أنا لا يهمنى الفقر أو الغنى .. وأنت لا تدري أن والدى .. الروزناجى باشا بجلالة قدره .. مرت به حالة فقر كاملة فقد كان أفراد العائلة قد أصبح عددهم مئات وباع كل منهم ما وصل إليه .. حتى إن بابا كان يعيش على الاستجداء .. إلى أن تزوج ماما .. وكل الأراضى التى يملكها هى أصلا من أراضى عائلة ماما .. وقد كان شاطرا واستطاع أن يستغلها ويستغل أيضا عائلة ماما إلى أن وصل إلى كل شيء .. صحيح أنه من عائلة الروزناجى ولكن عائلة ماما أكبر وأغنى ..

وقال غاضبا :

— أنا لا يمكن أن أفكر أو أبني مستقبلى معتمدا على استغلالك .. كما استغل أبوك أمك .. بل إلى لا أشعر بالفقر الذى أنا فيه .. أنا أقوى من الفقر ..

وقالت فى هدوء :

— أنا مطمئنة إلى أنك لن تستغلنى أبدا .. إنك لا تتصور أن ماما لا تحب بابا .. بل إنها تكرهه .. وهى التى تحكى لنا كل هذه الحكايات

كأنها تعاديه بفصلها عنه . ولكن لماذا تثير هذه الموضوعات الآن ؟ .. إننا نقضى أياما في لقاءات سعيدة .. وسعادتى تغنى عن التفكير فى أى شىء يحكرها .. وأتمنى أن تغنيك أنت أيضا عن تصور أن هناك فارقا بينى وبينك ..

وصمت برهة .. إنها تكفى بإحساسها به يوما بيوم .. ليس فى إحساسها ما يدفعها إلى التفكير فى المستقبل الذى يفكر فيه هو .. ثم قال :

— لك حق .. لنكف باليوم الذى نعيش فيه ..
ثم التقط يدها وغاص بها فى البحر صاحكا .. إن من حقه الآن أن يضبط على يدها عندما يحسك بها ..

وقال لها قبل أن تتركه :
— إنى لم أعد أكفى بهذا اللقاء فى باكورة الصباح .. وطول يومى أتمنى أن أراك مرة ثانية ..

وقالت فى فرحة :
— إننا نذهب كل مساء إلى كازينو سان استفانو .. هل أستطيع أن أراك هناك ؟ .. لقد اكتشفت ركنا مزوينا نستطيع أن نلظى فيه للتحدث .. وقد اكتشفته لأنى وثيقة أننا يوما سنلتقى هناك فكنت أبحث عن المكان الذى هرب فيه من الناس .. هل تأفى إلى فى سان استفانو ؟ .. وقال وابتسامته حائرة مع فكره :

— سأحاول ..

إن سان استفانو كان أرق فنادق الإسكندرية وكان يجمع فى ليلائه كل أولاد وبنات الدونات بل كل كبار السياسيين .. كنت ترى فيه مصطفى

النحاس باشا وكل كبار رجال الوفد .. كما ترى كل الرؤساء وكل الباشوات وكان يعلم أن أصدقاءه من شبان أولاد الدونات يسهرون فى كازينو الفندق .. وهو قد وضع ميزانية مصروفة بحيث توفر عشرين قرشا ليسهر بها كل يوم سبت فى هذا الكازينو .. واختار يوم السبت لأنه اكتشف بذلك أنه يوم سهرة التواجبات والكازينو يراعى يوم السبت أكثر من يوم الخميس .. يوم المصريين .. ومنذ وصل إلى الإسكندرية لم يذهب إلى الكازينو إلا مرة واحدة .. فى انتظار السبت القادم إذا أراد أن يذهب مرة ثانية .. ولكنه لا يستطيع أن يستسلم للميزانية وللنظام الذى رسمه بعد أن وعدته دلبر باللقاء هناك ..

وذهب إلى كازينو سان استفانو .. وأخذ يتمشى جيئة وذهابا فى المشى الطويل المطل على البحر والذى يتمشى فيه كل الرواد .. إلى أن لمح دلبر تتمشى مع بضعة من الصديقات .. وتبادلا النظرات كأنهما يتحدathan بحبوسهما .. ثم انفصلت دلبر عن صديقاتها وسارت وحدها وهو يتبعها من بعيد إلى أن وصلت إلى مكان هادئ خافت الضوء خلف دار السباحة المقامة هناك .. إنها لا شك تصعدت اكتشاف هذا المكان ..

ووقفا يتحدathan ويتصاحكان وهما فى قمة الانطلاق .. إنه يحس بنفسه هنا أقرب إليها منه عندما يلتقى بها فى البحر .. ربما لأنه أحس بأنه مرتفع إلى مستواها .. فالبحر يجمع الشعب أما كازينو سان استفانو فهو لا يجمع إلا أولاد الدونات ..

وتركه عندما قدرت أن أفراد عائلتها بدعوا فى البحث عنها .. وبقي هو بعدها فى الكازينو حتى يقنع نفسه بأنه أتم استغلال العشرة القروش التى دفعها ثمن تذكرة الدخول والعشرة القروش التى دفعها ثمن للمشروب .. ثم

خروح وسار على قدميه أكثر من ساعة بين سان استفانو وعشته في صحراء سيدى بشر .. فلم يكن يستطيع أن يستأجر تاكسى ..

ومن تأثر قوة السعادة التى أحس بها وهو معها في مجتمعها حازف في اليوم التالى وذهب أيضا إلى سان استفانو رغم أنه لم يكن قد اتفق معها في لقاء الصباح .. إن كل لقاءاتهما هكذا .. بلا اتفاق .. ولكنه حرص في هذه المرة على ألا يطلب مشروبا حتى لا يتكلف أكثر من العشة القروش ثمن تذكرة الدخول ..

وقد انتابته نفس النوافع في المساء التالى .. يريد أن يذهب للقاء دلير في الكازينو .. إنه يحس بها هناك كأنهما في بيت واحد .. يبتها .. ولكنه بدأ يراجع ميزانيته بمجدية أكثر .. إنه لو استمر في دفع أجر دخول الكازينو فسيفلس بعد يومين أو ثلاثة ويضطر أن يترك دلير والإسكندرية كلها ويعود إلى القاهرة ..

ولم يذهب إلى الكازينو .. ولم يسأله في الصباح لماذا لم تره في السهرة .. لعلها تترك له حرية اللقاء ماداما لم يرتبطا بموعد .. ولكنه بعد أن امتنع عدة ليل إلى عن الذهاب إليها هاشك سأله :

— لماذا لا تأتى ؟ ..

وقال في بساطة :

— لم أعد أستطيع .. إلى أصبحت أقرب إلى الإفلاس ..

وسهمت دلير برهة ثم قالت من خلال ابتسامة واسعة :

— إلى أفكر في حطة قد أستطيع بها أن آتى إليك أما في ما تسميه العشة

التي تقيم فيها ..

وارتفع حاجبا منير دهشة .. تأتى إلى عشته .. ووجدتها .. وفى الليل ؟ .. لعل هذا من معامرات أولاد الدوات .. وكم دهشته وقال :

— لن تستطيعى الوصول إلى العشة وحذك .. إنها في مكان مجهول إلا للمستكشفين الخبراء ..

وقالت في مرح :

— تنتظرى في أقرب شارع إليها ..

وقال وقد بدأت دهشته تفضحه :

— هل تستطيعين .. ومتى ؟

وقالت بمرحها :

— سأحاول الليلة .. انتظرى في الساعة الثامنة .. وإذا لم آت

فلا تعضب فإن المحاولة تكون قد فشلت ..

وأخذ يصف لها الطريق الذى يمكن أن يتلقى بها فيه حتى يصاحبها إلى العشة .. وبعد أن تركها أسرع إلى العشة وأخذ يكس أرضها ويصح نوافدها حتى تبدو مجرد مظيفة فى أخشاب قديمة لا يمكن أن تلمع ، ثم غسل كل الأطباق والأكواب ونظف جيدا عدة وأبور الجاز حتى تبدو لامعة ..

وفى الثامنة كان ينتظرها .. وقد انتظرها طويلا دون أن يمل من مقاومة يأسه .. حتى وصل في انتظاره إلى الساعة العاشرة .. فعاد إلى العشة وهو يسخر من نفسه ومن أحلامه .. ولا ينام ..

واعتذرت له في الصباح التالى .. إنها لم تستطع .. ولكن من المؤكد أن المحاولة ستتح هذا المساء .. لقد وضعت الحطة كاملة وبعد حساب كل الاحتمالات .. فليتنظرها ..

وجاءت في تاكسى ..

وصحبها عبر صحراء سينى بشر وأقدامهما نفوس في الرمال وقد وضعت ذراعها في ذراعه والمزات تميل بقوامها لتلتصق بقوامه .. إلى أن وصلا إلى العشة .. وقالت دلبر ضاحكة بمجرد أن دخلت :

— هل تدرى لماذا أردت أن ألتقي بك هنا ؟ .. لأثبت لك أنى ست ممتازة .. حتى بنت الباشا تستطيع أن تكون ست بيت .. وأدارت عينيها في العشة دون أن تتأفف أو تتعالى وكأنها تدير عينيها في بيتها وصاحت :

— كل قطع « المليل » يجب أن يتغير وضعها ..

تقصد قطع الأثاث ..

وأخذت تنقل السرير والمائدة والمقعد المكسور وتعيد وضعها في أماكن جديدة وهي تطلب منه كأنها تأمره بمساعدتها .. ثم وقفت تنظر كأنها مبهورة بنفسها :

— أليس هكذا أجهل ؟ ..

وقال ضاحكا :

— أجهل ألف مرة .. لأنه ذوقك ..

ولم ترد عليه وقالت وهي تفتح الدولاب الصغير :

— والآن سأطبخ لك .. ماذا عندك ؟ .. إلى ساعد لك طوق بيض

لأن الوقت أمامنا ضيق ..

وقال ضاحكا :

— ليس عدى إلا بيضة واحدة ..

وقالت وهي تفتش في الدولاب :

— تكفيا عن الاثنين ..

ثم بدأت تخرج كل شيء تجده في الدولاب .. بيضة .. وقطعة جبن صعبة .. وحيارة واحدة .. وباقى قطع من البطاطس المطبوخ في حلة ومعها بقية قطعة لحم .. وقالت :

— أشعل أنت هذا الوايبر فإنى لم أتدرب بعد على إشعاله ..

وأعدت طبقا عجيبا يجمع كل ما وجدته مخلوطا بعضه ببعض .. ووضعته على المائدة .. وأخذت تدق بيدها على المائدة كأنها تدق جرسا وهي تصيح :

— العشاء جاهز .. تفضل ..

وهما لا يكفان عن الكلام والضحك وأحيانا الصراخ المرح .. ودون أن يلتقيا في شيء آخر .. إلى أن حان الوقت لتذهب .. إنها لا تستطيع أن تبقى أكثر من ساعة وقد مضت ساعة ونصف الساعة .. وصحبها عبر الصحراء ويده تحضن يدها وتضغط عليها كأنها لن تتركها أبدا .. وصمت يسودهما كأن كلا منهما تائه في شيء ينقصه .. ولم يستطع أن يستمر في مقاومة هذا الشيء .. فتوقف وشدها إلى صدره دون أن يطل في عينيها .. واحتصنها بذراعيه بكل قوته كأنه يريد أن يدخلها في قلبه .. وشتمته نفوس في شعر رأسها ثم تبحث عن خديها ثم تستقر بين شفثيها .. وهى مستسلمة .. غاية الاستسلام ..

وكانت هذه أول قبلة يلتقيان فيها ..

واكتفيا بها .. وعادا يسيران صامتين إلى أن خرجا إلى الشارع .. ووجدها سيارة تاكسى وضعت نفسها فيها .. وهما صامتان وكل الكلام بين عينيها وعينيها ..

وعاد إلى العشة كأنه يسير فوق قطع السحاب ..

لقد جاءت إليه .. إلى بيته .. إلى بيتها ..

ولم تكن أول من جاء إليه من عائلة الروزنامي .. لقد سبقها أخوها كمال وجاء إليه مرة ..

والصدقة التي بدأت تربط بينه وبين كمال كانت صداقة من نوع عجيب .. فهو على قدر تعلقه بالخلوس معه وجماع أحاديثه التي كانت كأنها تأخذ ليتفرج على دنيا عجيبة .. كان يطرأ على خاطره أنه إنسان خطير وأنه يريد أن يستغله ويدفعه إلى ثورة سياسية تحقق أغراضه .. وكان أحيانا يحاول أن ينكر هذه الصداقة .. إنه لا يعرفه إلا للفرجة على أولاد الدوات .. وكان يحس بكمال أحيانا بأنه متعلق به كل تعلق الصداقة وأنه يبذل مجهودا في التقرب إليه .. وكان كأنه أخوه المسئول عن توجيهه وأحذنه في الطريق الصحيح .. طريق الماركسية .. وأحيانا يحس مير بأن كمال يستبين به حتى يكاد يتهمه بالثفافة والسخافة في كل آرائه .. أو أحيانا يتهمه بأنه من طبقة لا يمكن أن ترتقى أبدا ولا يمكن أن يتسع طموحها نحو بناء مستقبل جديد ..

وكان قد حدث عندما ذهب منير إلى مقهى بيترو والتقى بكمال وأفراد الشلة واشتد النقاش بينه وبينهم أن تركهم وقد قرر أن يعيد نفسه عنهم .. سواء كانوا حزبا سياسيا أو كانوا كما يسمون أنفسهم ، شلة .. بل ويعيد نفسه أيضا عن كمال .. حتى لو كان يعتبر نفسه أنه يتفرج عليه فإنه بدأ يحس أنها فرجة خطيرة قد تقوده إلى مصائب أو على الأقل إلى نوع من الحياة لا يجب أن يوجد فيه .. لذلك تعمد في صباح اليوم التالي بعد أن انتهى لقاءه مع دلير ألا يبحث عن أخيها كمال ليجلس معه كما كان قد تعود .. بل ذهب

وفي يومه مع شلة أخرى من الأصدقاء في ناحية أخرى من الشاطئ .. وطبعاً لم يفكر في المساء أن يذهب إلى مقهى بيترو .. وفي صباح اليوم التالي أيضا تعمد ألا يلتقي بكمال .. وكان قد عاد إلى عشته وأعد لنفسه ما يأكله ثم جلس يقرأ كتابا للرافعي عن تاريخ مصر كان من بين الكتب التي حملها معه من مصر .. وكانت الساعة السادسة مساءً وكان بعد نفسه للخروج لتمشية في شارع الكورنيش كما عود نفسه ، عندما هوجئ بأن رأى كمال الروزنامي أمامه .. في عشته .. وكان معه خليل رميله في المدرسة والذي رآه بين أفراد شلة مقهى بيترو .. وفوجئ دهشا .. وقال كمال هورا بمجرد دخوله وهو يضحك :

— أمين أنت يا رجل ؟ .. أهلكنا في البحث عنك ..

ولم يكن كمال يتطلع إلى ما في داخل العشة كأنه يتفرج على حياة الفقراء .. كأنه تعود على الالتقاء بالفقراء في يومهم .. وكان طبيعياً كأنه في بيت يعرفه حتى إنه ألقى بنفسه جالساً على المقعد المظلم دون أن يدعوه منير إلى الخلوس .. ولكن كيف عرف كمال مكان هذه العشة .. إن حبل الذي جاء معه لم يسبق أن جاء إليه ولا يعتقد أنه كان يعرف المكان .. لقد عرف مير فيما بعد أن كمال يستطيع دائماً أن يصل إلى ما يريد .. وقد سأل وتحرى إلى أن وصل إلى صديق من القلائل الذي يعرفون أين مكان هذه العشة التي يقبع فيها منير .. ولا شك أنه تعب في التحرى .. ولا شك أن هالك واقعاً قربها يدفعه إلى أن يلتقي بمنير ويبدل كل هذا الجهد للوصول إلى لقاءه ..

وقال كمال من خلال ابتسامته الواسعة وطبعته المرحية :

— لقد تركنا عندما التقينا في المقهى وأنت غاضب .. أو على الأقل لم تكن سعيداً بهذا اللقاء .. وقد انتظرتك في الصباح التالي على الشاطئ

ولكنك لم تظهر .. وانتظرتك صباح اليوم ولم تظهر .. ونعت أن يكون لقاء واحد مع الشلة قد دفعك إلى الانتحار .. أو على الأقل يكون قد دفعك إلى الهرب .. أنا نفسي تمر على حالات أقاوم فيها متعة الانتحار أو الهرب .. ولكن كان يجب أن نتناقش قبل أن نتخذ أى قرار ..

وقال منير وهو يتسم ويلقى نفسه جالسا على أرض العشة :

— كل ما هنالك أنى لم أحمل أسلوب المناقشة .. وخفت أن تنتهى بخفاقة .. وأنا لا أحب الخناقات .. وأهرب دائما من دوافعها .. بل أحمل أحيانا دوافع الخناقات دوى أن أدخل فيها .. لم يرحنى في لقاء المقهى إلا صديقى خليل ..

وقال خليل وهو يجلس على الأرض بجانب منير :

— لم تكن هناك خناقات .. أو ما يحتمل الوصول إلى خناقة .. ولكن كل واحد له أسلوبه في التعبير عن رأيه .. هناك من يعبر عن رأيه بالصراخ وهناك من يعبر عن رأيه بهلوه .. والصراخ ليس بخناقة ولكنه موسيقى شاذة مزعجة ..

وقال كمال ضاحكا :

— لقد قلت لى إنك تأخذ الحياة كلها على أنها فرجة .. حتى عندما نقرأ كتابا نحس أنك تنفرج على الآراء التى تعرضها السطور وربما جئت للقاء الشلة في المقهى للتفرج عليها فلم تحتمل أى نقاش ..

وقال منير في هدوء :

— هذا صحيح .. ولكن الفرجة لا تقلل من احترامى لما أتصرج عليه .. إني عندما أقرأ كتابا لأنفرج على ما فيه فليس معنى هذا أنى أسنن بما أقرؤه أو لا أحترمه .. ولكى لا أتعمد التأثير أو التحيز لما أقرؤه ولكنى

أترك الكتاب نفسه يحاول أن يرسب في عقلى ما يستطيع ترسيه .. الكتب الوحيدة التى أحاول حفظها وفهمها متعمدا هى الكتب الدراسية حتى أضمن النجاح في الامتحان .. وغالبا ما يحدث بعد الامتحان أن أنسى تسعين في المائة مما قرأته وحفظته وأعود وكل إحساسى بها أنى سبق أن تفرجت عليها .. وقد تفرجت على شلة مقهى يترى ولم ترحى العرجة .

وقال كمال هادئا :

— إن المتفرج أيضا له رأى فيما يتفرج عليه .. وقد يعبر عن رأيه قبل أن تنتهى المسرحية التى يتفرج عليها .. فيصق مؤيدا .. أو قد يصرح معترضا وهو جالس بين المتفرجين .. ولكن هناك ما هو أهم من ذلك .. فقد خفت أن تعتقد أن دعوتك للجلوس مع الشلة لتنضم إليها .. أبدا .. لم أقصد ذلك مطلقا .. ولكنى أحسست منذ التقيت بك أننا يمكن أن نكون أصدقاء .. وقد دعوتك إلى الشلة لتعرفنى أكثر وتوسع صداقتنا .. ورأيت في الشلة لا يؤثر في هذه الصداقة .. المهم رأيك فى ..

وقال منير وهو يتسم كأنه سعيد بهذا الكلام :

— أنا أيضا انجذبت إليك من أول لقاء وتمتع قلبي وعقلي لصداقتك رغم غرابة الآراء التى كنت أسمعها منك .. ولكنها غرابة تجعل الفرجة أمتع والارتباط أقوى .. ولم أكن أتصور أن أكون صديقا لابن باشا ..

وقال كمال محندا :

— إن كل من يعتبرى ابن باشا لا يمكن أن يكون صديقا لأنه بذلك لا يعرفنى ..

وقال منير كأنه يعتذر :

— إني نسيت أنك ابن باشا منذ اللقاء الأول .. وربما لذلك أحسست

أن إحساس الصداقة يعمو ..

وطالت المناقشات بين الثلاثة حتى العاشرة مساء .. ومير يحس أنه يزداد اكتشافا للعالم الجديد الذى ترسمه هذه المناقشات .. إلى أن وقف كمال يهم بالانصراف قائلا ضاحكا :

— أليس هناك كوب ماء يساعدنا على تحمل المشوار ؟ ..

وقال منير ضاحكا :

— عندي قفة ..

وأسرع ونال قلة الماء إلى كمال الذى أخذها وتحسها بيده ثم قال :

— هائلة .. إنها صاقة ..

ثم رفع القلة بعيدا عن شفتيه وفتح فمه وترك الماء ينسكب فيه من بعيد .. كأنه ابن بلد تعود على فن الشرب من القلل .. ثم وضع القلة مكانها ولمح كتاب كارل ماركس الذى أعطاه لمنير ملقى فى جانب من العشة فسأله ضاحكا :

— هل تفرجت على كارل ماركس ؟ ..

وقال منير فى بساطة :

— لقد أحسست أنك أعطيتنى لى لا للفرجة ولكن كأنك تكلمنى

بعمل .. وأنا فى إجازة عن أى عمل ..

وقال كمال وهو يترك العشة :

— إنه فرجة ممتعة .

ولم يرد عليه منير وخرج معه ومع صديقه خليل من العشة وأوصلهما إلى الشارع الرئيسى .. والكلام لا ينتهى ..

وقد عادت علاقتهما كما كانت .. ينفى بذلبر فى الصباح ثم يخلص مع

أحبها كمال . ووصل إلى أن قبل دعوته للعداء على الشاطئ .. لقد كان يرفض هذه الدعوة لأنه لا يستطيع أن يردا .. ولكن كمال دخل العشة وإن كان لم يقده به إلا ماء القلة ولكن أصبح من الطيبى أن يقبل دعوته ..

وقد تناولوا العداء وحدهما تجمعهما مائدة تحت الشمسية بعيدا عن الكايين .. اتكأ من السفرجية يقومون على خدمتهما .. وقد دهل من حماسة المعدات التى وضعت لهما .. إنها كلها معدات فضية وبها لاقطة لصنف من الطعام يختلف عن الشوكة .. إنها محصنة لانتقاط قطع « الأسبرج » التى تقدم فى أول الطعام مع السلطة .. وقد لاحظ كمال دهشته وحيرته فاحذ دون أن يصارحه يعتمد تعليمه كيف يأكل هذا الطعام بهذه المعدات .. فرفع اللاقطة ورفع بها قطعة الأسبرج ووضعها فى فمه .. ومنير يراقبه ثم يقلده .. وقد قدم إليه بعد ذلك حيوان البحر الذى عرف بعد ذلك أن اسمه « لاجبوست » . وحاور أن يأكل ما فى باطن هذا الحيوان بالشوكة والسكين فلم يستطع كيف يرفع بالشوكة القطع التى يمكن أن يصعبها فى فمه .. وحده كمال وهو يعانى النحمة فألقى من يديه الشوكة والسكين وبدأ يأكل ما فى داخل اللاجبوست بأصابعه .. واستراح منير وقلده ..

كل ذلك وهو فى دعوة على الشاطئ ولا يدري ما يمكن أن يراه لو قبل دعوة مماثلة فى قصر العائلة فى القاهرة ..

وقد تزايدت راحته ومتعته الذهبية بصداقة كمال حتى إنه قرر أن يذهب مرة ثانية إلى مقهى بيترو ويتقى بالشىء .. وقد حرص كمال خلال اللقاء ألا يعرضه لأى نقاش وتركه يستمتع بالفرحة الذهبية على ما يسمعه .. ولكنه لم يذهب إلى المقهى بعد ذلك .. يريد أن يوفر القروش التى يدفعها أحرار للانتقال ..

إن الميزانية التي وضعها لتقسيم الخمسة الخبثات التي جاء بها حتى يستطيع أن يعيش في الإسكندرية شهرا كاملا قد احتلت .. لم يبق منها سوى خمسين قرشا تكفي أجر القطار ليعود عدا إلى القاهرة ..
والتي بدلى في الصباح لقاء البحر .. إنها لم تحاول أن تأتي مرة ثانية للقاء في العشة .. ولم يكن يطلب منها حتى يحرق نفسه من الأعراض الخاصة .. كان يكتفي بما ترهبه هي دون أن يطلب شيئا .. ويكتفيه لقاء البحر .. وقال لها :

— إلى مضطر أن أعود غدا إلى القاهرة ..

وقالت في دهشة :

— لماذا ؟

وقال وهو يدير عينيه بعيدا عن عينيها :

— لأني مضطر ..

وترددت دليبر فيما تقوله له وكأنها فهمت أسباب سفره وابتعاده عنها :

— هل قلت لأخي كمال ؟ ..

.. وقال في صوت خفيض :

— لا .. سأقول له اليوم ..

قالت كأنها ترجوه دون أن تفصح عن رجائها :

— قد يستطيع أن يقنعك بالبقاء ..

قال في إصرار :

— مستحيل .. إلى مضطر .. (ثم خفف من صوته مستطردا) ..

المهم .. كيف أتصل بك ؟ .. هل يمكن الاتصال بك ؟ ..

قالت كأنها صدمت :

— إننا تعودنا أن نبقى هنا إلى أوائل سبتمبر .. ثم نسافر إلى باريس لشترى كما هي عادتنا .. ونعود آخر سبتمبر .. وأخي كمال لا يسافر عادة معنا .. وتستطيع أن تعرف منه أسعدنا يوم يعود .. ثم تستطيع أن تتصل بي بالتليفون .. ولكن من الأفضل أن تتصل بي في الساعة الثامنة مساء أو العاشرة ليلا لأن في هذه الساعات أستطيع أن أنفرد بالتليفون .. ولكن اسمع .. قد أستطيع أن آتي إليك في القاهرة قبل أن نسافر .. كيف أتصل بك ؟ ..

وقال كأنه يسخر من نفسه :

— للأسف .. ليس عندنا تليفون .. الطريق الوحيد هو طريق

البيد .. فيحمل لي البوسطجي خطابا منك .. وسأكتب لك العنوان ..

ولكن .. ألا أستطيع أن أراك هذا المساء ؟ ..

وقالت في أسى كأنها مهم بالبقاء :

— آسفة .. مستحيل .. إننا كلما مدعون هذا المساء .. ولا أعتقد

أني أستطيع أن أتحيل على ماما للهروب من هذه الدعوة ..

وقال وهو يتنهد :

— إذا فهذا آخر لقاء لنا في البحر .. (ثم كأنه تنبه واستطرد قائلا) ..

انتظري هنا في البحر وسأخرج لأكتب لك العنوان وأعود به إليك ..

وكان هذا آخر لقاء في البحر ..

أيام حمت بينهما في حديث لا ينتهي ولم تشهد لهما إلا قلة واحدة ..

وقد التقى بعدها بكسالم وأبلغه خبر سفره .. وتلقى كمال الخبر

ببساطة .. إنه واثق أنه يستطيع دائما أن يراه في أي مكان .. وهو ليس

مرتبطا بما يشغله عن أي لقاء يريد .. ليس مرتبطا بالبقاء مع العائلة و

الإسكندرية ولا بالسفر معها إلى باريس .. إنه حر . وقد اتفقا على وسيلة
اللقاء بينهما في القاهرة ..

وقضى منير طوال ليله يعد حوائجه التي سيحود بها .. ويعيش كل دقيقة
مرت به خلال أيام الإسكندرية .. لقد وصل إلى عالم جديد .. والتقط
عناصر سعادة جديدة لم تكن تخطر له .. وهو يحس بغصة تعصر قلبه لأنه
سيترك هذا العالم .. سيبتعد عن دليز .. أول فتاة في حياته جذبت إليها
واستولت على فكره وإحساسه ..

ولكنه في حاجة إلى العودة إلى القاهرة بسرعة .. لا لأنه أفلس .. إنما
ل يلتقي بصديق العصر عبد الله عبد اللطيف .. إنه لا يرتاح ولا يبدأ إلا مع
عبد الله ..

وهو في حاجة إلى أن يرتاح ويبدأ من هذه الزواجر التي تعصف به ..
يرتاح من زوجرة تعلقه بدليز ..
ويرتاح من زوجرة حورته في كمال ..

«هنا الليال» ليلياس
www.lilias.com

(٤)

لقد بدأت أيام صداقة محمد عبد الله عبد اللطيف منذ كانا معا في
المدرسة الابتدائية .. وكانت مدرسة ملتصقة بشارع الحسينية وقريبة من
باب النصر بحي الحسين فجمعت بين طلبتها كثيرين من أولاد البلد .. وكان
عبد الله منذ صغره يحمل شحصة ابن البلد .. وشهامة ابن البلد .. وقوة
ابن البلد .. وكان عبد الله قوى العضلات فعلا يستطيع أن يضرب ويهرط
خصمه في أي خناقة تقوم بين الطلبة .. ولذلك كان منير يحس بأنه يعيش في
حمايته داخل المدرسة .. وكان عبد الله يحميه فعلا دون أن يمن عليه بهذه
الحماية أو يفرصها عليه .. فقد كان عبد الله لا يتباهى بقوته ولا بتفاهر بها
بل كان يكره الخناقات ولا يضع نفسه فيها إلا مضطرا .. وبما ويل من يحس
عليه عبد الله خناقة .. كان في طبيعته يفضل الهدوء والجليسة الهادئة التي
تجمعه بصديق يرتاح إليه .. وربما كان هذا هو ما جمعه مع منير .. فمنير
أيضا يميل إلى الهدوء ولا يحب الخناقات بل يعتمد الحرب منها إذا ما اقتربت
منه .. فإذا لم يتمكن من الحرب استسلم كل الاستسلام لحماية عبد الله ..

ورغم هذه الصداقة والأرتياح المتبادل الذي يجمعهما طوان كل يوم من
أيام المدرسة فقد كان بينهما خلاف كبير في طبيعة كل منهما ..
فسير — مثلا — يبوى معرفة كل شيء وتجربة كل شيء .. أما عبد الله
فلا يبوى المعرفة ولا يقدم على تجربة .. فقد قرر منير أن ينضم إلى فرقة
الكشاف بالمدرسة فقط ليتفرج ويجرب .. وألح على صديقه عبد الله أن

يصم معه ربما ليطمن على نفسه بحمايته داخل هريق الكشافة .. ولكن عبد الله رفض وأصر على الرفض .. وقال ضاحكا :

— لماذا تريد أن أقبل تجنيد نفسي في الجيش ؟ .. إنهم يمدوننا في الجيش باسم الكشافة .. وقد دفع أبى لأخى الأكبر مبلغا كبيرا حتى يعفيه من التجنيد .. فهل تريد أن يدفع أبى ليعفنى من الكشافة ؟ ..

وكان عبد الله يبدو أنه يعيش كل حياته وكل فكره وكل إحساسه داخل عائلته .. والشخص الوحيد في الدنيا كلها الذى يحسب حسابه ويحتوي المثل الأعلى هو أبوه الحاج عبد اللطيف .. وبعد هذا فهو لا يشغل نفسه ولا فكره في شيء .. حتى المدرسة .. لماذا يدخل المدرسة ؟ .. وماذا يستفيد من المدرسة ؟ .. إن أباه لم يدخل مدرسة ورغم هذا وفقه الله وجعل منه تاجرا ناجحا يملك محلا لبيع الأقمشة في حي الحسين .. إنه ليس في حاجة إلى مدرسة ، يكفى دائما الاعتماد على الله ..

وحدث في يوم محبس وقد خرجا من المدرسة عند الظهر أن قال له عبد الله وهو يمسك بيده كأنه لا يريد أن يفترقه :

— تعال معي نزور الحسين ..

واستسلم له في فرحة .. إنه لم يزر الحسين من قبل وإن كانت أمه قد صحبته مرة وهو طفل مع أخواته البنات لزيارة السيدة زينب .. وهو يريد أن يعرف ويتفرج على الحسين .. وقد طاف مع عبد الله مسجد وصرى الحسين وهو في متعة الفرجة على الجديد مع متعة إحساسه بالإيمان الذى ولد به .. وبعد أن انتهيا من زيارة الحسين قال له عبد الله مبتسما وهو يشده من يده حتى لا يفترقه :

— تعال ترى أمى .. ونرى ما تقدمه لنا للأكل ..

وحاول مير أن يعتذر بأنه يجب أن يعود إلى بيته .. ولكن عبد الله أصر .. ومير استسلم لأنه يريد أن يتفرح .. وسارا إلى حارة الشيوخ حجازى القريبة من الحسين .. وهى إن كانت حارة ضيقة إلا أنهم أحيانا يسمونها شارعاً لأنها مفتوحة من الناحيتين .. وصعد به عبد الله إلى الدور الثانى من البيت دون أن يصيح بما يعلن وصوله .. ربما لأن عبد الله ليس له أخوات بنات يخاف عليهن من رؤية غريب .. فلم يتعود أن يصيح معلنا وصوله ..

والأم ميدة حمية مسرفة في السمة .. ولكن وجهها بشوش طيب ترتسم عليه ابتسامة طيبة هادئة حتى ولو لم تعبر عنها شفاتها .. وقد استقبلت مير صديق ابنها بترحاب واسع صادق .. أهلا .. يا ألف مرحب .. زيارة مباركة .. ربنا يفتحها عليكم ..

وقال عبد الله كأنه رجل البيت :

— نريد الغداء يا أمى ..

وصاحت الأم في فرحة :

— حاضر ياسى عبده .. من عبنى ..

إن الأم تعامل ابنها كأنه فعلا رجل البيت .. وعادته وهو معه كأبها رجلان كاملان وليسا صبيين صغرين .. وقارن مير بينهما وبين أمه .. إن أمه لا تزال تعامله كأنه صبي صغير بل تشخط فيه أحيانا كأنه طفل .. ولا يمكن أن يدعو أحد أصدقائه إلى الغداء في البيت إلا إذا كان قد اتفق معها من قبل .. ولم يصل إلى مثل هذا الاتفاق لأنه لم يحاول أبدا أن يدعو أحد أصدقائه إلى الأكل .. إلا إذا حطفت لقمة أو حبة وجدها من حبات الفاكهة وتقاسمها معه .. بل قد يقبى معه أحد أصدقائه من أبناء الحي إلى أن

يحين موعد العداة فتدخل عبيها أمة ويقول لصديقه كأنها تطرده حتى توفر ما يمكن أن يأكله :

— اذهب أنت إلى مامتك يا حبيبي .. لعلها بدأت تسأل عنك ..
وقد عابت عبيها أم عبد الله طويلا .. لعلها كانت تعد أصنافا جديدة من الطعام ترحيبا بصديق ابها .. وقد فوجئ منير بكثرة الأصناف عندما دعى إلى تناول العداة .. إنها أضعاف ما يقدم على مائدة عائلته .. كل شيء يحضر على باله .. لحم وفراخ .. وأرز ومكرونة .. وملوخية وبامية .. وكثير من الحلوى .. وبطريخ ومشمش .. وأكل حتى لم يعد يستطيع أن يستحب لإفراح عبد الله وأمه بأن يأكل أكثر .. وأسعفه عبد الله بزجاجة الفاروزة التي طلبها من أمة أمرا في لحظة رجل البيت :

وبعد العداة بقليل قال له عبد الله :

— تعال نذهب إلى المحل لأعرفك بأني ..

والمحل على بعد خطوات من البيت وعلى شارع أوسع .. شارع الحسين .. والحاج عبد اللطيف رجل جاد .. ضخم ومحم .. يزندی حليبا يبدو من الطراز الثمين العالي .. وقد رحب بصديق ابها مصافحا ثم رتب عن وجهه كأنه فرح به فرحته بانيته .. وقد عرف منير مع الأيام كل شيء عن الحاج عبد اللطيف .. لقد بدأ حياته عاملا كواء .. ثم استطاع أن يمتلك محل كواء يعمل فيه بنفسه إلى أن بدأ يستأجر له العمال .. واشتهر ككواء إلى أن استطاع أن يجمع دخلا من مهنته انتصح به محل بيع الأقمشة .. أقمشة للساء وللرجال .. ولا يزال يحتفظ بمحل الكواء .. ولا يزال يتبع فيه الطريقة القديمة في الكي .. مكواة عريضة يمسك العامل بطرفها الطويل ويلبس عليها بقدمه .. إنها لا تزال الطريقة الأصح والأجدي في كي الملابس

خصوصا الخشب والقضبان .. وعبد الله يقول عن أبيه إنه لا يزال كواء رغم أن دخله ومكاسبه أصبحت أكثر من بيع الأقمشة .. من إنه يقضي معظم وقته في محل الكواء ويترك محل التجارة لولده الكبار ..

وقد عرف منير كل أفراد عائلة صديقه عبد الله .. كل إخوانه .. وأصحيح يتردد كثيرا عليه دون أن يحس بأي حرج .. إن كلهم يرحبون به دائما .. ويحرون به .. ويحبونه .. والأكثر من ذلك أنهم يحترمونه .. كأنه من عائلة مفروضة احترامها .. ولم يشعر أبدا بحاجة إلى أن يرد الدعوة لعبد الله .. لقد صحبه مرات إلى بيته وقدمه إلى أمة .. بل إنه مع الأيام قدمه لأخواته البنات .. وأمه كانت تستقبله بلا اهتمام ولم تحاول أن تدعوه مرة إلى العداة .. مرة واحدة قدمت له زجاجة غارورة .. وأخواته البنات لم يرحبن به لأنهن اعتبرنه منذ النظرة الأولى .. أنه بلدي .. وعلى كل حال فإن عبد الله نفسه لم يكن يبدو سعيدا مطلقا عندما يزور منير .. ولا مهي نفسه كان يطلق في هذه الزيارة .. كان انطلاقهما وإحساسهما بمشئى عدم الكلفة لا يعيشان فيه إلا إذا كان منير بين عائلة عبد الله .. وقد وصل رفع الكلفة بمنير إلى أن أصبح يعتبر أم عبد الله كأنها أمة .. ويطلب منها كأنه ابها .. وقد بدأ أيضا يلتقى بعبد الله في المساء خصوصا مساء يوم الخميس الذي يباح فيه السهر لإجارة الجمعة .. وكانا يذهبان معا إلى السينما .. أو يتفرجان على شوارع المدينة وبأكلان الساندوتش .. إلى أن صحبه عبد الله يوما للسهر في مولد الحسين .. ودخلا في صوان مقام أمام مقهى كال يجلس فيه أحمد شقيق عبد الله الأكبر .. وكانت تلور بين الجمالين حوزة .. عرف منير منها أنهم يدخنون الخشيش .. وقدم أحمد الجوزة لمينر قائلا وهو يضحك :

— شد يا سي منير .. حرب ..

وأمسك مير بطرف الجوزة وشد نصفا .. إنه يلدحن الحشيش رغم أنه في الثانية عشرة من عمره .. ولكن الجميع يعتبرون أن الحشيش مباح لكل من يستطيع أن يشد أنفاسه .. وهو ليس حراما فعمل بالحشاش .. ليس كالخنزير .. فمير يرد عليه نص في القرآن .. وقد دخل في تجربة تدخين الحشيش مرة ثانية وثالثة ولكنه لم يعجبه ولم يدمنه ولم يعد يطبق تدخينه .. إنما أصبح يكتفى بالفرجة على الحشاشين .. إن عبد الله أيضا لا يطبق تدخين الحشيش ولم يدمنه ..

وكان أكثر ما يربط مير بعائلة عبد الله هو احترامهم له الذي يفيض مع حبهم .. إنهم يعاملونه مع إبراز هذا الاحترام .. كأنهم متشرفون به يتباهون بصداقته .. كأنه فعلا من طبقة تستحق الاحترام .. وعندما بدأ فكر مير بفتح قدر أن عبد الله وعائلته يضعونه فعلا في طبقة أخرى غير طبقتهم .. رغم أن عائلة الحاج عبد اللطيف أغنى قطعا من عائلته .. ولكن الفارق بين الطبقات ليس فقط قيمة الإيراد .. ولكنه الفارق في المظاهر الطبقية .. وعائلة الحاج عبد اللطيف من طبقة أولاد البلد .. أما عائلة غانم فهي من طبقة الأفندية .. طبقة حضرات المحرمين موظفي الحكومة .. ومظاهر طبقة الأفندية تطورت إلى أرق مما تطورت إليه طبقة أولاد البلد .. لقد هاجر الأفندية من أحياء الحسين والدراسة وباب الخلق وانتقلوا إلى الأحياء الجديدة .. إلى العباسية والظاهر وبعضهم وصل إلى مصر الجديدة .. كما هجروا الجبلاب وأصبحوا يعيشون بالبلدة الأوربية والبيجاما .. و .. و .. وأصبح للأفندية دنيا تختلف عن دنيا أولاد البلد .. وهي وإن كانت تبدو دنيا أكثر تقدما إلا أنها دنيا بلا أصالة .. وبلا عرافة .. وبلا تقاليد تقوم على مبادئ .. إنها صورة مهتزة باهتة من دنيا الخواجات الذين يتلون مصر .. وكل

العراق يقوم بين المظاهر الطبقية .. لا على مستوى الدخل أو رأس المال الطبقي .. إن بين أولاد البلد من هم أغنى من الأفندية .. وبين الأفندية من هم أغنى من الناشوات .. ولكن الفارق هو في اختيار مظاهر الحياة .. ربما كان الفارق بين مير وصديقه الجديد كمال يحس البرور يا جبي ليس في أنه فقير وكمال غنى .. فقد قبل الفقر والعسى أن يتصادقا على مستوى واحد .. ولكن لا تزال مظاهر حياة كل منهما تفصل بينهما .. إن هذه المظاهر هي التي تعكس صفو حبه لدليلر أخت كمال ..

ورغم ذلك كانت صداقته لعبد الله أقوى من المظاهر .. إنها صداقة تدعمها الرجولة المبكرة .. والشهامة .. والترفع غير المتعمد عن كل ما لمس طهارة الية ونظافة الضمير ..

ولم يحصل عبد الله على شهادة الابتدائية .. رسب في الامتحان .. ولم يصكر في أن يعيد السنة الدراسية بل تفرغ للعمل مع أبيه في دكان بيع الأقمشة .. وأبوه أيضا لم يكن يريد أن يحصل على شهادات .. من الأجدى أن يتفرغ للعمل معه حتى يتعلم البيع والشراء ويفهم أسرار السوق بعد أن وصل إلى سن يستطيع فيها أن يفهم .. أما مير فقد حصل على الشهادة الابتدائية .. ويتفوق .. حتى إنه حصل على بحاية التعليم لتفوقه .. ورغم أنها قدما مجتمع المدرسة إلا أن صداقتهما لم تهر ولم تضعف .. كان مير يذهب إلى عبد الله ويجلس معه في الدكان .. خصوصا في أيام الخميس والجمعة .. ويجلس معه طويلا حتى دون أن يحسبهما حديث .. فعبد الله مشغول دائما باستقبال الزبائن والتعامل معهم .. ومير يراقب عملية البيع والشراء بدافع طبيعته التي تهوى المعرفة والفرجة .. بل كان أحيانا يحاول أن يحرج بمسه أن يكون نائما .. فيشترك في استقبال الزبائن والتعامل

— إننا نحارب الإنجليز من أجل الحلاء .. والمظاهرات تبث لهم أن لنا رأيا .. حتى لو كان مجرد رأى ..
وقال عبد الله في بساطة :

— الإنجليز لا يتعصونا .. ولكن الذين يخرجون بيوتنا هم اليهود .. حتى إن أبا الحاج عبد اللطيف يكاد يحن منهم .. إسمهم هم الذين يستولون على كل الأقمشة التي تصل إلى مصر ويبيعونها لنا ويتحكمون فيها .. ويكاد نقبل الأبدى حتى يرحمونا .. حتى إن الحاج عبد اللطيف بدأ يفكر في أن يتفق مع يهودي يعرفه واسمه ساسون ليدخل معه شريكا في الدكان .. حتى يستطيع أن يتفاهم له مع اليهود .. فلليهود لغة لا يفهمها ولا يفهمها المسلمون .. لو كانت مظاهرات على اليهود لاشترك فيها كل أهل الحسين ..

إن عبد الله يحرص كل فكره وإحساسه داخل دكانه .. والإنجليز كما يتصور لا علاقة لهم بالدكان ولكنهم اليهود .. وهم يهود مصريون لا إنجليز ..

ومر لا يفض من عبد الله مهما اشتد القاش .. إنه حرق رأيه كما أنه هو نفسه حرق رأيه ..

وقد دهش منير عندما قال له عبد الله إنه سيتزوج .. ما حاجته للزواج وهو لا يزال في السادسة عشرة ؟ .. ربما أراد أبوه أن يزوجه حتى يحبه بما تعرض له ابنه الأكبر أحمد الذي عرف عنه أنه يخالف العوام .. وقد صحب عبد الله منير لزيارة العروس يوم كتب الكتاب الذي تم قبل الزفاف ... يجب أن يرى أخاه عمروسه .. إن منير ليس غريبا عنه حتى يخفى عنه ساءه ونساء العائلة .. وقد عرف منير أنها ابنة من بنات حي الحسين .. ورغم ذلك فهي يئس فاقعة البياض وشعرها أصفر .. وعبد الله فرح بها منتهى الفرح وبدأ

معهم .. وعبد الله يتركه يتصرف كأنه يعتبره هو أيضا صاحب الدكان .. وكان عبد الله يعلق الدكان في الساعة الثانية بعد الظهر ثم يسحب منير إلى بيته لتعد لهما أمه طعام العشاء .. ويجلسان في حديث لا ينتهي ولا شيء فيه سوى أنه يجتمعهما .. ثم يعود عبد الله في الساعة الخامسة يفتح الدكان ويعود منير يجمع نفسه بالمعرفة والفرجة ..

ولكن حدث شيء جديد .. فمنير بدأ يهتم بتتبع الأحداث السياسية كما تصل إلى الطلبة .. ويحرص على حضور الاجتماعات التي يعقدها الطلبة ويشارك في المظاهرات .. ولكنه لم يكن يحاول أن يتظاهر بوطيته أو يتحمل مسؤوليات مباشرة .. أى لم يكن يحاول أن يقود الطلبة في المظاهرات .. أو يلقي فيهم خطابا من الحطاب الوطنية التي تدعو للجهاد .. أو حتى يبدأ بهتاف يردده الطلبة من ورائه .. إنه يعيش بدوافع وطنية قوية ولكن هذه الدوافع تسيطر في طبيعة حب المعرفة والفرجة والتجربة .. ولكن عبد الله لا يهتم إطلاقا بالسياسة ولا بما يجري في شوارع القاهرة .. وكان مير يافقه طويلا دون أن يستطيع إثارة اهتمامه أو شمه إلى هذا الحال .. وقد قال له يوما :

— لماذا لا تجمع شباب الحسين ليشاركوا في المظاهرات التي سيقوم بها الطلبة يوم السبت ؟ ..

وقال عبد الله ساخرا :

— وماذا يفعل أهل الحسين هذه المظاهرات ؟ .. بل ماذا يفعل بها الطلبة ؟ .. إسمهم يضربون في البوليس .. والبوليس يضرب فيهم .. ثم لا شيء أكثر .. وكأننا يا سي منير لا رحنا ولا جينا ..

وقال منير في حماس :

يذوب فيها .. إن نقطة ضعف رجال الحسين أنهم يفضلون في المرأة اللون الأبيض ويضعفون أمامه .. وبين أهل الحسين بات ييضات وشقراوات .. ربما كن من سلالة أيام حكم الأتراك .. ولكن عبد الله كان يحتر أن عروسه هي الوحيدة البيضاء الشقراء في الحى كله .. وقد خصه الله بها .. وأقيم حفل واسع للزفاف دعى إليه أهل الحى كله .. وطبعا كان منير أول المدعوين وقد دعت معه عائلته كلها .. ولكن العائلة اعتذرت .. فامه وأخواته البنات لا يرطنن بمائلة الحاج عبد اللطيف شىء وليس من هواة الفرجة .. وأبوه لا يحب أن يكلف نفسه ما هو خارج عن حياته حتى لو كان مجرد التمتع بالفرجة .. وليس لمنير أخ يصحبه .. فذهب وحده .. واهم صديقه عبد الله به أمام كل المدعوين حتى كان يصبر طوال الحفل على أن يجلس بجانبه .. كأنه يريد أن يتباهى به أمام أهل الحى .. وكل ما لفت نظر منير أنه رأى الأستاذ منصور أحمدين بين المدعوين .. إنه شخصية معروفة من شخصيات الإخوان المسلمين .. إن منير لم يكن يعرف أن الأستاذ منصور من أصدقاء عبد الله أو من أصدقاء العائلة .. لم يجدته عبد الله عنه أبدا رغم أنه شخصية تستحق الحديث .. وكان الأستاذ منصور يجلس بين اثنين مطلقا شعر اللحية .. ربما كانا هما أيضا من الإخوان المسلمين ..

وقد مال منير أثناء الحفل على أذن عبد الله يسأله عن الأستاذ منصور

.. وقال عبد الله هامسا :

— إنه معرفة جديدة .. وهو رجل فاضل .. لقد أسرف بكلامه ..

وقال منير كأنه يتنهد :

— إنه من الإخوان ..

وقال عبد الله وسعاده تكسو لحاته :

— أى من المؤمنين ..

وقال منير فى دهشة :

— وكيف عرفته ؟

وقال عبد الله كأنه يهذى صديقه :

— غدا تعرفه كما عرفته ..

وضاع الحديث بين ضجة الحفل ..

وقد أصبح عبد الله يعيش حياة جديدة بعد زواجه رغم أنه كان يقيم فى نفس البيت مع أمه وأبيه .. وقد توفى الحاج عبد اللطيف بعد زواج ابنه بشهور .. وحزن عليه منير حزنا صادقا فقد كان قد وصل معه إلى الإحساس به كأنه أبوه أيضا وليس أبا عبد الله وحده .. وقد اتفق عبد الله مع أخيه أحمد بعد الوفاة على أن يكون هو المسئول عن محل الأقمشة .. فقد كان هو الأقدر فعلا على إدارة المحل رغم صغر سبه والأكثر نفعرا عن أخيه الذى يعيش عالم العوام والمراقصات .. عالم الليل .. وكان أهول عليه أن يفرد بمسئولية محل الكواء ..

ولم يؤثر هذا التطور على الصداقة بل الإخاء الذى يربط بين عبد الله ومنير .. ولا يزال منير يترك دنيا زملائه الطابة وعالم المدرسة والدراسة ويذهب إلى عبد الله ليجلس فى الدكان ويتناول معه الغداء وهو يعنى أن هذه هي الدنيا الوحيدة التى يستريح فيها ويستكث من الزواجر التى تعصف برأسه .. رابع شيئا كل ما يسمعه وكل ما يراه ..

وقد التقى فى دكان عبد الله بالأستاذ منصور أحدى عضو الإخوان المسلمين .. ومرت يدهب إلى بيت عبد الله ليناول طعام الغداء فيجد

الأستاذ منصور مدعوا معه .. وقد دخل معه في مناقشات كثيرة .. ولم يكن عبد الله نفسه يشترك في هذه المناقشات رغم أن منير عرف أنه انضم إلى الإخوان المسلمين .. ولكن عبد الله لم ينضم إلى الإخوان على أنه رجل سياسة بل انضم إليهم بدافع إيمانه كمسلم .. الإيمان الذي يتمكن منه يوما بعد يوم .. حتى أصبح مفرطاً في أداء الصلاة وبقية شعائر الدين إلى حد الوصول إلى مظاهر لا يقتنع بها منير كشعائر دينية بل يعتبرها استغلالاً للدين .. وكان عبد الله قد بدأ يتبرع بكل ما يملك للترع به للإخوان .. ولكنه أبصراً لم يكن يدفع أمواله لتحقيق هدف سياسي .. بل كان يدفع تقريباً إلى الله وكما يدفع الزكاة للفقراء حتى الحسنة ..

ولهذا اخلاف بينه وبين عبد الله أصبح منير كلما التقى بالأستاذ منصور يفرد بمناقشته كأن عبد الله لا يجلس معهما .. وعبد الله نفسه لا يهتم بتتبع هذه المناقشات .. وقد أحس منير بتقدير كبير للأستاذ منصور .. إنه يناقش في هلهو وآرائه ومعلوماته واسعة تشمل الحياة كلها وكل متطلبات الحياة .. وهو ليس منطرفاً أو متحزباً حتى في إسلامه ولكنه قادر على أن يضع كل موضوع داخل حكم الإسلام .. وكان منير يهجم من كلام منصور كأنه يحاول أن يقتنه بالانضمام إلى الإخوان .. ومنير يرفض كميلاً عام وضعه لنفسه أن ينضم إلى الإخوان أو إلى أي تجمع أو حزب سياسي .. ليس لأنه غير مقتنع بها كلها وإنما فقط ليحفظ لنفسه بحريته في تكوين رأيه وفي أن يعيش هذا الرأي .. إنه يأخذ من كل تجمع أو من كل حزب ما يرضه ويرفض ما لا يرضه .. وهو حر .. وكل الأحرار من حقهم أن يعرفوا عن حريتهم بتشكيل جماعة أو حزب وتحديد الطريق أمام جماعتهم أو حزبهم .. فهو لا يرفض قيام تنظيم الإخوان المسلمين .. إن هذا من حقهم .. وهو

يحترم ويؤيد هذا الحق .. ولكنه هو أيضاً حر في الانفراد بحريته بعيداً عنهم وعن كل التنظيمات .. وقد فهم الأستاذ بسرعة أن منير يرفض الانضمام إلى الإخوان ولكن هذا الرفض لم يغير من إحساسه به وتركه يرفض كأنه يصود ويحترم حريته ..

وقد قال له منير في إحدى مناقشاتهما :

— إنكم تطالبون برفض الشريعة الإسلامية ولكن بجانب الشريعة هناك العلم الذي أصبحت كل الدول القوية تعتمد عليه في بناء نفسها وصيانة وجودها ..

وقال الأستاذ منصور في هلهو :

— كل ما يمكن أن يصل إليه العلم يمكن أن يصل إليه من حلال الإسلام ونصوص القرآن .. إن الإسلام دين ودينا .. وقد استوعب كل ما يمكن أن يحققه الدين وكل ما تحتاج إليه الدنيا في يومها وفي غدها ..

وقال منير كأنه يتحدث إلى الأستاذ :

— إن المسلمين إلى الآن لم يصلوا إلى العلم الذي يحدد لهم أيام التواريخ .. تاريخ الشهر الإسلامي .. إنهم مستسلمون للنص على الشهر برؤية أهلال القمري رؤيا العين المجردة .. وبعد آلاف السنين اقتنع بعض رجال الدين بأن العين لا تعني العين المجردة .. بل تعني كل ما يصل إلى العين .. فاستعانوا على رؤية الهلال بالنظارة المعظمة .. ولكنهم إلى الآن لم يستعينوا بالتلسكوب .. بل حتى نتائج مصلحة الأرصاد التي تقوم على الحسابات العلمية يمكن أن تعتبر رؤيا للعين .. لأن ما يصل إليه الفكر يعتبر رؤيا للعين .. ولكن الإسلام يرفض العلم .. لذلك فالشهور المسيحية محددة منتظمة طوال العلم بحيث لا يتعب فيها من يعتمد عليها .. أما الشهور

الإسلامية فلا نزال محيرة .. لا يدري المسلم متى يبدأ الشهر ولا متى ينتهى .. لذلك لجأ المسلمون إلى الشهور المسيحية التى يحدد بها العلم .. ولم تعد للشهور الإسلامية قيمة إلا قيمة التبرك بالمناسبات .. كالتيك بشهر رمضان ..

وقال الأستاذ مبتسما فى هدوء :

— إن الإسلام يشر بكل ما يمكن أن يصل إليه العقل من علم .. وبين الذين اكتشفوا ووضعوا الأمور العلمية التى يقوم عليها العلم حتى اليوم علماء مسلمون .. إن الإسلام يفسح مجال العفوية التى يهبها الله لمن يختارهم من خلقه .. وما تعانیه ليس فى الإسلام ولكنه فى تعارض تفسير النصوص الشرعية بين العقول الضيقة والعقول الواعية .. وهذا ما نتمناه وندعو إليه .. وهو وحده التفسير للإسلام بين المسلمين ..

وقال منير وهو يسخر من الأستاذ :

— ولهذا يجب أن يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم ويتولوا الوزارة حتى يفرضوا وحدة التفسير ..

وقال الأستاذ منصور فى حدة وإن كانت بلا غضب :

— ليس من أهداف الإخوان الوصول إلى الوزارة .. ولو كان حسن النية يريد أن يكون وزيراً لحول جماعة الإخوان إلى حزب سياسى كبقية الأحزاب .. ولوصل إلى أن يكون رئيساً للوزراء وكل من معه وزراء .. بل إن الوزارة كانت دائما إحدى المغريات التى يعرضونها على حسن النية ليكسبوا ثييده ورضاه .. ولكن لا حسن الباشا ولا كل من فى الإخوان يمكن أن يزولوا إلى مرتبة الوزراء .. بل إننا فيما يمس قراراً أن كل من يقبل أن يكون وزيراً يعتبر خارجاً على الإخوان .. فهدف الإخوان هو أن يكونوا قوة شعبية تفرض على

الحاكم تطبيق الشريعة الإسلامية .. وتراقبه .. ونحاسبه .. حتى لا يتجرأ على الإسلام مستهيناً به متعدياً شريعته .. ونحن نؤمن أن ما أصاب الإسلام والمسلمين يرجع إلى أخطاء الحاكم لا إلى أخطاء أو إلى نقص فى شريعة الإسلام .. وفى التاريخ منذ أيام معاوية بن أبى سفيان والحكام المسلمون يخطئون فى حق الإسلام ويتعمدون وضع التفسيرات التى تحقق مطامعهم حتى مع صفاء نياتهم .. وليس هناك وسيلة لحماية الإيمان بالدين إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية .. وأن يكون الشعب المسلم من القوة والوحدة حتى يستطيع أن يراقب الحاكم ويحاسبه ويفرض عليه الشرع .. وهذا ما يسعى إليه الإخوان .. أن يكونوا الشعب المسلم لا حكاماً على المسلمين ..

وقال منير وكأنه لا يزال فى حاجة إلى المعرفة وإلى إشباع هواية الفرجة حتى لو كانت فرجة على الآراء :

— إن الشريعة تفرض على الحاكم نظام الشورى .. ولكننى أفهم كلمة الشورى على أنها الاستماع إلى رأى لا الخضوع له .. أى أن من واجب الحاكم المسلم أن يستمع إلى رأى شعبه ولكنه ينفرد بحق الاختيار بين ما يسمعه من آراء حتى لو اختار رأياً لم يسمعه ..

وقال الأستاذ مبتسما كأنه يشفق على منير من جهله :

— إن كل النظم التى تقوم فى كل العالم وتسمى بالديموقراطية هى نظم تقوم على الشورى .. وكان الإسلام هو أول من دعا إليها فلم تكن هناك قبل الإسلام ديموقراطية .. والشورى تقوم على التنظيم والقانون .. ويمكن دائماً أن يقوم التنظيم بحيث يفرض رأى الأغلبية على الحاكم ويحرم عليه حق الانفراد بالرأى .. حتى قانون الانتخاب القائم هذه الأيام ويؤدى إلى اختيار أفراد مجلس الشورى الذى يحمل اسم « برلمان » .. حتى قانون الانتخاب فى

حاجة إلى تغيير وتعديل حتى يتفق مع الشريعة الإسلامية ويحرم على الحاكم الترفيف والتزوير .. فهو يزور ويفزيف الشريعة نفسها .. ويصل بأمر إلى مجلس الشورى لا يصحون ليكونوا مستشارين إسلاميين يحققون جدوى الشورى ..

وقال منير كأنه لا يزال يعتمد إثارة الأستاذ :

— ما دمنا نتحدث عن الشورى .. فمن يمثل الإخوان من المسلمين .. أمثلون أهل السنة أم أهل الشيعة أم الدرور أم العلويين أم الإسماعيليين .. إن الإسلام منقسم إلى طوائف ومذاهب وأحزاب .. حتى أصبحنا نقول إن كل بلد إسلامي له إسلامه ..

ولم يلم الأستاذ واستمر هادئا قائلاً :

— هنا ما حدث في جميع الأديان .. فالمسيحية منقسمة إلى كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت .. و .. و .. واليهودية أيضا منقسمة في داخلها .. حتى العقائد السماوية منقسمة إلى طوائف ومذاهب .. وهو انقسام ليس انقساما حول الإيمان بالله والإيمان برسله ولكنه انقسام قام على الظروف المحلية لكل شعب أو كل طائفة مع وحدة الدين .. وقد شهد التاريخ حروبا بين هذه الطوائف رغم انتمائها لدين واحد .. والمسلمون هم الأقل في خلافاتهم والأقل في الحروب التي قامت بين بعضهم البعض .. وذلك لقوة الإيمان بأصول الدين ومبادئه .. والإيمان بآمر الرسل والنبي المولود .. ونحن نعتقد أننا إذا وصلنا إلى تحقيق وتطبيق الشريعة الإسلامية حققنا وطقنا وحدة الإسلام .. وأصبحت هذه المذاهب لا تمثل انقساما في الإيمان ولكنها تمثل انقساما طائفيًا عمليا بين شعوب كل بلد ويصبح انقساما طائفيًا وليس انقساما دينيًا .. كالانقسام بين الصاعدة والبحارة في مصر ..

وقال منير بسرعة :

— إن مصر ليس كل أهلها مسلمين .. إن بينهم الأقباط .. أى انقسام في الدين لا يمكن أن يعثر مجرد انقسام طائفي ..

وقال الأستاذ منصور أحمددين في هدوء :

— إن الإسلام ترك لفرد حرية الإيمان بالدين الذي يختاره مادام الله لا إلَه إلا هو ..

وقال منير كأنه ينبه الأستاذ :

— مع فرض الجزية على غير المسلمين ..

وقال الأستاذ ضاحكا :

— لقد تطور المفهوم منذ زمن طويل .. فالجزية أصبحت تسمى ضرائب .. وكل أفراد الشعب يطبق عليهم قانون واحد للضرائب يتساوون به جميعا .. مسلمون وأقباط ويهود ! ..

ويستمر النقاش ..

إنه لا ينتهي أبدا ..

ومنير يحس في كل مرة يناقش فيها الأستاذ منصور أحمددين بأنه يزداد معرفة ويفرج على مشاهد جديدة من العالم الذي يمثل الأستاذ .. وكان ينتقى به غالبا في دكان عبد الله ولكنه كان عندما يغيب طويلا يطلب من عبد الله أن يحثا عنه .. بل إنه ذهب مع عبد الله مرتين أو ثلاثا إلى اجتماعات عامة في مبنى جماعة الإخوان .. وكان هو وعبد الله يجلسان صامتين يستمعان .. ولكنه كان يفهم مما يسمعه غير ما كان يفهمه عبد الله .. ولكن معرفته بالأستاذ منصور أحمددين لم تصل إلى حد الصداقة الشخصية التي تجمعهما وترفع الكلفة بينهما .. ولكنها كانت معرفة تحمل تقدير كل منهما للآخر .. وظلت الصداقة الشخصية الخاصة قاصرة على

عبد الله وحده .. إنه وحده الذى يطعن إلى مير ويسعى إليه ليرتاح وينأى بحبه واحترامه لا ليناقشه أو ليزداد معرفة وجسج ..

وعندما عاد من الإسكندرية ورأسه يضح بكل هذه الزوابع هرع إلى عبد الله وجلس معه فى الدكان بعد تبادل قبلات الشوق بعد غيبته الطويلة وإن كانت لم تستمر سوى عشرين يوما .. إلى أن صاحبه عبد الله إلى البيت ليعرج بقاء العائلة .. إنها عائلته أيضا وليس عائلته عبد الله وحده .. وبعد تناول طعام الغداء انعرد منير وعبد الله يتناولان الشاى .. وقال منير مترددا على غير عادته عندما يحدث عبد الله وإن كان يحضى تردده باهتمام مفتعلة :

— لقد بدأت أفكر فى الزواج ..

وقال عبد الله فى فرحة صارخة :

— يا ألف مبروك .. إن الزواج نعمة وسر .. سأنادى أمسى لتزغرد لك .. ولكن ما الذى دفعك إلى التفكير فى الزواج بعد أن كنت تعارضنى به ؟ ..

وقال منير وهو يحنى رأسه كأنه حجل من نفسه :

— لقد وجدت من دفعتنى إلى التفكير فى الزواج ..

وقال عبد الله بفرحة :

— من أى عائلة ؟ ..

وقال منير كأنه يحدث نفسه :

— إنها ابنة يحيى باشا الروزنجى .. عضو الوفد الذى كان وزيرا ..

وانضمرت فرحة عبد الله وقال كأنه صدم :

— وكيف عرفت الباشوات ؟ ..

وقال منير بصوته الخافت :

— رأيتها وعرفتها فى الإسكندرية وأحوها أصبح صديقا .. صديقا جدا ..

وقال عبد الله جادا :

— إذا كنت تفكر فعلا فى الزواج من ابنة الباشا .. فاعدل حالا عن هذا التفكير ..

وقال منير فى حنة كأنه يدافع عن كرامته :

— هل أعدل لأنها ابنة باشا .. وهى غنية وأنا فقير ؟ ..

وقال عبد الله وهو أيضا يحد :

— سواء كنت غنيا أو فقيرا فهذا الزواج لا يصلح لك .. الزواج ليس مجرد الجمع بين رجل وامرأة .. إنه الجمع داخل مجتمع واحد .. هل داخل حى واحد .. حتى يمكن أن يحقق الألفة بين الزوجين وكل منهما يسعد الآخر .. فأين هذا المجتمع الواحد الذى يضمك أنت وابنة الباشا ؟ .. وأين الحى الواحد الذى نشأتما فيه .. أو حتى الحب المتقارب ؟ .. لقد عرض علي أن أتزوج من بنات أفندية .. ومن أحياء بعيدة عن حينا .. ولكنى كنت أرفض .. وحتى لم أفكر فى أن أطلب منك الزواج بإحدى أخواتك رغم أنى أشيدهن أمام أمى ورغم أن صداقتنا وعشرتنا التى أعتر بها تأكد بأن أناسيك بالزواج .. ولكنى لم أفكر أبدا فى أن أناسيك .. لأن عائلتك تعيش مجتمعنا آخر ، ولأن حيكم ليس حينا .. واحترت زوجتى فاطمة لأنها تعيش معنا ولأنها من حينا .. حى الحسين .. ربما لو كانت فاطمة من حى السيدة لما تزوجتها ..

ودهش منير مما يسمعه .. إن صديقه عبد الله متحزب طبقيا .. إن

الإحساس الطبقي لدى الناس العاديين أقوى منه لدى أولاد الفئات .. لدى الطبقة العليا .. وربما كان الناس العاديون يريدون إنزال الطبقة العليا إليهم لا أن يرتقوا هم إليها .. بل إن عبد الله يتحزب حتى للحى الذى يقيم هو حتى يرفض الزواج من حى آخر .. وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :
— إنك تبالغ .. لا فارق بين المجتمعات ولا بين الأحياء .. إنما الفارق بين كل شخص وآخر فى عقلية وشخصيته وفيما استطاع أن يحققه فى حياته .. إن والدك كان عاملا ولكنه الآن من رجال الأعمال .. وصدقتنا التى أعتز بها قامت رغم الفارق بين مجتمع أولاد البلد ومجتمع الأفندية .. واستمرت رغم أنك أصبحت تعمل وأنا لا أزال طالبا .. كل من فى الدنيا يمكن أن يلتقى ..

ولم يرد عليه عبد الله بل لعل لم يفهم ما يقول ورفع صوته محمدا :
— هل فاشمت أخاها فى طلب الزواج ؟ ..

وقال منير وهو يحادث عبد الله كأنه يرتاح بالحديث مع نفسه :
— لا .. إن أخاها يحيرنى أكثر منها .. إنه رغم أنه ابن باشا فهو شيوعى ..

وصرخ عبد الله :

— شيوعى .. !! .. أى كافر ؟ ..

وقال منير فى بساطته :

— إن ما أوحى لى به هو أنه عملا كافر .. إنه كافر حتى بوجود الله ..

وعاد عبد الله بصرخ :

— وماذا يريد منك الكافر ؟ .. يريد قطعاً أن يصحك إلى الكفار ..

وقال منير وهو يتهد فى هدوء :

— إنك تعلم أنى لا أنضم إلى أى حزب أو تجمع ولا حتى إلى أى مذهب سياسى .. وأنت من الإخوان ورغم حى لك والصداقة التى جمعنا العمر كله لم أنضم معك إلى الإخوان .. واطمئن إلى أنى لن أنضم إلى الشيوعيين أبدا ..

وقال عبد الله ساخرا :

— ربما لو كان لى أخت لأغريتك بالزواج بها حتى تنضم معى إلى الإخوان .. كما قد يفعل صديقك الجديد ..

وقال منير كأنه يتحائل على عبد الله أن يرافقه :

— إن صداقة لا يمكن أن تصل إلى درجة صداقتنا .. وأخته لا يمكن أن

تغريه بأن أخرج عن حريمى كما حدثها لنفسى ..

وقال عبد الله كأنه صاق بهذا الكلام ولم يعد يحتمله :

— قم بنا لأفطح المهل ..

وخرجا من البيت .. وانفصل منير عن عبد الله عائدا إلى بيته .. إنه لم يكن ينتظر أن يسمع رأيا من صديقه .. كان كل ما يسعى إليه هو أن يرتاح بالكلام عن الزواجر التى تعصف به ليحفف منها حتى يرتاح .. ولا شك أنه ارتاح قليلا بعد لقائه بصديقه عبد الله ..

الساعة التى تستطيع فيها أن تمررد بالرد على التليفون قبل أن يعيق أفراد العائلة من النوم وقبل أن يبدأ الخدم نشاطهم .. وقد سألته كيف تستطيع هى أن تتصل به وهى بعيدة عه .. وقد فرح بسؤالها .. إنها تريد كآ يريدنا .. وقد أجابها بأن الوسيلة الوحيدة للاتصال به هى إرسال الخطابات بالبريد فليس فى بيته تليفون .. وكتب لها العنوان ووضع فى يدها وهما لا يزالان فى البحر .. وثنى أصابعها على الورقة التى كتب فيها العنوان وضغط عليها كأنه يسكب عنوانه فى دمه .. ومنذ تركها وهو فى انتظار خطابها .. ولكنها لم تكتب إليه وهى فى الإسكندرية .. ربما تكتب إليه من باريس .. ولكن لم يصل إليه منها ولا كلمة حتى اليوم ..

وكانت قد قالت له إن أعياها كآ لا يجب السفر معهم إلى باريس .. وكان قد اتفق معه على أن يكون لقاؤهما فى القاهرة فى مقهى ليس له اسم ولكنهم يسمونه مقهى الأسبوطى الذى يقع عند مدخل ميدان السيدة زينب .. ولا يدري لماذا اختار كآ هذا المقهى البلدى الصغير للقاء أصدقائه .. ربما اختاره ليعبراً من نفسه كآبن الروزنامجى باشا ويظهر نفسه أمام الناس كآبن بلد أو من الطبقة الشعبية العادية .. وقد تردد على هذا المقهى عدة مرات باحثاً عن كآ .. ربما لا شوقاً إليه ولكن ليحاول أن يعرف منه أخبار أخته دلير .. وهل عادت العائلة من باريس .. ولكنه لم يكن يجد كآ فى مقهى الأسبوطى .. لعنه لا يزال فى الإسكندرية أو ربما تغير هذا العام وسافر مع العائلة إلى باريس ..

وكانت أحياناً تتأبه ثورة على نفسه .. إنه ضعيف .. لماذا يعيش مستسلماً لهذه الأهوام التى تجيئه مع دلير ؟ .. لما يفترض أنها تريد كآ يريدنا .. نجبه كآ يحبها ؟ .. ربما كانت من هواة الفرجة كآ هو من هواها ..

كان منير غام قد أصبح وكأنه يعيش مع دلير .. إحساسه كله وأفكاره كلها معها .. ومهما شغل نفسه فهو لا يبعد عنها .. وكان قد بدأ يقرأ كثيراً .. إن الأحداث التى صادفته خلال هذا الصيف فحمت شهيته أكثر للفرجة على العالم من خلال قراءة الكتب .. وكان يقرأ وهو يحس كأن دلير سمحت له بالانشغال عنها بالقراءة .. ثم بدأ يتردد على كلية الحقوق بعد أن بدأت الجامعة ويلوب فى تقصى تفاصيل الدراسة وفى اكتشاف عجايب الكلية وفى لقاءاته مع زملائه الذين كانوا معه فى الدراسة الثانوية والتعرف على زملاء جديد .. ولكنه كان دائماً يحس كأنه سيخرج من الكلية ليعود إلى دلير .. إلى فكره وإحساسه بها .. كأنها تنتظره فى بيته الذى يتورمه بخياله .. وأحياناً كان يتردد على صديقه عبد الله عبد اللطيف ويجلس معه فى محل بيع الأقمشة .. ولم يكن يحاول أن يعود إلى التحدث مع صديقه عن دلير .. ولكنه كان يزوره وكأنه يعتمد الابتعاد عن دلير حتى يمتع نفسه بإحساس الشوق إليها .. الشوق إلى مجرد تمثيلها ..

وكان آخر حديث جرى بينه وبين دلير يتردد دائماً فى ذهنه ويكاد صوتهما وهى تتحدث يرن فى أذنيه .. كأنه أنغام لحن موسيقى لا يستطيع أن ينساه .. لقد تحدثا كأنهما يرسمان المستقبل .. مستقبل حبهما .. إنها ستبقى فى الإسكندرية وفى شهر سبتمبر ستسافر مع العائلة كلها إلى باريس كعادتهم لشراء ثياب ومطالب الموسم القادم .. وبعد أن تعود من باريس فعليه أن يتصل بها بالتليفون فى الساعة الثامنة صباحاً من أى يوم .. وهى

وهو يعلم أن الفرجة قد تنهى سريعا بالسيان .. وقد تطول وتعلق بإحساس المتفرج فترة .. وقد تمكن منه حتى تنقلب إلى واقع يعيش فيه المتفرج حتى ينقلب من متفرج إلى مؤد .. يؤدي دورا في الحياة بدأ به كمتفرج في الحياة .. وهو قد بدأ بالفرجة على دلبر ولكنه انقلب سريعا إحساسه بالارتباط بها .. ارتباط الحب .. أما هي فقد تكون فرجتها عليه قد انتهت سريعا بالسيان .. إنها ابنة الباشا وهو أبى الأندى .. وقد قال له صديقه عبد الله عبد اللطيف إن اختلاف المستوى الاجتماعى أى اختلاف الطبقة لا يمكن أن يجمع بين فتى وفتاة لا في حب ولا في زواج .. لعله كان أصدق منه في الاعتراف بالواقع .. وربما كان كل ما بينه وبين دلبر أن الطبقة التى تنتمى إليها أقوى إغراء واجتذابا من الطبقة التى ينتمى إليها هو .. لذلك تصور أنه يحب دلبر في حين أن دلبر لم تكن تحس إلا بأنها تتفرج عليه .. تتفرج على الفقراء ..

وكان يحمده هذه الثورة سريعا ويطردها من فكره وإحساسه .. إنه لم يقتنع بما قاله صديقه عبد الله .. وهو يؤمن بأن الحب يرتفع ويرقى فوق الطبقات الاجتماعية .. وكل القصص التى قرأها وكثير من أحداث التاريخ تقوم على حب بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء .. بين بنات الباشوات وأولاد الأهدية .. فليصبر وينظر وبدأ ويتفأل .. إن دلبر ستعود إليه .. ويشد كتابا من جابه وكأنه يستأذن دلبر في الانشغال عنها بالقراءة ..

وكان قد بدأ يقرأ كتاب كارل ماركس الذى أهداه إليه كمال الروزنامجى .. وربما لم يكن الدافع لاختيار قراءة هذا الكتاب الذى مضت شهور وهو ممنوع عن قراءته هو رغبته في دراسة الماركسية .. ولكنه كان كأنه في شوق إلى دلبر ويحاول الاقتراب منها بقراءة كتاب أهداه له أخوها .. وقد تعود وهو يقرأ أن

يحب كأنه يتفرج .. يتفرج على عقول الناس .. ولكنه وهو يقرأ هذا الكتاب أحس أنه ليس مجرد متفرج .. إنه يجادل ويناقش مع كل كلمة يقرأها ..

وكان قد وصل إلى أواخر شهر سبتمبر عندما فوجئ يوما بهجوم اس بواب العمارة يصعد إليه في الشقة :

— واحد اسمه سى كمال ينتظرك تحت .. في الشارع ..

وقفز منير كأنه يطير أو كأنه استرد الحياة فجأة .. لقد عاد إليه كمال .. ووضع القميص والبطول والخذاء كأنه يقفر في داخلهم .. ثم حرى بهبط السلم ..

لقد جاء إليه كمال في سيارة يقودها .. وهى سيارة قديمة صغيرة .. فكما لم يعد نفسه عن السيارات الفخمة الحديثة التى تفضح مستوى طبقة وغناه .. وكلاهما يشد على يد الآخر في إحساس جارف بفرحة اللقاء ويتمسك للآخر انتماسة مريحة .. وقال مير لاهتا من شدة فرحته بلقاء صديقه :

— أين كنت طوال هذه المدة ؟ .. لقد ذهبت إلى مقهى الأسبوطلى مرات بحثا عنك ..

وقال كمال من خلال ابتسامته :

— كنت مشغولا بأصدقاء جدد من الإسكندرية .. إن صداقة الإسكندرية أتعب من صداقة المصاروة ..

وفتح له باب السيارة قائلا :

— ادخل ..

وقال منير راجيا :

— ألا تصعد معى إلى بيتنا لنتم زيارتك ؟ ..

وقال كمال بلهجة المرحبة :

— يا راجل ادخل .. إنسا على موعد .. وليس لدينا وقت الآن لاستكمال الزيارة ..

وقال منير وهو يجلس داخل السيارة :

— هل هو موعد فى مقهى الأسبوطى ؟ ..

وقال منير وهو يتحرك بالسيارة :

— لا .. إنى أقيم الآن وحدى فى البيت .. والأهل كلهم مسافرون فى الخارج .. ولما كنت أعتبر نفسى إنسانا استعاليا فقد رأيت أن أستغل بيتنا ودعوت الشلة لأن نلتقى فيه .. مادنا وحدنا .. وحتى يشهد هذا البيت اجتماعات من نوع آخر غير الاجتماعات التى بلشها أبى وإخوتى .. أريد أن تلور مناقشاتنا فى عقردارى .. ومن يدري ربما أصبح هذا البيت عقب الثورة مركز قيادة ..

وفتحت عينا منير كأنه عرف ما كان يحدث عنه .. عرف أن دلير لم تعد بعد من باريس .. وقال وهو يضحك ضحكة يخفى بها حبه :

— ومتى تعود العائلة من الخارج .. حتى يعود مركز القيادة إلى مقهى الأسبوطى .. ؟

وقال كمال وهو يضحك بصوت أعلى :

— كل الثورات تعيش متعرضة للمفاجآت .. وقد تعود العائلة غدا .. وقد تعود بعد شهر .. وقد لا تعود أبدا وتقرر الهجرة إلى هناك .. والمهم الآن أن يشبعوا من الطواف بالدكاكين .. وأنهى ألا يشبعوا أبدا حتى يتركوا وحدى لدكاكين السياسة فى بندا الذى أعيش فيه كما يعيشون هم فى دكاكين

الأزياء فى باريس ..

ولم يكف كمال عن الكلام والأسئلة والأجوبة طوال الطريق .. ومنير يتحدث قليلا ويحجب عن الأسئلة باختصار .. وأهم ما يشغله أنه لا يعرف متى تعود دلير ..

إلى أن وقف كمال بالسيارة داخل حديقة البيت ..

إنه ليس بيتا .. إنه قصر .. ويعرف باسم قصر الروزناسمى .. كل القصور فى أحياء الطبقة الراقية تعرف باسم العائلات التى تمتلكها .. قصر لطف الله وقصر شهاب الدين وقصر عائشة فهمى وقصر شريف باشا .. و .. و .. ودخل منير مع كمال إلى القصر وهو لا ينظر حوله وكأنه يخاف أن تصدمه الفخامة والآية التى تحيط به ..

ووجد فى صالة الاستقبال كل أفراد الشلة التى سبق أن التقى بهم فى مقهى يترو مضافا إليهم أشخاص لم يكن قد التقى بهم .. لعلهم أعضاء جدد فى الشلة .. فى الجمعية .. فى الحزب ..

وبدأت المناقشات كما هى العادة باستعراض الأخبار والآراء التى يحملها كل منهم .. ومنير صامت مكتف بالاستماع .. ويحس فى الوقت نفسه أنه يحدث نفسه معلقا على كل ما يسمعه .. إلى أن التفت إليه صديقه خليل الذى كان زميلا له فى المدرسة قائلا :

— لماذا لا نسمع شيئا من الصديق منير ؟ ..

وقال منير مبتسما :

— لقد قلت لصديقنا كمال إنى أخاف المناقشات لأنى لم أتعودها .. واتفقا على أن أكتفى بالاستماع ..

وقال خليل ضاحكا :

— إننا لا نتناقش ولكننا نسلّي بالكلام ..

وقال مصطفى وهو أيضا يتنسم كأنه يتعاون مع زملائه على اكتساب مير :

— إن الاستماع يؤدي إلى تكوين رأى .. فلا تحرما من رأيك .

وقال عادل الماسترلى في طهجة متعالية حشنة .. إنه ليس ذكيا ككمال الروباجي ويستطيع أن يحفى مظاهر الطبقة التى ينتمى إليها حتى في اختيار اللهجة التى ينطق بها .. قال كأنه يبدأ في محاسبة منير :

— هل قرأت كارل ماركس كما وعدت ؟ ..

وقال منير وهو يركز عينه في وجه الماسترلى كأنه يتحداه :

— أنا لم أعد بقراءة كارل ماركس .. وأخذت الكتاب من كمال دون أن أطلبه ودون أن أعد بشيء .. ورغم ذلك لقد قرأت كارل ماركس ..

وتفتحت كل العين والتفت حول منير كأنها في انتظار مناقشة ممتعة ..

وقال الماسترلى في صوت ملهوف :

— وماذا خرجت به منه ؟ ..

وقال كمال الروباجي وكأنه يشخبط في الماسترلى :

— ليس من حقلك أن تسأل منير عما خرج به مما قرأه .. كأنك تعتبر نفسك أستاذًا يمتحن التلاميذ في علم مقرر .. فليس بيننا أساتذة .. وكل ما يختار ويترجع لنا مما يقوله ..

وكان كمال يتكلم كأنه المستول عن الماسترلى وعن توجيه كل كلمة ينطق بها ..

وقال منير وهو يتنسم هادئا كأنه يريد أن يثبت اعتراضه بشخصيته في مواجهة كل الحاضرين :

— دعه يسألني لأقول له . إلى لا شك قد دهلت من الوافعية التى عشت فيها وأنا أقرأ كتاب كارل ماركس . ومن تحليله العلمى لهذا الواقع .. ولكسى بعد أن انتهت من قراءته وجدت نفسى لأرتت بعينها عنه ..

وقبل أن ينطلق الماسترلى بكلمة سبقه خليل قائلا في هدوء كأنه حريص على تأجيل إعلان الحرب :

— وماذا كان يحول دون أن تعيش معه ولا تبعد عنه ؟ ..

وقال منير وهو أكثر راحة وهو يجيب عن سؤال لم يوجهه الماسترلى :

— أساس النظرية الماركسية .. أى أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات .. فما هى الطبقة ؟ .. إنها مجموعة أفراد .. والحق الأساسى للفرد هو احتفاظه بحريته داخل طبقته .. إلى حد أن يكون من حقه أن ينتقل من طبقة إلى طبقة .. وأنا مثلا أعتبر من الطبقة المتوسطة ولكسى أعتد على حريته التى تشمل حرية الرأى وحرية العمل في الوصول إلى الطبقة العليا الغنية .. أى أن أكون من أصحاب الملايين .. ولا أسمح بأن أجمد في الطبقة الوسطى أو بفرض على نظام ينقلنى إلى الطبقة العاملة .. خصوصا وأن الطبقة العاملة كما فهمتها مما قرأت هى الطبقة التى تنتج بمصر فكرها وطموحها في أصابعها .. أى طبقة تتكون من أفراد كالألات .. تدور لنتج ..

وقال خليل وهو لا يزال هادئا :

— لقد أخطأت في فهمك لما قرأت .. فإن الانتاج الفكرى المجدد يعتبر عملا .. ويعتبر من يؤديه عاملا من الطبقة العاملة .. أى أن إنتاج الفكرة أو الاختراع يساوى إنتاج رقيق الخبز أو القماش أو السلاح . والماركسية لا تنكر الفكر المجدد ولا تتجاهل حقه ..

وقال منير وهو أيضا يدعى الهدوء :

— إن الفكر المحرد في حاجة إلى حرية مطلقة .. إنه لا يستطيع أن يصل إلى منتهى الإبداع والإعجاز وهو مقيد داخل طبقة .. أو وهو موظف حكومي يتقاضى مرتباً ثابتاً .. أو وهو مجرد من الدوافع الشخصية مادامت دوافع شريفة نظيفة .. وانظر إلى ما وصل إليه الفكر الفردي في دولة ماركسية تحكمها طبقة واحدة بالنسبة لما وصل إليه الفكر في دولة تقوم على مجتمع حر متعدد الطبقات .. حتى إن الأدب الروسي الذي لا نزاع تلهف عليه حتى اليوم وقد وصل إلى قمة الإبداع .. هو أدب ما قبل الثورة الماركسية .. ولم يعد في الإنتاج الأدبي الروسي بعد الثورة ما يشدنا أو يبهتنا أو حتى يثير اهتمامنا ..

وقال لخليل مقاطعا :

— إن أدب ما قبل الثورة يهرك لأنه أدب كان يدهو إلى الثورة الماركسية .. أى أنه أدب ماركسى ..
وقال منير وكأنه يتباهى بمعلوماته :

— كانت روسيا في ثورة ولكنها لم تكن كلها ثورة ماركسية .. والذي حقق نجاح الثورة الروسية أنها قامت على حرية تعدد الآراء والاتجاهات إلى أن استطاع الانتباه الماركسى أن يفرض نفسه ويفرد بالحكم .. ورغم ذلك .. فلماذا اختفى الإبداع الأدبي بعد الثورة ؟ .. لأن الفكر فقد حريته ففقد القدرة على الإبداع .. فقد حريته بمجرد حصوه في طبقة واحدة ..

وقال عادل المانسترلي كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه من الكلام وصوته يتجلى كأنه يقول أن نطلق ثائرا :

— إنك نتج بحرية الفكر وتضع حق الحرية فوق حق العدالة الاجتماعية التي لا يحققها إلا الاعتراف بالواقع .. وسأضرب لك مثلاً قد تدهش من

سماعه على لسانى كأني أعترف بحريتي .. إن أى مليونير .. كل العائلة مليونيرات بما فهم أنا . ولملك آلاف الأفئدة .. فما هى عبقرية أى الفكرة التي حققت له ملكية هذه الأرض وملأت خزائنه بكل هذه الملايين .. إلى أعلن أمامك أن أى ليس له القدرة على التفكير إطلاقاً .. إنه أعبى الأعباء .. وهو يعيش بكل هذه الثروة لأنه اكتسبها بالوراثة .. إن الطبقة المانكة تتوارث دون أن تبذل أى جهد فكري أو عمل لمجرد أن المجتمع الذى أقامته يحفظ لها هذا الإرث حتى تحتفظ بكيانها وتفرض قوتها .. وهى الطبقة التي تحكم مصر حتى اليوم فلماذا لا تتور عليها وتمحوها من الوجود وتصل بالطبقة الأحق إلى الحكم . الطبقة العاملة .. الطبقة التي تمد الكيان الإنسانى بالحياة ..

ونظر منير إلى كمال الروزناجى كأنه يريد أن يسمع رأيه في هذا الكلام .. ولكن كمال ظل صامتا .. وطالت نظرة منير إليه كأنه يستأذنه أن يتولى هو الرد .. وقال وهو أيضا يحاول أن يكون هادئا دون أن يتنازل عن الصراحة :
— إن أباك يمثل فردا في طبقة .. والقضاء عليه لا يفرض القضاء على الطبقة كلها .. حتى لو كان في هذه الطبقة عشرات أو مئات مثل أبيت ، فالقضاء عليهم لا يفرض القضاء على الطبقة ..

وصاح المانسترلي :
إن الأفراد لا يمثلون أنفسهم ولكنهم يمثلون طبقة .. ولا يمثلون على قوة خاصة أو مبادئ خاصة ولكنهم يمثلون على قوة ومبادئ الطبقة ..
وقال منير وهو لا يزال قادرا على الهنوء :

— حتى هذه القوة يمكن دحرها وهذه المبادئ يمكن تعديلها .. بحيث يبقى تعدد الطبقات لتبقى حرية الفرد ..

وصرح عادل المانسترلى :

— كيف تتوهم أن تدحر القوة وتعدل المبادئ دون أن تقضى على الطبقة بحيث تصبح البلد كلها طبقة واحدة . طبقة الأغلبية . الطبقة العاملة .. وقال منير كأنه كان قد أعد الرد مقدما :

— اسمع يا صديقى ويا زميل الشلّة .. إني أكان أن انتهى إلى رأى قد لا يقنعك .. وهو أن المجتمع الإنسانى ينقسم فى صورة أخرى إلى طبقتين .. ليس ثلاث طبقات .. أى طبقة عية .. وطبقة متوسطة .. وطبقة فقيرة .. ينقسم إلى طبقتين فقط .. طبقة حاكمة .. وطبقة محكومة .. إن روسيا نفسها أصبحت اليوم تقوم على هذا التقسيم لا على التقسيم الماركسى .. طبقة حاكمة تشمل قيادة الحرب الحاكم .. وطبقة محكومة تشمل أغلبية الشعب السوفيتى .. وقد اختارت الطبقة الحاكمة فى روسيا أن تعتبر المجتمع كله طبقة واحدة كما كان يتسمى ماركس .. ولكن الطبقة الحاكمة تستطيع أيضا أن تبقى على تعدد الطبقات دون أن تخاف على نفسها .. أتدرى كيف ؟ .. بالدستور والقوانين التى تضعها .. إنها تستطيع أن تصع من القوانين ما يسحب من أهلك كل ما يملك .. ويسحب ملك أيضا حق إرث ما يملك أبوك .. قوانين المضارب .. وقوانين تحديد ملكية الأرض .. و .. و .. وفى الوقت نفسه تترك له ولكل ولكل الناس الحرية الطبقية .. أى حرية التصرف والعمل فى حدود القوانين بحيث يحتفظ الفرد بحريته فى أن يكون غنيا .. أو لا يستطيع إلا أن يكون متوسط الحال .. أو قد لا يستطيع مهما حاول إلا أن يكون فقيرا .. والعدالة الاجتماعية هى فرض نسبة العى .. ونسبة الحال المتوسط .. ونسبة الفقر .. معنى ألا يكون هناك فقر قاتل بل تتحمل الطبقة الحاكمة مسئولية الفقراء

كما تتحمل النقابات مسئولية العاطلين عن العمل .. وقد نسألى أيضا عن كيف تقوم وتشكل هذه الطبقة الحاكمة .. إنها تقوم بالحرية أيضا .. حرية الفرد حتى فى الوصول إلى الحكم .. وهى حرية يرسمها أيضا الدستور والقانون ..

وسكت منير وهو ينقل عينيه بين من حوله .. إنهم كلهم يبدو عليهم أنهم قرروا عدم الرد عليه .. وكأنهم يشسوا مه وقرروا مقاطعته . إلا عادل المانسترلى فلم يستطع الصمت وقال بصراحة :

— قل بصراحة إنك ضد الثورة .. وإنك مقتنع بالمجتمع السياسى الذى تمشيه .. وبما أنك قلت إنك تمنى أن تصبح مليونيرا فلعلك لم تتفضل بهاراتنا إلا لأنت تعلم أن بينا أبناء أصحاب ملايين .. دون أن تصدق أن هؤلاء الأبناء هم الذين يقودون الثورة على طبقتهم وعلى ملايينهم .. وقال منير بصوت عال كأنه ينهر المانسترلى :

— إنى لست ضد أى ثورة مادامت ثورة شعبية .. ولست ضد أى ثورة ماركسية حتى لو قامت فى مصر .. ولكنى أحفظ بحرية رأى نجاه أو داخل أى ثورة .. سواء أتاحت لى هذه الثورة حق الاحتفاظ بحريتى أو قبضت على وحكمت على بالإعدام .. أى قبضت على حريتى وأعدمته ..

وتكلم كالم روزنامى بعد أن تعمد عدم الاشتراك فى المناقشات وقال : — إنى اعتبر الصديق منير من الأحرار .. ونحن يجب أن نتحالف مع الأحرار .. ومهما اختلفنا فهناك دائما الهدف الأكبر الذى يرتفع فوق كل خلاف .. إنى لا أسأل نفسى إذا كان منير يمكن أن يكون ماركسيا أو رأسماليا فإنى مكتف بثقتى فى أنه حر .. وأكثر من ذلك فإنى معتر وهوور بصداقته وأمنى وجوده معنا كلما اجتمعت الشلّة ..

وبلباقة بدأ كمال ينقل المناقشة إلى موضوع آخر لا يحتاج إلى رأى منير .. وجلس صامتا عارفا في حوزته حتى لا يهيم بتتبع المناقشة .. إنه حائر من كل ما سمعه وحتى مع كل ما قاله هو .. إنه حائر مع نفسه وليس فقط حائرا مع الآخرين ..

وانتهى الاجتماع الذى تخلله تقديم الشاى فى معدات فخمة ومن خلال اتباع تقاليد على مظاهر الأرستقراطية يقوم بها كثير من الخدم الذين يرتدون أزياء رسمية .. حتى إن أغلب أفراد الشلة كانوا يتمتعون أنفسهم بالحلقة فى معدات الشاى المصنوعة من الفضة الخالصة أكثر مما يتمتعون أنفسهم بشرب الشاى ..

وقال كمال الروزنامجى مع ابتسامته التى يرسم بها دائما شخصيته وزعامته :

— نجتمع بعد غد .. هنا فى البيت ..

وقال تحليل ضاحكا :

— تقصد القصر ..

وقال كمال وهو يضحك أيضا :

— إننا نسبق الثورة ونعتبر القصر بيتنا .. بيت الشعب .. (ثم التفت

إلى منير مستطردا) .. سنراك بعد غد يا منير ..

وقال منير ساهما :

— بإذن الله ..

وعلت شفتى كمال ابتسامة ساخرة تحمل إحساسه بالإشفاق على

منير .. ما دخل « إذن الله » فى أن يأتى إلى الاجتماع .. إنه إدنه لنفسه ..

إذن شخصى ..

وشرح منير وهو يتعمد كادخل ألا ينظر حوله فى أرساء القصر .. إن هذه الفخامة تثير بأسه من الوصول إلى دلير .. وخرج إلى الشارع واستأذن من باقى أفراد الشلة الذين خرجوا معه .. وسار وحده سارحا فى حوزته .. سار طويلا دون أن يحس بثقل قدميه حتى وصل إلى حى الحسين والتقى بصديقه محمد عبد الله عبد اللطيف فى محل بيع الأقمشة . إنه كلما أحس بالمعاناة لجأ إلى صديقه عبد الله ليرتاح .. ليرتاح بمجرد الجلوس فى هذا الشارع الضيق المزدحم بهذا النوع المريح من الناس ..

ولم يحاول أن يعيد على عبد الله شيئا مما رآه أو سمعه فى قصر الروزنامجى .. ولا أن يشكو له مما يحبه كعادته عندما يتكلم لا فى انتظار رأى صديقه إنما فقط ليزفر أنفاسه المتجمعة فى صدره ككتل السحاب الثقيل .. وجلس صامتا تاركا عبد الله متفرغا لاستقبال الزبائن إلى أن بدأ موعد انتهاء العمل يقترب ويقتل الدكان .. فقال له عبد الله :

— تعال الليلة نزور صديقنا الأستاذ منصور أحمدين ..

واعترض منير وهو يتنسم .. إن الأستاذ منصور يمثل الإخوان المسلمين .. وهو لا يستطيع أن يتنقل مباشرة من اجتماع مع الماركسيين إلى اجتماع مع الإخوان .. على الأقل يجب أن يعيد بين الاجتماعين حتى لا يحمل عقله أكثر مما يحتمل ..

* * *

وجاء موعد اجتماع الشلة فى قصر الروزنامجى .. إنه لا يريد أن يذهب إلى هذا الاجتماع .. إنه يتعب فى كل مرة يجتمع فيها بالشلة ويحس أنهم يحاولون

إلقاء قيود ثقيلة على فكره كأنهم يحاولون القبض عليه وتقييده ليعيش حياته في سجنهم .. سجن الماركسية ..

ولكنه يريد أن يعرف متى ستعود دلير .. وقد يعرف من خلال كلمات أختها كمال .. فيجب أن يذهب ..

وجلس صامتا مستمعا طوال الاجتماع إلى أن قال كمال ضاحكا قبل أن ينصرفوا جميعا :

— سنلتقى مساء الخميس ولكن في مقهى الأسبوطي .. فقد وصلتني برقية بأن العائلة تستهل غدا .. وستستولى على بيت الشعب وتعود به ليكون قسرا للروزنامية ..

وخرج منير يسير طويلا دون أن يحس بنقل قدميه وهو يعاني الحيرة من جديد ..

إن دلير ستعود ..

هل يتصل بها في التليفون في الساعة الثامنة صباحا كما اتفقا 19 ولكن من أذراه أنها لا تزال تذكر ما اتفقا عليه .. بل من أذراه أنها لا تزال تحس به إحساسها الذي كان يجمعهما في مهة شاطئ ميامي كل صباح .. وربما كان كل إحساسها هو إحساس المتفرج .. تتفرج عليه .. تتفرج على الشبان الفقراء .. وقد انتهى العرض وخرجت المتفرجة من حياته .. ولم تحاول أن ترسل له كلمة واحدة في خطاب كما وعدته ..

ولكن لماذا يستسلم للناس .. 19

لماذا لا يرفض الناس ويعيش كل دوافعه وأمانيه .. دوافع الحب الأول في حياته .. حب دلير ..؟

إن الحيرة ترققه .. ويسير في الشارع كأنه يعوص في مستنقع عميق يكاد

يعرقه ..

٩٢

(٦)

كان قد مضى يومان على علمه بوصول دلير . وترك منير فراشه في صباح اليوم التالي وهو مصمم على أن يحادثها في التليفون .. سواء كانت تنتظره .. وسواء كانت لا تزال تذكره أو نسيتها .. يجب أن يجد الجواب عن الأسئلة التي تثيره وتعصف داخل رأسه ..

وجرى على السلم وهو لا يزال مرتديا البيجاما التي ينام بها والشبشب في قدميه .. ولكنه توقف قبل أن يخرج إلى الشارع .. إنه في طريقه ليحدث دلير ولا يصح أن يحادثها بالبيجاما . ولو كان يحادثها في التليفون .. فعاد وصعد السلم ودخل البيت وأسرع إلى الحمام وغسل وجهه وصَفَّ شعره ثم لبس قميصا ونظولنا ووضع قدميه في حذاء .. وجرى إلى دكان البقال الواقع عند ناصية الشارع .. ونظر في الساعة .. إنها الثامنة وخمس دقائق .. وهي كما وعدته تنتظر حديثه من الساعة الثامنة .. من الأفضل له أن يتأخر عليها هذه الدقائق الخمس حتى لا يبدو كأنه متلهف عليها .. هذا إذا كانت تنتظره ..

وحيا البقال بحماسة أشد مما تعود أن يحيه بها .. ثم أمسك بالتليفون وهو ينظر إليه كأنه يحتل له عى أنه سيرتكب وزرا .. وابتعد بالتليفون قنر ما استطاع عن موقف الزبائن .. وأدار الرقم الذي يحفظه عن ظهر قلب من كثرة ما رده بينه وبين نفسه ..

وسمع صوتها .. وقال دون أن يردد اسمها :

— الحمد لله على السلامة ..

وقالت دون أن تردد اسمه كأنها هي أيضا تعرفه بمجرد سماع صوته :

— أئين كنت ؟ .. لماذا لم تحدث أمس ؟ ..

قال في صوت هامس حتى لا يسمعه البقال :

— كنت حائرا متريدا .. فقد غبت طويلا ..

قالت في صوت رقيق كأنها تعتذر له :

— عائلتي عابت لي ..

قال في لوم :

— كنت أنتظر منك خطابا ..

قالت وكأنها تعتذر :

— كنت أنتظر دائما يوم أن تحدثني في التليفون ..

قال وكأنه يتنهد :

— إن الخطابات لقاءات .. وقد كنت في حاجة إلى لقاءك ..

قالت وهي تضحك صبحكة خافتة حلوة :

— كان سيكون لقاء لا يفهم أحدنا الآخر فيه .. فأنا لا أكتب إلا

بالفرنسية وأعرف أنك لا تقرأها ..

قال في صوته الهامس :

— أعرف أنك لا تكتبين إلا الفرنسية .. وكنت قد قررت أن أستمع

بأختي بشية لأتلقى بك معها فهي تحيد الفرنسية ..

وقالت دليز في انطلاقي فرح :

— هل حدثتها عنى ؟ ..

قال وهو يلتفت حوله خشية أن يكون البقال أو أحد من الزبائن يستمع

إلى حديثه .. قال في عجلة :

— ستحدث طويلا عندما نلتقى .. متى ؟

قالت في بساطة :

— حدثني غدا في نفس الموعد .. سأكون في انتظارك ..

قال وكأنه لا يستطيع أن يقاوم :

— كنت أنتظر أن نلتقى اليوم ..

قالت في نفس البساطة :

— لا أستطيع اليوم .. حدثني غدا ..

وقال بسرعة وهو يعود ويلتفت حوله خوفا من البقال وزبائنه :

— إلى الغد ..

ووضع سماعة التليفون قبل أن يسمع ردها وترك للبقال قرشا صاغا كأنه

يعوضه عن استعمال تليفونه في ارتكاب الوزر .. ولكن البقال ناداه ورده له

نصف القرش .. فقد كانت المكالمة لا تكلفه أكثر من خمسة مليمات ..

وسار وهو يطلق نفسه لسعادته .. إنها كانت تنتظره .. لم تنس .. ولم يكن

بالنسبة لها مجرد فرجة تنفج بها على الشبان الفقراء .. ولكنه ما لبث أن بدأ

يلوم نفسه .. كان لا يجب أن يطلب منها اللقاء ويبتظر إلى أن تطلبه هي كما

سبق وعودها منذ التقيا على شاطئ ميامي في الإسكندرية ..

ومضى يومه وليله وهو لا يستطيع أن يستأذن دليز بينه وبين نفسه لينشغل

عنها بأي شيء آخر .. وقد ذهب إلى كلية الحقوق ولم يستطع أى شيء فيها

أن يشغله عنها .. ويحاول أن ينشغل عنها بالقراءة فلا يكاد يفتح كتابا حتى

تطحن صورتها على الصفحات فلا يستطيع أن يرى ما يقرأه .. وفي صباح

اليوم التالي خرج من البيت في الساعة السابعة .. إنه لن يتحدث من تليفون

البقال حتى لا يثير شكوكه .. وركب الترام إلى الحيزة .. وقرىبا من

الجامعة كان هناك مكتب يريد به تليفون للجامعة .. وهو تليفون له حاجز رجائى يحول دون سماع ما يجرى عليه من أحاديث .. إنه أكثر أمتنا وهو يتحدثها منه ..

وكانت فى انتظاره .. وكان حديثنا أكثر انطلاقا .. وهى التى حددت موعد لقائهما .. فى الساعة مساء فى شارع الجلالة بالزمالك .. إنه شارع على النيل قريب من قصر المورنغانى ولكن القصر لا يقع فيه .. وقد كان معروفا أنه أهدأ شارع بالقاهرة وكله مظلل بالأشجار .. كان شارع فى جنة أولاد النوات .. وحامت إليه وهو فى انتظارها من بعيد تسير بخطواتها الرشيفة وقوامها يهتز مع خطواتها كأنه يعزف لحنا هادئا رائعا .. واحتضنت كلتا يديه واحتضن كلتا يديها .. وعيناه فى عينيها كأن كل عين ألفت نفسها فى الأخرى لتنام فيها .. وكل منهما على شفثيه ابتسامة صامتة هائلة كأنها تقبل الأخرى .. وسارا ساعة أو ربما كانتا ساعتين فهما لا يحسان بحساب الوقت .. وكان كل الساعات توقفت منذ لحظة لقائهما ولم يعد لساعات الزمن حسابا .. إلى أن تنبته دليبر إلى أنها يجب أن تعود ..

وبدا حبهما يعيش دنيا عجيبة .. دنيا غريبة على كل حب .. فهو يتصل بها كل صباح فى التليفون .. بلا وعد فحديث تليفون الصباح كان وعدا مستمرا بنفسه .. وفى كل مرة يبحث عن تليفون جديد حتى لا يثير شكوك من عندهم تليفون .. وغالبا ما يجدها فى انتظاره .. ولكن أحيانا لا تكون هى التى ترد عليه .. فيلقى الساعة أمام أى صوت آخر يرد عليه .. قد تكون قد قضت ليلة طويلة ولم تستطع أن تصحو فى مواعده .. أو ربما سبقها إلى التليفون خدام استيقظ فجأة .. وكانا يلتقيان أحيانا يوما بعد يوم .. ثم قد لا يلتقيان إلا بعد أسبوع .. وقد يعيبا عن بعضهما أسبوعين .. واللقاء

دائما يتوقف على إرادة دليبر والظروف التى تحيط بها .. يلتقيان دائما فى شارع الجلالة .. إن جمال الشارع الهادئ المظلل المظلل على النيل أصبح يشعرهما بالحرمان .. الحرمان من استكمال لقاءات الحب .. وهو لا يملك سيارة تجمعهما فى لقاء أكثر انطلاقا .. وليس لديه بيت يمكن أن يتستر داخله حبه .. إلى أن فوجئ مرة بدليبر تأتى إليه وهى تقود سيارة .. وقالت ضاحكة وهى تفتح له الباب ليركب بجانبها :

— المروض ألا أقود السيارة إلا والسائق بجانبى .. ولكنى استطعت اليوم أن أهرب من السائق ..

وانطلقت بالسيارة إلى شارع الهرم وهو لا يحس بالسعادة التى يحس بها عندما يلتقى بها .. يحس أنه التقى بالعتاة الغنية التى تملك سيارة فى حين أنه فقير لا يملك مثلها .. وهو يكره أن يحس بها فتاة عيبة .. إن كل حبه قائم على تجاهل الموارق بينهما .. حب يرتفع فوق الطبقات .. ولكن هذه السيارة تأخذ من طبقة لتضعه فى طبقتها .. طبقة أولاد النوات .. إلى أن أوقفت السيارة فى جانب من رمال الصحراء .. والحديث لا ينتهى وإن كان يشوبه فى هذه المرة الاعتقال .. ورغم ذلك خطر على باله أن يقبلها .. إنه يجب أن يبدأ من ناحيته بالوصول إلى القبلية .. كما بدأ يقبلته الوحيدة التى سبق أن جمعتهما عندما جاءت إليه فى عشته الخشبية التى كانت فى صحراء سيدى بشر أيام لقائهما فى ميامى .. وقد بدأ فعلا .. واقترب بشفثه من شفثها .. واستسلمت .. وتعهد كلامها أن تستمر القبلية طويلا .. ولكنه لم يحس بالهيام والنوبان الذى أحس بهما فى القبلية السابقة .. ربما كان السبب أنه فى سيارتها وأيسر فى عشته ولا فى الصحراء الذى كان هو الذى اختارها وكان يجبرها أرضه ..

وفي يوم آخر قالت له دلبر وكأنها لا تزال تبحث عن مكان آخر يلتقيان .
فيه غير شارع الجبلانية :

— لماذا لا تعرفني بأختك بثينة .. ما دامت تدرس الفرنسية فنستطيع
أن ندرس معا .. ثم إلى أحب أن أعرف أختك ..
وقال منير ضاحكا :

— فكرة .. إن بثينة هي أذكى أخواتي البنات وأقربهن إلى .. وهي تعلم
أني في حالة حب وكثيرا ما تصب على الترفقة والسخرية .. ولكني أعيظها
بألا أحدثها علك .. إنها لا تعرف حتى الآن شيئا عنا .. وستمرح وتسعد
عندما تعرف كل شيء .. وربما أحسنت أنها انتصرت على .. ولكن كيف
تلتقيان ؟ ..

وقالت دلبر وذكاؤها يرقى في عينيها كأنها تعودت أن تقدر كل شيء :
— إلى أفضل أن تدعوني لزيارتها قبل أن أدعوها لزيارتي ..
إنها تذكره بيوم أن طلبت منه أن تزوره في عشته الخشبية بعد أن أفلس
وأصبح عاجزا عي أن يلتقي بها في كازينو سان استفانو .. ربما كانت تريد
أيامها أن تقنعه بأن البنت الغنية يمكن أن تزور الفقير الذي نغبه في بيته ..
وإن كانت يومها قالت له إنها جاءت إليه ليري أن بنت الذوات يمكن أن
تكون ست بيت تطبخ وتغسل وتمسح .. كما طبخت له الطعام يومها .. ربما
كانت تريد الآن أن تقنعه بأنها تستطيع أن تنزل إلى مستوى عائلته كلها
وتزوره في بيت العائلة وتصادق أخته ..

وكانت عائلة منير تعلم أنه أصبح من بين أصدقائه كمال ابن الروزباجي
باشا .. فهو يتردد عليه كثيرا ويتنظره بيسارته أمام باب العمارة .. وقد صعد
إلى الشقة مرتين أو ثلاثا .. ولكن العائلة كانت تتركه منفردا بمنير في حجراته

الخاصة ولم يلتق بأخواته السات ولا بأمه أو أبيه .. وأبوه نفسه لم تكن من
عاداته أن يسأله كثيرا عن أبناء الباشوات ..
وعاد منير إلى البيت واختل بأخته بثينة وقال لها في لهجة تهتز حتى يكاد
يهمس بها :

— هناك فتاة تريد أن تتعرف بك ..

وقالت بثينة في دهشة ساخرة :

— من هذه التي قنت في ؟ ..

وقال منير :

— إنها أخت صديقي كمال الروزباجي ..

وقالت أخته وهي تنظر إليه نظرة مداعبة خبيثة :

— هل هي ..

وبترت سؤالها وهي واثقة أنه سيفهم ما تسأل عنه .. وقال منير وهو يدير
لها ظهره حتى لا ترى ارتعاشته :

— إنها هي ..

وصاحت بثينة ضاحكة كأنها تزعرد :

— الحمد لله .. عرفت أخيرا من هي .. الفتاة التي لطشت عقلك منذ
مدة .. أين أراها ؟

قال منير وهو يتنهد متحملا مداعبة أخته :

— إنها مستعدة أن تأتي لزيارتك إذا دعوتها .. وأعتقد أنها يكفيا أن
تلتقي بها وحدها كأنكما أنتم الاثنين تدرسان الفرنسية .. ولا داعي للقاءها
ببقي أخواتي ..

قالها كأنه لا يريد أن يعامر بكل أخواته البنات بتقدمهن إلى دلبر .

وقالت بثينة ضاحكة :

— ما دامت قد جاءت إلى البيت فيجب أن يستقبلها كل أحوالي ..
وسأنتقم معهم على طريقة هذا الاستقبال ..
وسكنت منير مستسلما لأخته ..

وتحدد موعد استقبال دلبر .. وانقلب البيت كله استعدادا لاستقبالها ..
استقبال ابنة الباشا .. كأن العائلة تعد لإقامة فرح رفاف ابنها مير ..
وجاءت دلبر تحمل هدية .. صينية فضة محملة بملوى المارون جلاسيه ..
واستقبلتها أخوات مير الثلاث وكل منهن قد غالت في انتقاء ثوبها وإعداد
زنتها وإن كانت بثينة أقلهن مغالة .. ولم تشترك الأم معهم في الاستقبال
واكتفت بأن أطلت على دلبر من خلال فتحة الباب .. والأب طبعا تعمد ألا
يكون في البيت ..

وكان الحديث مقتعلا .. وحتى الفرحة باستقبال الضيفة مقتعلة .. إيس
لا يستطيع تجاهل أن دلبر ابنة باشا ومن بنات الملوات .. وأحيانا يستسلم
لها وأحيانا يكن كأنهن يتحدنها .. إل الغلبة لس في حاجة إلى نفاق
الأغنياء .. ثم انسحبت الأختان كما هو متفق علي وتركن دلبر مع بثينة ومير ..
وكانت بثينة تفرح من الفرقة أحيانا معتدرة بأى عنر حتى تترك أحمائها وحده
مع حبسته .. ثم تعود وتحاول رفع الكلفة بينها وبين دلبر .. ولكن الكلفة لم
ترفع .. حتى بعد أن انتهت هذه الزيارة ولست بثينة دعوة دلبر لزيارتها في قصرها ..
قصر الروزنامي .. ظلت الكلفة قائمة بينهما .. بين ابنة الباشا وابنة
الأندى ..

ورغم كل ذلك استمرت حكاية مير مستمرة مع دلبر .. هذه الحكاية
الغريبة .. يتصل بها كل صباح في التلفون وقد تمر أيام لا يتصل بها ..

ويستقبل كل يوم أو كل أسبوع أو كل أسبوعين .. ويلتقيان في شارع
الحيلاية أو في سيارة دلبر عندما تستطيع أن تهرب بها من السائق .. أو في
بيت مير بحجة زيارة أخته بثينة .. وهو غالبا لقاء محروم لا يحقق شيئا من
أمان الحب .. وربما كان ما وصل إليه مير بإحساسه بدلبر هو أنها رغم كل
ما تعطيه فهي مرتبطة ارتباطا كاملا بعائلتها .. بطبقتها .. إن الحب لا يصل
بها إلى حد المغامرة والتضحية بالطبقة التي تعيش فيها .. إنها كأختها ..
يؤمن بالماركسية ويعمل على فرض الماركسية على البلد كله ويعلم ثورته على
الطبقة التي ينتمي إليها .. ورغم ذلك يمشي هذه الطبقة بكل ما فيها
ولا يهجرها .. وعلى كل حال فإن منير أيضا ليس مغامرا ولا مجازفا ولا يفكر
في تخريض دلبر على المغامرة والمجازفة .. ربما كان مثلها يعتمد على طبيعة
الفرجة على الحياة حتى لو كانت الفرجة قد انتهت بها إلى الحب .. فها هي
حسبا مستسلمان للفرجة على الحياة .. وكان منير أحيانا يثور على نفسه ..

كيف يكون بينه وبين أخت صديقه كل هذا الحب ولا يصارحه به .. حتى
لا يكون محرد لهر يسرق شرف صديقه .. لماذا لا يصارحه بحبه لأخته
وليكن ما يكون .. ولكن لعل الوقت لم يحن بعد هذه المصارحة ..

وكان مير خلال هذه السنوات قد عاد إلى تعود استئذان دلبر في أن يتغيب
عنها بمكره وإحساسه حتى يتفرغ للدروس الجامعية والقراءة خارج
ما تقدمه له الجامعة ..

وكان يقرأ كثيرا .. وقد مرت به فترة كان يبحث فيها عن طريق يحقق
الثداية الاجتماعية عبر الماركسية .. وتعرف في هذه الفترة بصديق جديد كان
معروفا في الكلية بسعة إطلاعه وتوسعه في القراءة كما كان دائما من أوائل
الطلبة : إنه الصديق حلمي محفوظ .. وقد دله الصديق حلمي على كاتب

إنجليزية لم يكن قد قرأ له . وهو برنارد شو .. إنه كاتب سهل .. يعرض كل ما يدور في العالم من أفكار بأسلوب يفهمه أى قارئ دون أن يحير في تعبيرات علمية لا يفهمها إلا المتخصصون .. وقد قرأ له كتابا صغيرا يضم بحثا عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية .. كأنه يحكى حكاية مسلية .. وقد آدم برنارد شو .. وهو كاتب يدعو إلى حركة فكرية جديدة ظهرت في إنجلترا تحمل اسم « الفيبان » .. إنها حركة متحيرة لطبقة العمال ولكنها تطالب بثورة تلغى باقى الطبقات .. ولكنها تدعو إلى طريق معترف به يصل به العمال إلى الحكم بمنافسة بقية الطبقات .. طريق في حدود الدستور والقوانين .. وهي الدعوة التى تكون حرب العمال البيطاني على أساسها .. ووصل الحزب إلى الحكم فعلا ..

وقد ظل عمرا طويلا مقتنعا بنظرية الفيبان إلى حد الإيمان .. إلا أنه صدم فيها عندما مرت السنوات وأصبح حزب العمال أضعف من النقابات العمالية .. وأصبحت النقابات هى التى تحكم العمال لا الحزب .. وانتقابات يبلغ من تحيزها لأهدافها المحدودة أنها لا تستطيع وليس من صالح البلد أن تتولى الحكم العام ..

ومع استمراره طويلا في هذه القراءات تحول فجأة وكأنه تذكر سؤالا هاما كان قد واجه به نفسه ثم نسيه .. لماذا هو مسلم ؟

إنه مسلم بحكم الوراثة .. ورث إسلامه عن أبيه وعن جده وعن جد جده .. ورغم أنه قرأ القرآن وكان حريصا على أن يؤدى فروض الإسلام ليؤكد إسلامه وإيمانه إلا أنه كان كابن صاحب الأرض الذى ورث الأرض عن أبيه وعاش حريصا على رعايتها وتنمية ارتباطه بها ..

لا .. يجب أن يتحدث كآل الرومانجي بعد المناقشة التى دارت بينهما

ويشمت لنفسه أنه مسلم لأنه اختار الإسلام . والاختيار لا يتم إلا بالاختراع .. والاختراع بالاختيار لا يتم إلا بعد استعراض وفهم كل الأديان .. بل وأيضا دراسة وفهم صحيح الإلحاد .. ووجد نفسه يدفع إلى الحصول على الإنجيل والتوراة .. ويقرأ .. ويحاول أن يفهم .. بل وجد نفسه يكرر نارة الكنائس .. وأيضا كنيس اليهود .. ويقدم على تساؤلات تبنى سادجة يوجهها إلى القسس الذين يقوم على التعرف إليهم بكل يساطة .. وهو يزور الكنائس ويلقى التساؤلات كمتعرج لا يدري مدى تأثير الفرجة على اقتناعه .. ولكن اقتناعه لا يبدأ من الصفر .. فهو اقتناع مستمر في ارتباطه بالإسلام . ووجد نفسه يقع بفكره وخياله في حيرة عنيفة .. حيرة في فهم الدنيا وفهم الآخرة .. وحيرة بين الواقعية والخيال .. وحيرة بين إنقاذ النفس والتضحية بها .. إن الأديان كلها لم تصل إلى الإنسان لتدله على حياته في الآخرة بل لتدله أولا على حياته في الدنيا .. كيف يدخل الجنة بعد أن يكون سعيدا شعبان في الدنيا ..

ووجد نفسه يعود إلى القرآن الذى كان يعتقد أنه عاش فيه منذ ولد وقرأ وحفظ منه الكثير .. إنه يعود ليقرأه بإحساس جديد .. إنه يقرأ ليفهم حتى يستكمل اقتناعه .. وقرأه كله ثم بدأ يستعين بكتب التفسير ويقرأ القرآن مرة ثانية .. واحتار مع كتب التفسير وبخس أحيانا بالعجز في فهمها .. ثم قرر أن يتولى هو التفسير لنفسه وبدأ يقرأ القرآن مرة ثالثة .. إلى أن أحس بالراحة .. أحس بأنه استكمل اقتناعه ..

إنه الآن مسلم بالاختيار .. لا بمجرد الوراثة .

مؤمن باقتناعه .. لا باستسلامه ..

وقد استغرقت هذه الفترة شهورا طويلة من عمره تعدت العام .. ولم يكن

يتباهى بما وصل إليه من معلومات وفهم للإسلام .. كما أنه لم يتعب في مظاهر إسلامه بالإفراط والمبالاة فيها .. ظل كما هو وإن كانت آرائه في الدين تضج أحيانا في أحاديثه الخاصة .. حتى عندما كان يتحدث في لقاءاته مع حبيته دلبر بدأ بلا قصد يفسر لها أحكام الإسلام فيما تقوم عليه حياتهما .. وقد قالت له مرة إن راهبات المدرسة الفرنسية التي تتردد عليها يجبرنها على أن تدخل الكنيسة مع بقية الطالبات كل صباح .. وأجابه في بساطة :

— تفرجى على ما يدور في الكنيسة ..

وقالت دلبر في سخط :

— إني لا أطيق هذه الفرجة .. إني لست مسيحية .. إني مسلمة .. وقال وهو يتسمه ابتسامة هادئة :

— إنك تدخلين الكنيسة كما تدخلين الفصل الدراسي مطبوعة لنظم المدرسة .. وأنا أعلم أنك لا تطيقين كثيرا من الفصول الدراسية والعلوم التي تنقى عليك فيها .. لأنها لا تهلك ولست في حاجة إليها .. أما إذا أحسست بالاهتمام والحيوية فأنت تلجئين إلى معلمة تنقى عليك دروسا خصوصية .. كذلك إذا أحسست بأن الفرجة على ما يدور داخل الكنيسة بدأ يحرك مع إسلامك فالجئى إلى معلم إسلام .. إن الحيوية التي تؤدي إليها الفرجة هي الطريق إلى تقوية إيمانك ..

وقد تكون دلبر قد فهمته أو لم تفهمه ولكنها لم تتعرض هذه الحيوية أبدا .. فكل حياتها لا تعتمد على الإسلام رغم كل المظاهر الإسلامية التي تحيط بها .. كما أنها لا تحس أبدا بحاجتها إلى المسيحية .. إن حياتها .. حياة أولاد النوات .. تغنيها عن كل الأديان ..

وقد رفعت هذه العترة من قوة ارتباط مير بصديقه محمد عبد الله عبد

"اللطيف .. وراود إحساسه بالراحة وهو جالس إليه .. وعبد الله مسلم كامل .. وقيم كل حياته على الإسلام .. وراحته بالإسلام يغنيه عن فهمه ودراسته والتعمق في تفاصيله .. إن قوة الإسلام كلها تقوم على هذا الإيمان ولم يتعرض المسلمون للفرقة والتمزق إلا وهم يحاولون الفهم والتفسير .. لذلك لم يكن منير يحاول أن يشغل صديقه عبد الله بالتصورات التي وصل إليها .. ولا يعرض عليه قراءاته .. كأنه يخاف عليه من تعكير صفو قوة إيمانه .. يكفى أنه مؤمن .. ولكنه كان قد بدأ يحس بقوة أكبر وهو يحدث صديقهما الأستاذ منصور أحمدين عضو جماعة الإخوان المسلمين .. ويدخل معه في مناقشات واسعة كلما التقى به .. ولم يكن منير في مناقشاته يحاول أن يفرض رأيه ولكنه كان دائما كأنه يريد أن يستقر على رأى .. وقد قال له مرة بصراحة :

— لا أعتقد أن جماعة الإخوان المسلمين سيؤدي كتابها إلى تحقيق أهدافها ..

وسأله الأستاذ منصور وهو في دهشة من صراحته :

— كيف ترى هذا الكتاب وكيف تصور هذه الأهداف ؟

وقال منير في هدوء وفتح فمعة ليست معارضة ولكنها هجعة من يريد أن يفهم :

— إن الإخوان يحصرون كتابهم في الدعوة للإسلام .. وهي دعوة عامة ليست قاصرة على جماعة الإخوان وحدهم .. بل إن كل الحكومات القائمة والمثد عاروق نفسه يساهم في الدعوة للإسلام .. ويرير حكمه ويعطى فسوقه بالدعوة للإسلام .. ويستند على قوة الأهر ويتحكم في وزارة الأوقاف ويديم حوله مشايخ الطرق الصوفية .. فإذا أقعد وثار عليه الإخوان المسلمون

رد عليهم بأداء صلاة الجمعة في احتفال كبير .. كأنه يرد عليهم قائلا ..
إذا كنتم تريدون الإسلام فهذا هو الإسلام .. ويخرج من مسجد الحسين
ليقتضى ليلته في ماحور ملهى الأوبرج .. فكيف يستطيع الإخوان السيطرة
على الملك فاروق وعلى كل حكوماته بالاكتفاء بنشر الدعوة ..
وقال الأستاذ منصور في هتافه :

— إن الدعوة تجمع قوة المسلمين ليفرضوا إرادتهم على الملك
وحكوماته ..

وقال منير وهو ساهم كأنه يستعيد ما احتزنه من آراء :

— إن الإسلام ليس مجرد دعوة .. ولكن الإسلام دين واقعي يشمل كل
ما يواجهه الإنسان مهما تطور إلى أن يجل يوم الدين .. والإسلام يدعو إلى
مواجهة هذا الواقع مواجهة فعلية .. أى يفرض المسلمون إرادتهم المستمدة
من الشريعة حتى في أدق التفاصيل .. أى إذا شقت الحكومة مثلا شارعاً في
الزمالك أو أقامت قصراً من قصور الأمراء بينا أحياء أغلبية المسلمين حواري
قنطرة وأهلها يعيشون في العراء أو في عشش .. تحرك الإسلام .. ورفض شق
الشارع أو إقامة هذا القصر حتى يحقق للمسلمين الواقع الذى يفرضه
الإسلام .. فهل يستطيع الإخوان أن يحققوا ذلك ..

وقال الأستاذ منصور وهو ينظر إلى منير كأنه يشفق عليه :

— إن الإخوان يواجهون الواقع في أدق تفاصيله .. يعلنون حكم
الشريعة على هذا الواقع ..

وقاطعه منير قائلاً :

— لا يكفى إعلان الرأى في محيط الدعوة .. يجب أن يكون الإخوان
قوة تنفيذية في مواجهة الواقع ..

وقال الأستاذ منصور مبتسماً :

— ماذا تقصد بهذه القوة التنفيذية ؟ ..

وقال منير متحمساً :

— أى لا يكون الإخوان المسلمون جماعة بل يكونون حزباً سياسياً يصل
بأغلبيته الشعبية إلى الحكم ويتولى تطبيق الواقع الشرعى .. الحزب الإسلامى
المصرى .. وقد بدأ السى محمد عليه السلام وهو صاحب دعوة إلى أن أهله الله
فأصبح صاحب قوة تنفيذية تحقق تعاليم الدعوة .. أى أصبح بلعة العصر
حزباً سياسياً يفرضه الإسلام ..

وقال الأستاذ منصور بصوت يؤكد اقتناعه :

— إن دعوة الإخوان ستصل إلى أن يكون كل الحكام من المؤمنين
بشريعة الإسلام .. ولكن أفراد الجماعة لا يتولون الحكم حتى لا يشغلهم
عن مطالب الدعوة ..

وقال منير ساخراً :

— أنت تعلم أنى من المؤمنين ولكتم لو عرصتم على الاشتراك في وزارة
إسلامية .. فلن أقبل إلا إذا كانت وزارة إخوان ورئيسها حسن البنا .. ثم
ماذا حدث وأنتم لا تسعون إلى تحمل المسؤولية التنفيذية ؟ .. لقد تعددت
من حولكم الجماعات الإسلامية .. وانقسمت في داخلكم إلى جماعات
سرية تمارس التطبيق التنفيذى لشعر الدعوة .. ومن أريد منكم أن يشترك في
الحكم فمن السهل عليه أن يستقيل من جماعتكم ويختلف معكم .. وكل
هذا لأنكم لستم واقعين .. تعملون مسئولية الواقع الذى يحقق تعاليم
الإسلام .. ولو كنتم واقعين داخل الواقع القائم لأعدتم الجماعة حزباً سياسياً
إسلامياً ..

وقال الأستاذ وهو أكثر حسما وجدية :

— لا يمكن أن نكون حزبا سياسيا لأننا لا نعترف بالواقع الذى تقوم عليه الأحزاب هذه الأيام .. لا نعترف بواقع نظام الحكم .. ولا بالدستور .. ولا بالقوانين السياسية .. ونريد أن نغير ونعدل كل ذلك .. وبعد ذلك قد نبدأ فى تحمل المسئولية التنفيذية كما نقول ..

وقال منير :

— أنا .. وربما كل الشباب .. يتحسون هذا التغيير والتعديل .. ولكن كيف ؟ ..

وقال الأستاذ منصور أحمدين :

— كن معنا ..

وقد ظل مير محتفظا بصداقته للأستاذ منصور أحمدين من خلال صداقته للصديق الدائم محمد عبد الله عبد اللطيف .. ولكنه لم يحاول أبدا ولم يفكر أبدا فى الانضمام إلى جماعة الإخوان أو حتى مجرد الانسحاب إليهم .. إن أقوى ما يحتفظ به هو حرته .. والارتفاع بنفسه فوق كل الجماعات .. ولم يكن الأستاذ منصور يلح عليه للانضمام بعد أن سبق وعرض عليه .. ولكنه كان يكتفى بهذه المناقشات معه ويدعوه أحيانا لخصور اجتماعات عامة فى مقر الجماعة لسمعته وهو يلقي خطابا ..

وفى نفس الوقت كانت صداقته بكمال الرومانجي مستمرة .. إنه ليس صديقا لمجرد أنه شقيق حبيبه دلبر .. إنه فى أحاسيسه يكاد يبعد بين الأخ واخته .. إن دلبر بالنسبة له شيء وكال شيء آخر .. حتى يكاد يتصور أن كلا منهما يعيش علما آخر .. ومناقشاته مع كال هى فرجة يتمتع بها ولا تنهى متعته بها .. الفرحة على آرائه وكيف يفكر بين فكر باق البشر ..

وهو لا يجتمع بالشله إلا نادرا .. لا يحب أن ينتهى إليها أو بحسب كأنه منها .. ولكن اجتماعاته الدائمة مع كال وحده .. اجتماعات قد تستمر دقائق وقد تمتد ساعات .. وكال يطلب أكثر مما يطلب الصديق المذكور مصور عضو الإخوان .. لقد طلب منه مرة أن يكتب منشورا ستورعه الشلة قائلا :

— إنك لست من الشلة .. ولكنك أقدر من يفهم مبادئها وآراءها وأهدافها .. وليس بين الشلة من يستطيع أن يكتب على مستوى محترم .. كل المنشورات التى أصدرناها كانت مكتوبة بأسلوب ركبك تافه .. وأنا أعرف كما سمعت أنك تهوى الأدب ولك أسلوب كأنه فى مستوى أسلوب كاتب كبير .. فاكذب لنا هذا المنشور ..

واعتذر منير قائلا :

— إنى لا أستطيع أن أكتب إلا آرائى .. وآراء الشلة رغم أنى أعرفها إلا أنها ليست آرائى .. وذلك لا أستطيع أن أكتبها وأؤلفها حقها .. لا رفضا ولكن عجزا عن التعبير عن آراء غريبة .. وأصر منير على رفضه كتابة المنشور ..

وفى مرة أخرى فاجأه كال بطلب عريب .. قال له إن إبراهيم عضو الشلة الماركسية يتتبعه البوليس للمقبض عليه .. وهم ينقلونه من مكان إلى مكان حتى لا تصل إليه يد البوليس .. وكال يرى أن خير مكان يمكن أن يحتبى فيه إبراهيم هو بيت منير .. إنه أبعد مكان يمكن أن يخطر على بال البوليس .. فمنيير لا يعتبر من أفراد الشلة ولا يعرفه البوليس ..

وهكر منير طويلا .. إن البوليس لا يقض على كال نفسه وهو رئيس الشلة .. من يستطيع أن يقض على ابن الماشا .. ولكن البوليس لا شك

يتبع كل أفراد الشلة .. ولو قبل أن يحى إبراهيم في بيته فهو لا يحبه مشاركة له في إيمانه بمبادئه أو لأنه ماركسي مثله ، ولكنه يخشيه تطوعا في حماية الحرية .. حرية الرأي .. وحرية الاختيار بين الفكر السياسي .. إنه يعطى للشلة حرية الفكر الماركسي كما يعطى لنفسه حرية رفض هذا الفكر .. وقال لصديقه كمال :

— عندنا غرفة غسل فوق سطح البيت يستطيع أن يخشى فيها .. ولكن لا أكثر من يومين ..

واضطر أن يكذب على كل أهله .. قال لهم إنه رميل في الكلية كان في قريتهم وعاد ليجد نفسه مطرودا من العرفة التي يستأجرها .. وتقبل الأهل كذبه فوراً وتركوا له غرفة الغسيل .. وقد حرص على ألا يتولى أخواته البيات خدمة إبراهيم .. كان هو بنفسه الذي يقوم على خدمته ويقدم له الأكل ومشاركه فيه .. بل إنه تفرغ كله للصديق الهارب .. لم يكن يتركه أبدا وحده .. كأنه يخاف منه على بيته .. أو يخاف عما قد يتعرض له البيت .. من يبرى ؟ .. ربما عرف البوليس مكانه .. ولم يخرج من البيت إلا عندما صاحب إبراهيم مرة بعد منتصف الليل ليتمشي به في الشوارع القريبة ترهبها عنه .. كأن إبراهيم كان مسجوناً وهو سجانه .. ويهر هذا السجن أمام أهله بأنه يذاكر مع إبراهيم ..

وقد كان كمال الروزنامي عند وعده .. فبعد يومين بالضبط أخذ إبراهيم الهارب وانتقل به إلى مكان آخر .. دون أن يحاول إبراهيم أن يعرف إلى أين انتقل به ..

والأيام تمر .. والشهور .. والسنوات .. وحياته مزدحمة بالفرجة على ما في الحياة من آراء وأفكار ومخالات على قدر ما يستطيع أن يصل إلى لمرحة عليه من مشاهد الحياة .. وعلى قدر ما يسمعه وما يقرئه من كلام يدور في محاللات الحياة ..

إلى أن انتهى من كلية الحقوق .. حصل على الليسانس .. وكان متفوقا وإن لم يكن من الأوائل .. إن تطلعه إلى المعرفة لم يترك عقله متفرغا للمواد التي تدرس له في الجامعة حتى يكون من أوائل الخريجين .. ولكنه متفوق كما هو متفوق دائما في كل الامتحانات الدراسية التي مرت به ..

وكان مع الفرجة التي تحيط به بعد أن انتهى من الجامعة وحصل على الليسانس واقفا من أنه سيجد الطريق الذي يريده ليبدأ العمل .. ليبدأ في الحصول على دخل خاص ويربح أباه من الإنفاق عليه .. إنه الآن شخصية مسؤولة مسئولة كاملة .. وبدأ إحساسه بالمسؤولية يتركر في إحساسه بدليل .. إن الحب مسئولي أيضا .. فكيف يحدد مسئوليته عن حبه .. عن دلي ؟ ..

إن الطريق الطبيعي لتحديد مسئوليته الحب هو الزواج ..

هل يتزوج دلي ؟ ..

وكيف ؟ .. !

هذه الليال .. ليلاس ..
www.lilas.com

طبيعة الفتاة المعترزة بنفسها القوية الشخصية .. إنها تفرض على الشاب أن يبدأ هو بعرض أمنيته بالزواج ..

والآن بعد أن تخرج في الجامعة ونال الليسانس وبدأ استقلاله بنفسه وانقاد أنه سيجد العمل الذي يريد .. ومهما كان هذا العمل فلا شك أنه يبدأ بدخل محدود .. فهل يستطيع بهذا الدخل المحدود أن يوفر مطالب الحياة التي تعيشها ابنة الباشا .. الحياة التي تعيشها دلير ؟ .. إنه يفرض تصور أنه هو الذي سيقفل إلى حياتها وليست هي التي ستنقل إلى حياته .. ليس هو الذي ينتقل ليعيش في قصر الروزنجي ولكنها هي التي ستنقل لتعيش في بيت غامق أفندي .. وتعيش سعيدة كما تعيش أخته .. إن ما سيجمعه بدليل ليس مظاهر الحياة وليس حسابات الدخل .. إن ما يجمعه بها هو الحب .. والحب أقوى من كل مظاهر الحياة .. الحب لا يقوم على نظريات حسابية .. تحسب بالأرقام قيمة ما يملك الآخر وما يصل إليه وما يمتنع .. إن الحب يستمد قوته من نفسه .. ومتمتع أن يبدأ المحبان بالاستقرار على الأرض .. أرض الحب .. ثم يبدأ الحياة معا .. إلى أن يقيما أفخم عمارة في الدنيا .. عمارة الحب ..

ورغم ذلك مضت أيام وهو متردد في أن يعانق دلير في موضوع الزواج .. وقد التقى بها في شارع الجبلية كما تعودا خلال سنوات .. وأبلغها في تواضع وهذوء خبر حصوله على الليسانس .. وانطلقت فرحتها حتى تعلقت بعقه في الشارع الهادئ الخافت الصوء وأخذت تقبله .. وكانت قبلات فرحة حتى إنه لم يكتف بها على حديه وشد شفتيها إلى شفتيه ومال بها على أرض شاطئ الليل يسمان أكثر في القبل .. كانت قبلات أحر من كل ما سبقها من قبلات وسرت في خلجاتهما .. ورغم ذلك .. وبعد أن انتهت

لقد مر الآن أكثر من أربع سنوات على لقاء مير بدليل .. سنوات حب عجيب لم يرهما خلاهما أى صورة للمستقبل ولم يتبادلا أى وعد .. كأنه حب ليس له مستقبل يشغلان نفسيهما به أو يحسبان حسابه .. حب يعيش يوما بيوم .. وكل ما يحرصان عليه هو أن تستمر أيام اللقاء .. وهو حرص لا يدفعهما إلى مجازفة أو مغامرة ولكنه حرص هادئ كالحرص على لقاء الأصدقاء ..

وكان مير مؤمنا بكل فكره وكل إحساسه أن ما بينه وبين دلير هو حب .. حب كامل .. وكان يطرد من فكره وإحساسه كل خاطر يدعو إلى اليأس .. ويطرد الصورة التي كانت تراوده أحيانا .. صورة ابنة الباشا تفرج على ابن الأفندي .. وصورة ابن الأفندي يتفرج على ابنة الباشا .. كأن ما بينهما ليس حبا إنما مجرد فرجة يتمتع بها كل منهما بالآخر .. لا .. إنه متأكد أنه حب وإلا ما استمر كل هذه السنوات ولكانت الفرجة انتهت بعد لقاء أو اثنين .. وكان دائما يفكر في رسم مستقبل هذا الحب .. وليس له إلا مستقبل واحد .. استمرار اللقاء العمر كله .. أن يعيشا حياة واحدة .. أى الزواج .. ولكنه لا يستطيع أن يبدأ في عرض مشروع المستقبل .. مشروع الزواج .. وهو لا يزال طالبا يعيش معتمدا على أبيه الأفندي المتوسط الحال .. لا يستطيع أن يبدأ إلا وهو معتمد على نفسه .. مستقل بالمسئولية .. وهو في الوقت نفسه لا ينتظر أن تبدأ دلير في معانته برسم المستقبل .. أى تطالبه بالزواج .. لا .. لا يمكن .. ليس هذا من

انقيل .. قبل أن يفترقا .. عجز أن يعانقها في موضوع الزواج .. موضوع المستقبل .. وهي هائمة في فرحتها وكأنها تفضل الحب بلا مستقبل فلا تشده إليه ..

وقد عاد يومها إلى البيت واختلى بأخته بثينة التي من المفروض أنها أصبحت صديقة لدلبر وطلب منها بعد كلام طويل أن تبدأ هي في عرض موضوع الزواج على دلبر .. وقالت بثينة وهي تنظر إلى أحيا كأنها مشفقة عليه :

— إنى لو بدأت معها هذا الموضوع .. فكأنى أسعى إلى اتفاق بين العائدين .. وأنت تعلم أن ليس بين العائدين ما يمكن أن يحقق أى اتفاق أو نسب .. أين نحن وأين هم ؟ ..

وقال منير في رجاء :

— إنك لن تحدثيها باسم العائلة .. ولكنها صديقتك وكأنك تداعبها بفكرة خطرت لك كأنك تلتقي نكتة .. إن كل ما أهد أن أعرفه هو وقع هذه النكتة عليها قبل أن أحيلها أنا إلى موضوع جاد ..

وقالت بثينة من خلال ابتسامتها المشفقة :

— إننا لم نصل بصداقتنا إلى حد تبادل الكت .. إنها صداقة لم ترفع الكلفة بيني وبينها في عالم واحد .. وأما أذهب لزيارتها في قصر الروزاجي فأحس كأنى أمتع نفسي بالجلوس في حديقة عامة رائحة .. وربما تأتى هي لزيارتى فتحس أنها ترور تحفة رائحة من تحف آثار القاهرة .. لا .. لا يمكن أن أعانقها في موضوع الزواج .. إن كل ما يربطنا بدلبر هو ما يبتك وبينها .. هو حبكما .. ولا يستطيع أحد أن يقدر ما يمكن أن يصل إليه هذا الحب إلا أنت وهي .. فأبدأ أنت بعرض موضوع الزواج عليها .. وأنت وحدك

الذى تتحمل النتيجة ..

وقال وهو يتهد كأنه هو الآخر يشفق على نفسه :

— هل تعلمين أننا طوال هذه السوات ، لم نتحدث أبدا عن مستقبلنا معا .. زواج أم حب بلا زواج أم لا زواج ولا حب ؟ ..

وقالت بثينة ضاحكة :

— ليس من حق طالب أن يعانق فتاة في موضوع الزواج .. ولو أن صديقتى عليّة تحب فى لا يزال في المدرسة الثانوية ورغم ذلك اتفقا على الزواج .. بعد عمر طويل .. وأنت الآن لم تعد طالبا فصارحها لطمن وتسترخ برسم حياتك ..

ولم يستطع منير أن ينام ليلتها .. إن مسئوليّة تحديد مستقبل حبه هي مسئوليته وحده .. وقام في الفجر وخرج من البيت وأخذ يطوف بالشوارع وهو تائه حائر إلى أن كانت الساعة الثامنة فذهب إلى دكان نفس البقال وأمسك باللبون في عصبية بعد أن حيا البقال تحية عابرة كأنه لم يعد ييمه أن يتبع هذا البقال ما يقوله في التليفون .. وردت عليه دلبر وقال لها في عصبية ودون تحية الصباح :

— يجب أن أقابلك هذا المساء .. في الجبلية ..

وقالت دلبر في دهشة :

— ماذا حدث ؟

وقال فوراً :

— ستعلمين عندما نلتقى ..

وقالت في صوت خافت كأنها حائرة :

— في الساعة السابعة ..

وكرر وهو ناله :

— في السابعة ..

ثم ألقى سماعة التليفون ..

وقضى يومه وهو يسير على قدميه دون أن يدري أين يذهب .. ودون أن يخطر على باله أن يتردد على الأصدقاء الذي يحاول أن يستعين بهم في تحديد العمل الذي يريد .. كل ما في فكره هو ترديد الكلمات التي سبقوها لدلبر .. ونصور ما سترد عليه به من كلمات ..

إلى أن وقف في انتظارها في شارع الجبلية .. وإلى أن رآها قادمة في خطواتها الرشيقة وقوامها يهتز مع خطواتها كأنه يعرف لحنا هادئا ممتعا .. والتفت يدها بيديه كما تعودا ثم جذبا وجلس بها على السور الذي يمتد مع الشارع مطلا على النيل .. وقال وهو يتسم ويحاول أن يضغط على أعصابه :

— لقد مضى على أيام وأنا أفكر في موضوع واحد .. حتى تعبت ولم أجد أستطيع أن أستمع في التفكير .. إننا يجب أن نحدد مستقبلنا ..

وقالت دلبر في دهشة برهة :

— ماذا يشعلنا بالمستقبل ؟ .. مضت سنوات ومستقبلنا مستمر ولن يقطع لقاءنا أبدا ..

وقال وهو يلتقط يدها ويضغط عليها :

— إن لقاءنا لا نحدد لنا مستقبل .. حتى ثقتنا في عواطفنا ليست هي المستقبل .. المستقبل هو الحياة التي نعيشها معا .. ونحن لا نزال في حاجة إلى تحديد صورة هذه الحياة .. وضغط على يدها أكثر وضعت صوته كأنه يشهد قائلا (.. دلبر .. هل تتزوجيني ؟ ..

واتسعت عينا دلبر من شدة المفاجأة وسكنت فترة ثم قالت وهي تحس رأسها كأنها تسائل نفسها :

— لم لا ؟ ..

وقال بسرعة كأنه كان قد أعد كل كلمة :

— أنت تعرفين الفارق الكبير بين حالتك وحالتي .. أنت من عائلة في متنى الغنى وأنا من عائلة ليست في متنى الفقر ولكنها ليست غنية ..

وقالت كأنها تطلب خطره :

— لا يهم .. قلت لك إن المرحوم بابا كان مفلسا عندما تزوج أمي .. وقال منبر وهو يتسم متحسرا :

— ولكنه كان ابن عائلة الروزنامي .. عائلة توارى عائلة أمك .. ولكني أنا من عائلات الأفندية ..

وقالت دلبر وهي تبسم :

— الدنيا تعبت .. إن ابنة طبوزادة تزوجت من إنجليزى سائق تاكسى ..

قال وهو يقارم نفسه :

— هل تقبلنى العائلة زوجا لك ؟ ..

قالت في بساطة :

— لا أدري .. اطلبنى .. ونرى ما يحدث ..

وقال وهو يلور على وجهها بعينه :

— ولو رفضت العائلة ؟

قالت في هدوء :

— سنمكر فيما نفعله لو رفضت ..

وقال وهو يرحى عينيه كأنه مستسلم :

— ومن أحدثه من أفراد عائلتك ؟

قالت فوراً :

— طبعاً تبدأ الكلام مع أخى كمال .. إنه صديقك .. وهو الوحيد في

العائلة الذى لا يطبق تقاليد زمان ..

وقال وهو لا يزال مبتسماً :

— لقد كنت مقرراً أن أبداً الكلام فعلاً مع كمال ولكنى أردت أن أسمع

رأيك أولاً ..

إن يحيى باشا الروزنامى كان قد مات منذ عامين .. وكان منير قد اشترك

في تشييع الجنازة ومواساة كمال .. وإن كان لم يجد كمال حزناً على وفاة أبيه ..

وكان كأن وفاة أبيه حدث طبيعى لا يؤثر في الكون ولا فيه فليس هناك

ما يدعو إلى الحزن ولا حتى إلى كل هذه المظاهر التى اتخذت لتشيع

جثمانه .. ودلبر أيضاً لم تكن حزينة على موت أبيها وإن كانت قد حرصت

على ارتداء الثوب الأسود .. رغم أن كمال هو الأخ الأصغر .. إنما لا شك أنه

الأقرب إليه في طيب يد أخته ليتزوجها ..

ودهب إلى الشلة الماركسية التى تجتمع في مقهى الأسيرى .. وفرح

كمال به كما عوده بالفرحة كلما انضم إلى اجتماع الشلة .. وجلس يستمع إلى

المناقشات دون أن يشترك فيها بل دون أن يبذل جهداً في الاستماع إليها ..

كان ساهماً بعد الكلمات التى سيفتاح بها كمال بعد أن ينتهى هذا الاجتماع ..

وانتهى الاجتماع .. ومال منير على كمال هامساً :

— أريد أن أعلو بك .. تعال نتمشى وحدنا ..

وقال كمال ضاحكاً :

— تعال نذهب إلى بيتنا .. إلى جوعان وأتقى العشاء .. وتتمشى

معى ..

وقال منير وهو يحاول الضحك :

— تعال أنت معى إلى بيتنا .. وتعرض لمفاجآت أمى عند تقديم العشاء

كما أفاجأ أنا دائماً ..

وقال كمال وهو يرد الضحكة :

— لا .. إلى جوعان إلى حد أن لا أحصل المفاجآت ..

وركب منير بجانبه في سيارته الصفيرة القديمة التى يعتمد الظهور بها

عندما يكون في الأحياء الشعبية وهو ساخط .. لقد كان يفضل أن يعانق

كمال في الموضوع وهم في مقهى الأسيرى ، أو وهما يتمشيان حوله .. إن

شخصية كمال تغير دون تعدد بمجرد دخوله إلى بيته .. إلى قصر

الروزنامى .. تصبح شخصية أقل تواضعاً .. وأبعد قليلاً عن الماركسية ..

وكان يفضل أن يحادثه وهو في منتهى التواضع .. وفي منتهى الماركسية التى

تلغى الفوارق عن الطبقات .. وقال منير وكمال يقود السيارة .. وكان يتكلم في

هجة حاسمة جريئة كأنه قرر أن يقتحم الحصن ..

— لن أنتظر حتى أفتح الموضوع ونغش تناول العشاء .. اسمع يا كمال ..

لعلك لا تعلم أنى وأخذك دلبر أسدقاء .. وقد كان يجب أن تطلعك على

هذه الصداقة منذ بدأت كما تفرض الأصول .. وحتى لا أحفى عنك شيئاً

لك فيه .. وكأنى أخافك أو كأنى أسرقت .. وقد حاولت فعلاً منذ البداية أن

أصارحك .. ولكن الظروف لم تسمح .. و ..

وقال كمال مبتسماً وكأنه يسخر من سير الذى يعتقد أنه يستطيع أن يخفى

عنه شيئاً :

— إلى أعلم بصداقتك لأختي منذ بدأت .. وإن كنت لم أهتم بتتبع تفاصيل هذه الصداقة ..

ودعش منير .. لقد كان كمال يعلم .. وطرده الدهشة وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :

— لقد تطورت التفاصيل خلال سنوات .. حتى إلى اليوم أطلب منك يد أختك دلير ..

وصعظ كمال على فرامل السيارة بعنف ووقفت وهي تطلق صوتا عاليا كأنه الصراخ .. ونظرت إلى منير بهينين جاحظتين .. متساغلا وكأنه لا يصدق ما سمعه :

— ماذا تقول ؟

وقال منير وهو يخفي ارتعاشه صوته :

— أريد موافقتك على زواجي من دلير ..

وهذا كمال قليلا .. وركن السيارة التي يقودها بجانب الرصيف .. واسترخى على ظهر مقعده وقال كأنه ساهم مع فكره :

— هل دلير موافقة ؟

وقال منير وهو ينظر إلى كمال في عينيه كأنه يعلم استعداده لأي مناقشة أو أي تحقيق :

— طبعاً موافقة .. كان لا يمكن أن أطلب موافقتك إلا بعد موافقتها ..

وسكت كمال لحظة يجمع فيها فكره ثم قال كأنه يعلن مبدئاً جديداً :

— إن الصداقة بينك وبين دلير هي موضوع خاص بيسكما .. ولكن

الرواح موضوع آخر ..

وقال منير مقاطعاً :

— إنها ليست مجرد صداقة .. إنه حب .. حب مصى عليه سنوات .. وقال كمال وكأنه يحاول أن يكتم عظه :

— حتى الحب .. إنه علاقة بين اثنين .. ولكن الزواج هو علاقة بين هذين الاثنين والمجتمع الذي يحيط بهما .. لذلك فإنني عندما عنمت أن يبك بك وبين أختي علاقة لم أحاول أن أحشر نفسي فيها .. لأنها علاقة خاصة .. وأحتي حرة في اختيار علاقاتها .. وحررة أيضاً في الاستجابة لأي علاقة اختارتها مهما تبادت .. ما دامت علاقة ليست عائلتها أو مجتمعها مسؤولاً عنها .. أما الزواج فلا يمكن أن ينفرده به الاثنان .. إنه إجراء يؤدي إلى وضع يدخل في اختصاص العائلة كلها والمجتمع كله .. وأنا لا يمكن أن أشارككما في تحمل مسؤولية هذه العائلة وهذا المجتمع ..

وقال منير وهو يحاول أن يهدأ بابتسامته :

— لقد كنت أنت المسئول عن حبنا .. فقد رأيت دلير أول مرة من بعيد دون أن أجري على الاقتراب منها .. فقد كنت أقدر أن الفارق الاجتماعي بيني وبينها يحول بيننا إلى الأبد .. لا يمكن أن نجتمع ابنة الباشا بابهن الأندلس على أمل واحد .. حتى ولو كان مجرد أمل الحب .. هكلاً كنت مقتنعاً .. وكان لا يمكن أن أصل حتى اليوم بعلاقتي بدلير إلى أكثر من الإعجاب من بعيد .. ولكنك ناديتني وتعرفت لي .. وأحسست منذ اليوم الأول أن المجتمع يمكن أن يجمع بين أولاد الباشا وأولاد الأندلس .. أضعفتني منذ البداية بإزالة الفوارق بين الطبقات ولو عن طريق الماركسية .. فدفعني ماركسيتك إلى جرأة الإقدام على التقرب من أختك دلير .. وربما هي أيضاً لم تقبل حرراً إلا بعد أن رأيتي معك .. فأنت المسئول .. وإدراكك كنت مسؤولاً عن تحقيق حبنا فأنت مسئول عن تحقيق النتيجة الطبيعية لهذا الحب .. أي تحقيق الزواج ..

وقال كمال ساخرا :

— إنى لم أحاول إقناع المرحوم أبى أو إقناع أمى أو إخوتى مبادئ الماركسية أو بالمجتمع الماركسى .. ولا حتى إقناع دلبز رغم أنها أقرب إخوانى إلى .. لأنى أعلم مقدما أن لا أمل فى إقناعها .. ولذلك لن أحاول إقناعهم بأن تتزوج دلبز ..

وقال منير كأنه يلومه :

— ولكنك أقنعت نفسك بالماركسية .. ومعكك إقناع نفسك بزواجى من دلبز ..

وقال كمال كأنه وصل إلى حد المصارحة التامة :

— إنى مقتنع بالماركسية ولكنى لا أعيشها .. إلى لا أزال أعيش المجتمع الطبقي بكل ما فيه .. أعيش فى قصر الرورناجى .. فى انتظار أن تقوم الثورة الماركسية الشاملة .. وبعدها أعيش .. أعيش الثورة .. وتستطيع أنت ودلبز أن تنتظرا الثورة ثم تتزوجا بعدها .. وصاح منير كأنه لم يعد يحتمل :

— إن هذه الثورة لا تزال وهما .. ونحن لا نستطيع أن نعتمد على الكوهم .. نريد أن نعيش الواقع وننزوج ..

وقال كمال وهو يتحجج كأنه يقاوم نفسه :

— ليس أمامكم إلا أن تتحملا شرعية زواجكما وحدكما كما تحملا مسئولية الحب .. ولن أتدخل ما دامت دلبز موافقة على ما يتم بيكما .. كأن كمال يترك له حرية الزواج من أخته دون موافقة العائلة ولا موافقة .. كأنه يحرضه على المزوب بأخته .. لا .. لا يمكن .. إنه يتزوج دلبز لأنه يحبها .. ولكنه لا يتزوجها إلا وعائلتها أيضا تحبه وتعتبر به وبأنه يشرفها أن

يتزوج أختها .. إنه فقير ولكنه أنظف وأقوى من عائلة الرورناجى ..

وقال منير وهو يحس رأسه بأسى ويمد يده إلى مقبض السيارة :

— لا أقرى ما يمكن أن يتم بينى وبين دلبز .. لقد علقنا كل آماننا عليك .. واسمح لى .. إلى لا أستطيع أن أتناول معك العشاء ..

وفتح باب السيارة ونزل منها وكال يصيح وراءه ضاحكا ضحكة مفتعلة :

— إنك ترحمنى من هذا الموصوع حتى أستطيع أن أشبع بطنى بطعام العشاء فلانى أكاد أموت جوعا .. مع السلامة ..

وانطلق كمال بسيارته بسرعة كأنه يقفز بها بعيدا عن منير .. وسار منير طويلا كهادته دون أن يحس بثقل قدميه .. ودخل البيت وألقى بنفسه على فراشه دون أن يفكر فى النوم .. وعقله لا يرتاح من التفكير فى الماضى والحاضر والمستقبل .. وتطوف به ابتسامات ساخرة .. إن الماركسى يرفض أن ينقل أخته من طبقة إلى طبقة .. إنه مهما تمادى فى ماركسيته فهو أساسا ابن باشا ويرفض أن يناسب الأفندية ..

وفى صباح اليوم التالى اتصل بدلبز فى التليفون دون أن يهتم باختيار المكان الذى يتحدث منه وقال لها فوراً :

— لقد التقيت أمس بأخيك وحادثته فى كل شيء ..

وقالت فى بساطة دون أن يبدو فى صوبها رنة نائرة ولا حتى آسفة :

— أعلم .. وأعلم أنه رافض .. لقد حدثنى طويلا ليلة أمس ..

قال وهو لا يقلر أنه يتحدث فى التليفون وإن كان حريصا على صوت خفض :

— لقد طلب منى أن تتحمل مسئولية الزواج وحدنا ..

وقالت ساخرة :

— إنه يطلب المستحيل .. فهي حياة لا نستطيع أن نحملها
وحدنا ..

وقال بسرعة وهو يلمهث :
— إن الحب قد يصل أحيانا إلى درجة الجنون ..
وقالت كأنها تضحك :
— لننتظر إلى أن يجن .. وسأراك غدا ..

وترك التليفون بعد أن اتفقا على موعد ومكان اللقاء .. شارع الجبلية
أيضا .. وفي نفس اليوم فوجئ بكمال يمر عليه في بيته وينظره في سيارته بعد
أن أرسل إليه ابن البواب .. ونزل إليه وصافحه في برود وجلس بجانبه
صامتا .. وقال له كمال وهو يملق في وجهه بكل عينيه :

— إلى اعتبر الموضوع الذي تحدثنا فيه أمس قد انتهى .. وقد تركت لك
الحرية الشخصية التي أعرف أنك تؤمن بها .. وهناك الآن موضوع في
منتهى الأهمية .. إن خطاب بك عضو مجلس الشيوخ سيقدم مشروعا
بتحديد ملكية الأرض الزراعية بخمسين فدانا .. ونحن طبعنا نهد هذا
المشروع ونبذل كل جهدنا في فرضه .. وقد اتصلنا بخطاب بك واتفقنا على
الكثير مما يجب أن نقوم به .. وأنا أعرف أنك صديق لبعض الصحفيين
وأتمنى لو استطعت أن نجدهم في خدمة المشروع .. إنه ليس مشروعا
ماركسيا حتى تعتذر كعادتك عنه ولكنه لا شك خطوة نحو الماركسية ..
وقال مير ساحرا وبلا اهتمام بعد أن تعب في الاستماع إلى كمال :

— إنه مشروع وهمي .. لعله مجرد دعاية يقوم بها صاحبه لنفسه .. فإن
كل أعضاء المجلس يملكون أكثر من خمسين فدانا ولا يمكن أن يقبل واحد
منهم التنازل عن شبر واحد من أرضه ..

وقال كمال في حماس :

— حتى لو كان مجرد دعاية .. فهي دعاية لنا ..

وقال مير وهو يتلعت إلى الطريق الذي يقود به كمال السيارة :
— إلى أين ؟

وقال كمال في بساطة :

— إن الشلة تنتظرننا في مقهى الأسبوطي ..

وقال مير لورا وبخلة :

— آسف لن أستطيع أن أحضر اجتماع اليوم ..

ولم يجادله أو يتحامل عليه كمال وقال في بساطة :

— سأعود بك إلى بيتك ..

وقاطعه مير بسرعة :

— لا .. سأتركك هنا ..

وأوقف كمال السيارة بلا تردد وهو يقول له :

— مع السلامة .. يجب أن أراك غدا لتتفق على ما نفعله ..

وقال مير وهو ينزل من السيارة :

— بإذن الله ..

وانطلق كمال بالسيارة وهو يلمو شفقيه .. ما دخل إذن الله هنا ؟ .. إنه
إذن مير نفسه .. إنه لا يحتمل ذكر الله حتى في هذه الكلمات الروتينية ..
وسار مير وهو مقتنع بأن كمال لم يأت إليه لأهمية المشروع الجديد .. إنما
أتى ليطمئن إلى استمرار صداقته بعد الحديث الذي جرى معه أمس ..
ورغم ذلك لم يكن كمال صادقا عندما قال إنه ترك الحرية له ولأخته ليحملا
مسئولية ما يريدان .. وكان قد مصى حوالى ثلاثة أسابيع في لقاءات بين مير

ودلبر .. لقاءات في كلام لا يصلح به إلى قرار . كان منير أيضا لم يصل به
جنون الحب إلى حد أن يقدم على تحمل مسؤولية الزواج وحده .. إلى أن التقيا
آخر مرة .. وقالت له دلبر في رجاء :

— أرجو أن تفهمنى عندما تفاجأ بما سأقوله لك ..

وقال مبتسما في مزح :

— إلى أفهمك أبعد مما أسمعك منك ..

قالت وهي تضحى عينيها :

— لقد قبلت أن تعلن خطوبتى ..

وفغر فاه من دهشة المفاجأة وقال كأنه لا يصدق أذنيه :

— خطوبتك إلى من ..

وقالت في بساطة :

— إلى أعرف أنك تعرفه .. إنه عادل السلانكلي ..

واتسع فمه الذي تعرفه الدهشة .. إن هذا السلانكلي هو أئفه شخصية
في الشلة الماركسية .. إنه بلا شخصية رغم أنه ينتمى إلى هذه العائلة القديمة
سليبة الغزو التركي فهو يملك مفات الأفدنة .. إنه دائما مستسلم استسلاما
كاملا لصديقه كمال الروزناجي ويردد كلماته كاللبقاء .. كل الشلة تعرفه
وتعامله على أنه تافه .. وهو شخصيا لا يطيقه ويرد عليه عندما يحاول أن يثير
معه مناقشة باحتقار شديد ..

وصاح منير في وجه دلبر :

— لماذا اختيرت هذا التافه ؟ ..

وقالت دلبر وعيناها معلقتان في عيني منير :

— إن أخى كمال رشحه لى .. وقبلت لأنى أعرف عنه أنه سهل ..

وقال ساخطا :

— ماذا تقصدين بأنه سهل .. ؟

قالت مبتسمة وهي تقترب منه أكثر :

— إلى واثقة أنه لن يمس حريتى .. أنت تعلم أنى رفضت كل من

رشحوه لى حرصا على حريتى ولكنى وصلت إلى اليأس من أن أتزوجك

أنت ووجدت عادل السلانكلي لن يؤثر في حريتى معك .. فقبلت ..

وقال من خلال سخطه :

— ستكونين لرجل آخر فماذا تفعلين بحريتك معى ؟ ..

وقالت كأنها تنطلق في فرحة :

— ستكون حرية أوسع .. ستحصل لى كل يوم في التليفون دون أن تنقيد

بموعد الساعة الثامنة صباحا .. وسنلتقى دون أن تنقيد بشارع الجبلية ..

ربما أصبح لنا مكان نشتمتع فيه بحرية الحب .. إلى لم أقبل الزواج بعادل إلا بعد

أن اطمأننت على حيائى معك ..

وقال ساخرا :

— طبعاً .. صاحبة السمو الأميرة من حقها وهي زوجة أن تختار

الشماشرجى والسائق والسفرجى وأيضا تختار المرافق .. وشكرا لأنك قررت

أن أكون مرافقا لسيادتك .. رفيق .. عشيق ..

وصاحت دفاعا عن نفسها :

— لقد قررت أن أعيش الحب .. وأنا أحبك ..

وقال كأنه بمحادث نفسه :

— إن الحب يحصن نفسه ولا يسمح لرجل غريب أن يدخل فيه ..

كيف يكون الحب وأنت لرجل آخر وأنا لأمراة أخرى ؟ ..

وقاطعه وكأنها تتوسل إليه أن يفهمها :

— كُن واقعيًا .. لقد حاولنا أن نتزوج ولم نستطع .. وانتظروا أن نحزن حتى تتحدى العائلة وكل المجتمع وتحمل المسؤولية وحدنا ولكننا لم نحزن .. ولم يبق لنا إلا أن نستسلم لنواقع ونحتمظ في الوقت نفسه كل منا بالآخر .. نحتمظ بالحب ..

وقال في هدوء كأنه يري نفسه :

— إن واقعي يختلف عن واقعك .. إني لا أعتقد أن هذا طريق الاحتفاظ بالحب .. إنه طريق تشويه وتلوّث الحب .. فالحب ليس مجرد لقاء ولكنه حياة .. وقد كنا نلتقي في انتظار أن تبدأ حياتنا .. حياة الحب .. ولكنك خنقت الحب وترهدين أن تتقلى بحبته لا إني قبر بل إني فراش بجمعنا حولها .. حول الجثة ..

وقالت وكأنها بدأت تياس :

— إن الواقع هو الذي يفرض علينا شروطه .. ومن حقنا أن نتحارب على هذه الشروط حتى لا نكون عبيدا .. إننا أحرار .. وأنت تؤمن بالحرية .. وقال فوراً وفي لهجة حادة كأنه يلقي علينا درساً :

— الحرية مذاهب تشمل كل ما في الحياة .. فالقاتل حر .. واللص حر .. والزانية حرة .. كما أن الماركسي حر .. والرأسمالي حر .. ونحن مختلفان في اختيار مذهب الحرية ..

ولم ترد .. سكنت رايائش ينهار بها ..

وعاد يقول في لهجة حاسمة :

— هل أنت مصممة على هذا الزواج ؟ ..

وقالت دون أن تنظر إليه :

— إني مقتنعة إلى حد التصميم ..

وقال في حدة :

— إذن لا تسأليني شيئاً .. وليس أسألك شيئاً .. ولتترك المصير للقدر .. ومع السلامة ..

وهم أن يتحرك مبتعداً عنها .. فصاحت به :

— ألن تسير معي حتى آخر الشارع ؟ ..

قال في جفاء :

— تقدميني .. وسأكون خلفك ..

وصاحت في غيظ :

— لا أريدك أن تسير معي ولا خلفي .. اذهب أنت ..

وتقدمها مبتعداً عنها .. ولكنها عندما بدأت بعد دقائق تسير في الشارع حافت الضوء كان لا يزال غتبعها خلف شجرة ليطمئن عليها حتى تصل إلى بيتها .. إلى قصرها ..

وهو وحده تعصف به الزوابع .. إن كمال هو الذي حرص أخته على الزواج من السلانكي .. ربما لأنه من أعضاء الشلة الماركسية ومستسلم له .. ربما لو كان هو قد انضم إلى الشلة كان هو الذي احتاره كمال لأخته .. ولكن لا إن كمال لم يختر السلانكي لأنه عضو الشلة .. عضو الحزب .. ولكن لأنه من عائلة السلانكي .. عائلة موازية اجتماعياً لعائلة الروزنجي .. إن أساس شخصية كمال ليست قائمة على أنه ماركسي ولكنها قائمة على أنه ابن دوات ..

وفي صباح اليوم التالي لم يبحث منير عن تليفون ليتصل بدليز .. مر أكثر من أسبوع وهو لا يتصل بها .. كان قد قرر أن يقضى على كل ما بينه وبينها .. يقضى على حبه مهما عانت عواطفه ومهما عانى من حرمان .. إنه

— لا داعي لأى لقاء ..

قالت كأنها ترجوه :

— مهما حدث بيننا فإن هناك ما يمكن أن يستمر إلى الأبد ..

صدقاتنا ..

وقال بسرعة :

— إنما فى حاجة إلى مدة طويلة حتى يتحول كل ما كان إلى مجرد

صداقة .. مع السلامة ..

وتركها .. وعاد يعيش معاناة قاسية وهو يقاوم كل ذكرياته وآماله ..

لا أحد من يعرف منير يتصور أنه يربط نفسه بالمبادئ العامة إلى هذا

الحد .. الشرف .. الأصول .. الشرع .. التسامى .. حتى الذين كانوا

يعتبرونه أنه مجرد متفرج على كل ما يجرى فى الحياة لا يعلمون أن هناك

نواحي فى الحياة يرفض التفرج عليها .. إنه إلى اليوم ورغم أنه وصل إلى

الخامسة والعشرين لم يفرج على امرأة يمارس الجنس معها .. حتى فى صباه

عرض عليه صديقه محمد عبد الله عبد اللطيف أن يذهب معا إلى وش البركة

ليمارسا الجنس مع إحدى البغايا المحترفات .. فرفض رغم أن صديقه وعده

بأن يدفع له العشرة القروش التى كانت تأخذها البغى .. إنه إلى اليوم لا يزال

من هذه الناحية بكرا .. وعندما غلبه حبه للدبر كان كل ما أباحه لنفسه

معها هو القبلات .. وكان قادرا دائما على أن يقاوم ما هو أكثر .. ولا يمكن

أن يقبل أن يصل إلى ما هو أكثر بعد أن تزوجت دبر رغم أنها تقول إنها

تزوجت لتصل معه إلى هذا الذى هو أكثر ..

وكال يتردد عليه .. بل إنه كأنه يعتمد أن تتلاحق لقاءاته به .. ومنير

يرفض أن يصحبه فى اجتماعات الشلة .. بل ويرفض أيضا أن يلتقى به فى

لن يحتمل ما تعده به دبر .. إنه طريق لا يستطيع أن يعيش فيه .. إنها لم تكن بالنسبة له مجرد امرأة يشتبهها حتى يقبل وعدها بإشباع شهته .. كانت بالنسبة له حياة كاملة .. وقد انتهى الأمل فى هذه الحياة .. ويجب أن يستسلم للنأس ..

وفوجئ بعد أن مرت الأيام بسيارة دبر تصل إلى البيت ويصعد السائق ويسلم عخطابا منها إلى أخته بثينة ..

إنه عخطاب قصير مذهب بكلمات فرنسية ترجو فيه دبر صديقتها بثينة أن تبلغ أعمامها بانتظارها أن يتصل بها بالتليفون ..

وتردد .. لن يحدثها بالتليفون .. وأخته بثينة تلح عليه .. إنها تؤكد أن يهجر حبه لها .. فهى أيضا متأكدة بأنه حب بلا أمل .. ولكن لمحدثها فى

التليفون بلا حب ..

ولى نفس موعد الثامنة صباحا حادثها فى التليفون وهو يضغط على كل

أعصابه المرتعشة .. إنه يحبها .. ولكن يجب أن يقاوم هذا الحب ويبدو قويا

وهو يحدثها .. وقال فوراً بمجرد أن سمع صوتها :

— هل حدث جديد ؟ ..

وقالت وصوتها ينهض مع قلبها :

— أى جديد تقصد ؟ ..

قال فى حلة :

— جديد بالنسبة لزواجك ؟ ..

قالت فى رنة إغراء :

— لم يحدث جديد .. ولكنى أريد أن ألقاك ..

قال فى حسم :

قصر الروزنامي .. إنما يكتفى أن يطوف معه بالسيارة في الشوارع .. أو يجلسا فترة في مقهى آخر غير مقهى الأسيوطي .. ويدعوه من أحيانا إلى زيارته في بيت العائلة ليقيم له القهوة أو الشاي أو زجاجة الكازوزة ولم يعد يدعوه إلى الغداء أو العشاء .. فمثير أصبح يكره أن يحس ويواجه الفارق بين ما يستطيع أن يقدمه على مائدته وما يستطيع كمال أن يقدمه على مائدة الروزنامي .. ولو أن كمال يعتمد أن يثبت عدم اعتراجه بهذه الفوارق إعلانا لمذهبه الماركسي ..

وفي كل هذه اللقاءات لم يكن الحديث يشمل من بعيد أو قريب أى إشارة إلى مصير موضوع دلبر .. إلى أن مضى حوالى ثلاثة شهور وقال له كمال في لقاء :

— هناك حدث يجب أن أصرحك به .. فصدقتنا أقوى من كل الأحداث .. خصوصا وأنه حدث عادي طبيعي .. إن أختي دلبر ستزوج صديقنا عادل السلانكي ..

وقال منير وهو يضغط على أعصابه :

— أعرف ..

وقال كمال في دهشة :

— كيف عرفت .. ؟

وقال منير في بساطة وكأنه لم يعد هناك شيء يخفيه :

— دلبر قالت لي ..

وأطلع كمال نقه كأنه يتلع حوته في كيف يطلق على اتصال أخته به ثم قال وهو يفتعل البساطة أيضا :

— إن الرفاق يوم الخميس القادم .. وأنت مدعو .. قد تعود إلى البيت

تجد الدعوة في انتظارك ..

وقال وهو ساهم :

— يشرفني .. ومبروك لأختك وصديقنا عادل وأنت وكل العائلة ..

وتركه بسرعة ليفرد بما يعانيه بعيدا عنه ..

وفي اليوم التالي جاءت سيارة الروزنامي وصعد السائق ليبلغ أخته بشيء أن دلبر هائم ستأتي لزيارتها في الساعة الخامسة .. تحيى إليه وهو راض أن يذهب إليها .. وتحيى إليه قبل الزفاف لعل الشوق يكون قد تغلب عليه فيقبل ما عرضته عليه .. أن يستمر لقاءهما .. أن يستمر حبهما ..

ويخرج من البيت مصحبا ألا يعود يراها .. وجاءت دلبر بحجة دعوة أخته بشيء وأفراد العائلة إلى حفل الزفاف .. ولم تستمر الزيارة طويلا بعد أن اكتشفت أن منير ليس في البيت .. وخاب أملها في أن يكون قد تعمد انتظارها ..

ورفضت العائلة كلها الدعوة .. ليس بين العائلتين ما يور أن يشتركا في فرح .. وقالت له أخته بشيء :

— لا أريد أن أتفرج عليهم لو يتفرجوا على ..

وقالت أمه ضاحكة :

— إنه فرح يجب أن تذهب إليه كل بنت بفستان جديد فلنوفر نحن وهوشة الفساتين ..

ولكن منير ذهب هو وحده إلى حفل الزفاف ..

ذهب وكأنه مصمم على تحدى دلبر وإقناعها بأن الأمر لم يعد يهمه .. إنه حفل كبير يتزاحم فيه المدعوون من رجال ونساء وجميع وأغلب باشوات مصر من رجال حرب الوفد .. وجميع أيضا كل أفراد شلة كمال الماركسية ..

كان أول ما طرأ على بال منير بعد أن تخرج وحصل على الليسانس هو أن يكون وكيلًا للنياحة .. فأبوه يتمنى أن يتفاخر ويتباهى بأن ابنه وكيل للنياحة .. وهو قد حصل على مجموع يؤهله ليكون وكيلًا للنياحة وله من المعارف من يمكن أن يعتمد عليهم في السعي للوصول إلى هذه الوظيفة .. ولكنه كان في قرارة نفسه لا يريد أن يكون وكيلًا للنياحة .. حتى لو كان قد تخرج وهو من الأربعة الأوائل لما غنى أن يكون معيدا في الجامعة ليصل إلى درجة أستاذ .. إنه لا يريد أن يكون موظف حكومة .. ولبن يطبق أن يعيش حياته كموظف .. إنه يتمنى أن يعيش محفظًا بحرته .. حتى حرية أكل العيش .. والطريق الوحيد الذي يضمن له هذه الحرية هو أن يتفرغ للمحاماة .. وفي الوقت نفسه لا يشعر برغبة في الاستمرار في دراسة القانون حتى يحصل على الدكتوراة كما يلح عليه أبوه وكل معارفه بعد أن عرفوا عنه تفوقه في الدراسة .. إن أغلبية ثقافته حصل عليها من خارج الجامعة .. حصل عليها من إطلااق حرته في اختيار ما يقرؤه .. لم يكن أبداً يحصر نفسه داخل قراءة مقررات الجامعة متخصصا في دراسة القانون .. لقد بنى شخصيته على حرية التفرج على كل ما في الحياة من أفكار وآراء سياسية وأدبية واجتماعية واقتصادية .. وهي حرية تضمن له أن يستفيد بها في بناء نفسه أكثر مما يستفيد لو تفرغ للحصول على الدكتوراه .. ولقد استطاع أن يقنع أباه بأمنيته التي يريد أن يحققها لنفسه .. وربما لم يقتنع الأب ولكن حبه لابنه وثقته فيه كانت تدفعه في النهاية للاستسلام له

بل إنه دعى عبد الباسط الذي يقوم على خدمتهم في مقهى الأميوطي .. ومنير محشور وسط الزحام صامتا .. إلى أن بدأت الزفة ودخلت العروس تتأبط ذراع العريس .. ولا حظ منير أنها وهي تحطو نحو الكوشة تلتفت بين المدعوين كأنها تبحث عن واحد .. ربما كانت تبحث عنه .. وابتسم ساخرا من نفسه .. إنه لا يمكن أن يحطو على بال دلو في رفاقها .. لعلها تلتفت فقط لتعرض على الناس ابتسامتها الحلوة ..

ووقف العروسان في الكوشة والمدعوون يرمون بهما ويهتفون .. وتعهد أن يصل إليها .. وحاول وهو يصافحها أن يقول مبروك .. ولكنه لم يستطع .. ولمس يدها لمسة سريعة كما لمس يد السلانكلي .. ودون حتى أن يرفع عينيه إلى عينيها .. وقبل أن يخطو سمعها تقول :

— أين بشة ؟ ..

ورفع عينيه إليها .. إن عينيها تحملقان فيه كأنها تريد أن تلقى نفسها عليه .. ولكنه أرخى عينيه عنها ونحط دون أن يرد عليها .. ثم سار براحم حتى يخرج من القصر كله دون أن ينتظر كما هو المفروض لسمع عده أم كلثوم ..

وعاد إلى البيت كأنه يلقي بنفسه في جحيم معاناته .. إن جحيم الآخرة أخف من جحيم الدنيا .. وقد انتقل بحبه إلى الآخرة .. وبعد يومين من الزفاف سافر كمال إلى لندن ليعم دراسة الماركسية كما يقول ..

وقد ارتاح لسفره ..

ارتاح من كل عائلة الروزناجي ..

ولكل ما يريد .. وربما أراد اطمئنانه عندما علم أن ابه سيقضى فترة القهرين
في المحاماة التي تنص عليها الإجراءات في مكتب الأستاذ الهامى الكبير
عبد الهادى مرعى .. إنه من أكبر المحامين في مصر ومن أكثرهم احتراماً ..
وهو محام ليس له حياة سياسية .. ليس عضواً في حزب من الأحزاب ..
ولا يعتبر نفسه سياسياً مستقلاً .. ولم يقبل أن يكون وزيراً رغم كثرة المرات
التي عرضت عليه الوزارة مع الإلحاح الشديد .. إنه أستاذ متفرغ
للمحاماة .. وإن كانت مرافعاته أمام المحاكم في القضايا التي يقبل الترافع فيها
تدوى كلماتها شعبياً وتؤثر في كل المجالات السياسية .. حتى إن كثيراً من
كلماته تردد كأنها شعارات .. وقد كان منير معجباً بل مبهوراً بالأستاذ
مرعى منذ كان طالباً .. وقد سبق أن جمع اثنين من زملائه الطلبة والتقوا
بالأستاذ مرعى ليأخذوا رأيه في مشكلة من مشاكل القانون الذي
يدرسونه .. واستقبلهم بما هو معروف عنه من بساطة وأهدى إعجابه يومها
بطريقة عرض منير لأرائه القانونية .. وهو ما شجع منير على أن يطلب لقاءه
مرة ثانية بعد فترة طويلة .. وفرح بأن الأستاذ لا يزال يتذكره .. ولم يتردد
الأستاذ بعد أن تخرج منير في أن يقبله تحت المهرى في مكتبه ..

وأصبحت كل حياته داخل مكتب الأستاذ مرعى .. كان يذهب في
الصباح الباكر لينظر الأستاذ ثم يذهب معه إلى المحكمة أو يكلف بالذهاب
إلى محكمة أخرى ليؤدى إجراءات سهلة كطلب التأجيل .. ثم يعود إلى
المكتب ويبقى فيه إلى المساء ويقوم بكل ما يطلب منه أو ما يسعى إلى القيام
به حتى بدأ يعرف عنه الأستاذ وبقية زملائه المحامين في المكتب قدرته الرائعة
على كتابة المذكرات القانونية .. وإن كان قد احتاج إلى فترة طويلة قبل أن
يعرف بأنه يجيد الترافع أمام المحاكم .. إن المرافعة هيلقاء خطاب أمام

القضاة وجمهور المحكمة وهو لا يهوى الخطابة ولم يحاول منذ كان طالباً أن
يكون خطيباً .. لذلك ظل طول حياته متوقفاً في كتابة المذكرات عن تفوقه
في خطب المرافعات .. وبجانب كل هذا أصبح معروفاً بالجهد الكبير الذي
يبدله في عمله حتى كان الحاسدون يقولون عنه إنه حمار شعل ..

وكانت الفرحة الكبرى التي أحاطت به منذ احترف المحاماة هي فرحة
صديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. لقد أصبح يستقبله في المحل بترحاب
كبير كأنه يستقبل شخصية رسمية .. حضرة الهامى .. ويتباهى به أمام كل
أهل المحل وأصحاب الدكاكين ومن يعرفهم من جماعة الإخوان المسلمين ..
وأصبح يسعى ليحبل عليه كثيراً من القضايا .. حتى الأستاذ منصور
أحمدين عضو الإخوان أصبح يعهد إليه بقضايا ينها قضايا سياسية للإفراج
عمن يقبض عليهم من الإخوان .. وهو يختار في قبول مسؤولية هذه
القضايا .. لا شك أنهم لم يلجئوا إليه إلا لأنه يعمل في مكتب الأستاذ
عبد الهادى مرعى .. والأستاذ مرعى يقبل القضايا نظير أتعاب ضحمة ..
وهو لا يستطيع أن يفرض عليهم نفس الأتعاب .. كما أنهم يلجئون إليه
ليدفعوا أتعاباً أقل جداً .. وكان يحاول أن يثمنهم بأن ليس من حقه بعد قبول
قضايا باسمه لأنه لا يزال تحت القهرين .. ولكنهم كانوا يصرون حتى بدأ يغلبه
التأكد بثقتهم فيه وتقديرهم له .. ويزداد حيرة .. إلى أن حل له المشكلة
الأستاذ مرعى نفسه ..

كان الأستاذ مرعى قد أظهر تقديره للجهد الذي يبذله منير في عمله بعد
فترة قصيرة من انضمامه إلى مكتبه .. فخصص له منذ الشهر الأول عشرة
جنيحات كمكافأة شهرية .. وقد فرح بهذه الجنيحات العشرة فرحة هائلة ..
كانت أول جنيحات يكسبها بنفسه ويحصل عليها بعمله .. وقد حمدها كما هي

وذهب بها إلى أبيه ووضعها في يده دون أن يتكلم .. وفرح أبوه واحتضن ابنه إلى صدره .. لقد بدأ ابنه يكسب ويتحمل مسؤولية نفسه .. وابتعد الأب قليلا ثم عاد وأعاد العشرة الجنيات إلى يد ابنه بعد أن أضاف إليها جنيتين .. ومال منير يقبل يد أبيه .. إنه صاحب الفضل عليه وسيبقى دائما صاحب الفضل .. وعرفت الأم وأخواته البنات بأنه حصل على أول كسب في حياته فهلن مباركات صالحات ضاحكات .. لم يكن ينقصهن إلا إطلاق الزغاريد .. وصاح فبين منور :

— كل واحدة تحمد الهدية التي تردها .. ما عدا أمي فأنا الذي سأختار لها ..

واشترى لكل أخت ما ترده كهدية واشترى لأمه طرحة غالية توضع على الرأس كان منذ سنوات قد سمعها وهي تبدي إعجابها بها عندما رأتها على رأس إحدى صديقات العائلة .. وكانت فرحة استمرت أياما .. كأنه زف إلى عروس .. زف إلى الحيلة ..

ولم يلبث الأستاذ عبد الهادي مرعى بعد فترة قصيرة أن رفع مكافأة منير إلى خمسة عشر جنيها في الشهر وإعجابه به يتزايد .. إلى أن اكتشف حيرته مع القضايا التي نجىء إليه وكيف يعهد بها إلى المكتب .. فناداه في جلسة خاصة وقال له :

— إن كل القضايا التي تميل إليك مباشرة اعتبرها قضايا خاصة بك .. وتحمل وحدك كل مسؤوليتها .. وأعطيك الحق في أن تتقدم بها إلى القضاء باسم المكتب .. أي باسمي .. دون أن تعرضها على .. ودون أن يكون للمكتب أتعاب فيها .. وأنا واثق أنك تستطيع أن تجمع بين قضايا المكتب والقضايا التي تحصلك ..

وعمر منير عن إيماء الأستاذ حقن من الشكر .. إنه أستاذ عظيم يعهد بقاء مستقبل الشاب كأنه يبي مستقبل مصر ومستقبل المهنة بعده .. وأصبح منير ينتقى القضايا الخاصة التي يحرص صديقه عبد الله على إرسالها إليه .. ولم يكن يهتم بتحديد أتعابه مقدما .. إنه يقبل أي مبلغ يرسل صاحب القضية أن يدفعه له .. إلا طبعا قيمة الرسوم عن القضايا فلم يصل إلى حد التبرع بها ويفرض على المتقاضى دفعها .. ورغم ذلك بدأ يجمع إيرادات كبيرا من هذه القضايا .. ليس إيرادات عمام كبير .. ولكنه إيرادات أكبر مما كان يردها في سنوات البداية بالنسبة لنفسه .. خصوصا وأنه لا يزال تحت القمرين ..

وكان تفرغه لعمله في المحاماة يشغله عن مجرد خاطر يخطر له ويحمل صورة حبيبته التي تخلت عنه وتزوجت غيرة .. دلبر .. ورغم ذلك فكان يعود إلى البيت ويلقى نفسه على السرير متعبا فلا يغمض عينه إلا بعد أن تمر عليه صورة دلبر .. إنها لا تزال تعيش فيه .. وكان بعد سفر أحبيها كمال قد انقطع نهائيا عن شلة الماركسية .. لم يحدث إلا أن خلخل عضو الشلة والذي كان زميلا له في المدرسة الثانوية قد اتصل به مرة في تليفون مكتب المحاماة فلم يشجعه على لقاء .. وكانت المحاماة قد فتحت له مجالاً أوسع في الفرجة على الحياة التي تسيطر على طبيعته .. إن القضايا فرجة .. وأصحاب القضايا فرجة .. والمواضيع التي تثار في المكتب تشده إلى مواضيع خارج المكتب .. وقد وجد نفسه مشغولاً أكثر إلى مجالات كل الأحزاب السياسية التي تتبادل حكم مصر .. لم يعد يحصر اتصالاته بشلة الماركسية وجماعة الإخوان .. ولكنه أصبح له القدرة على الاتصال بكل الحركة السياسية .. ولكنه كان يفضل أن يكون اتصاله بشباب هذه الحركة .. إنهم يمثلون الحل

الجديد الذى يجمعهم به .. فيصبح من السهل أن يفهمهم وأن يفهموه .. حتى الخلافات والمناقشات التى تتور داخل الجيل الواحد يمكن أن تستمر مع الفهم .. وإن كان قد أصبح معروفا عنه أنه هادئ فى مناقشاته ولا يصل بها أبدا إلى حد إثارة حنافة سياسية .. كما أصبح معروفا عنه أنه لا يقبل الانضمام الكامل إلى أى حزب أو تجمع أو شلة .. إنه فقط يؤيد عن إيمان حرية الجميع بحفظها هو الآخر بحريته .. وكان يؤمن أيضا بأن الجيل الجديد يجب أن يتفرد بالمسؤولية وحده .. إن سر تشتت وضياح الحركة السياسية كلها أن الجيل الجديد لا يزال تحت قيادة الجيل القديم .. ربما لو كان الأستاذ منصور أمهدين عضو الإخوان المسلمين من نفس جيله لانتفع بما عرضه عليه من أن تكون الجماعة حزبا سياسيا .. ولكنه من الجيل القديم ..

وفوجئ منى وهو يعيش هذا الزحام فى عمله وفى أفكاره وفى مجالات الفرجة بخطاب يصل إليه من لندن .. من صديقه كمال الوردناجى .. إنه هو الذى حرص أخته على أن تتزوج غيرة ورغم ذلك فهو لا يزال مصرا على الارتباط به .. وهو خطاب طويل يحدثه فيه عما اكتشفه بدراسته فى كمبريدج من تمسرات جديدة للماركسية .. ويحدثه عن تطسورات التنظيمات الماركسية فى بريطانيا وغيرها .. وابتسم منى وهو يقرأ كمستفرح .. إن الحركة الماركسية تنشط وتوسع فى مصر أيضا حتى إن سفير مصر فى موسكو البندارى باشا قد أعلن عن ماركسيته وأصبح يسمى الباشا الأحمر .. إن كمال عندما يعود سيجد المجال أمامه أوسع مما تركه وربما أصبح يسمى هو الآخر .. ابن الدوات الأحمر .. أو الوردناجى الأحمر ..

وجلس يكتب ردا على خطاب كمال .. إنه هو الآخر لا يريد أن يفقد صداقته رغم كل ما ناله من طغيانه .. طغياك طبقة أولاد النوات رغم أنه ماركسى ..

ثم فوجئ مفاجأة أكبر عندما اتصل به عادل السلانكى بتلفون المكتب .. ماذا يريد منه هذا الحقير ؟ .. أنه يعلم أنه يحتقره حتى من قبل أن يتروح دليز .. فماذا يريد منه ؟ .. وقال له السلانكى فى صوت طبيعى : — إن عندى قضية .. وقد اتفقا على أن خير من يتولاها هو أنت .. وقال منى ساخرا :

— مع من اتفقت ؟ ..

وقال السلانكى فى بساطة :

— مع زوجتى .. إنها تعرفك وصديقة أختك كما قالت لى .. ويظهر أن أختها كمال كان يحدثها عنك كثيرا ..

واهتز منى وأحس ارتعاشة تزحف على صدره وقال وهو يصنط على كلماته حتى لا ترتعش مع ارتعاشته :

— تفضل فى المكتب الساعة السابعة ..

وقال السلانكى فى هدوء :

— ألا يمكن أن نلتقى عندى فى البيت حتى نوفر على زوجتى المشوار .. إنها قضية تخصها ..

وقال فى حسم :

— إلى أفضل أن أستمع إليك هنا فى المكتب ..

وقال السلانكى بلا مبالاة :

— سأحاول أن أكون عندك فى الساعة ..

وانتهت المكاملة .. ومنير يلوى شفثيه كأنه قرفان .. إن السلاسلكى
نافه .. وروجه دلبر تستعمل تفاهته قطعاً .. إنها لا تريد أن تتحرك حتى
ينسأها ..

وجاء إليه السلاسلكى وجلس مرتاحاً على مقعد بجوار مكتبه كأنه ينوى أن
يطول الحديث .. وقال :

— إنك لم تعد تسأل عن الشلة أو ترانا كمجرد زيارة ..

وقال وهو ينقل عينيه بين زميليه اللذين يقضيان فترة التفرير معه فى مكتب
الأستاذ عبد الهادى مرعى يشاركانه نفس حجرة المكتب حتى إنه كان
يضاظر عندما يأتيه صاحب قضية خاصة ليست من قضايا المكتب أن
يخرج به إلى صالة الاستقبال ويجتمع به هناك .. وقال كأنه يقطع حرية
الحديث على السلاسلكى :

— بإذن الله عندما يعود صديقنا كمال نعود إلى الشلة .. خيراً .. ما هى
القضية التى تشغل بالكم ؟ ..

وربما تبه عادل السلاسلكى إلى أنه لا يجب أن يتحدث عن الشلة لأنهما
ليسوا وحدهما .. أو ربما كانت طبيعته فى الاستسلام للأوامر .. فبدأ يتحدث
عن القضية .. إنها قضية عمارة فى شارع عدلى بوسط البلد وقعت من
نصيب زوجته دلبر عند تقسيم التركة .. وقد مضى أكثر من ثلاث سنوات ولم
تسجل هذه العمارة بعد باسم دلبر .. وبدأ يعرض عليه الأوراق التى تثبت
تقسيم الإرث .. وقال مير :

— ولكنى أعلم أن هناك محامياً يتولى كل شئون العائلة ..

وقال السلاسلكى دون أن يلبس عليه اهتمام :

— إن زوجتى تعتقد أن إخوتها يتدخلون وأنهم لا يريدون أن يتركوا لها
العمارة .. لذلك قررت أن تعتمد عليك ولو لتقع هذا المحامى الآخر
بإستكمال تسجيل العمارة باسمها ..

وقال منير كأنه ينهى الجلسة :

— اتصل بى بعد يومين وأكون قد انتهيت من دراسة الموضوع ..

وقال السلاسلكى كأنه يفره إغراء ساذجاً :

— هل نبدأ بتحديد الأتعاب ؟ ..

وقال منير وهو ينظر إليه نفس نظرة الاستهانة التى ينظر بها إليه دائماً :

— ليس الآن .. إتنى لم أقرر بعد أن أتحمل المسئولية ..

وقام واقفاً ومد يده إلى السلاسلكى مصافحاً وكأنه يطرده ويكرر قائلاً :

— بعد يومين تفضل بالمرور على ..

وجلس يقلب فى الأوراق التى تركها له السلاسلكى وهو يعيش فى كل ورقة
مع صورة دلبر .. وكانت قد مرت حوالى ساعة عندما دق تلفون المكتب

يطلبه .. وسمع صوتها .. وقالت بمجرد أن سمعت صوته ودون تحية :

— هل أقول لك من أنا أم تعرف الصوت الذى تسمعه ؟ ..

وقال وهو يهكم رخصته :

— أعرفه ..

وقالت بصوتها الهادئ الخفى الذى مضت سنوات وهو يملأ أذنيه به دون
أن يسمعه :

— لقد مضى أكثر من عام ولم يجمعنا تلفون ..

وقال والابتسامة التى تملو شفثيه ترتعش معه :

— إنها ظروف ..

وقالت ورنه صوتها تخفت كأنها ارتاحت :

— وهل توافق الظروف التي وجدتها حتى نعود إلى حديثنا ؟ ..

قال وهو يحاول ألا يخرج عن حديثه :

— تقصدين القضية ؟ .. إلى لم أنه بعد من بحثها ..

وقالت بسرعة هادئة :

— لن يكفي بحثها بما سمعته من عادل .. يجب أن تسمع مني .. وأفضل

أن تزورني .. إلى أصبحت صاحبة قضية ..

وتلفت حوله .. إنه لا يستطيع أن يجادلها في هذا التلفون وسط هذا

الزحام من رجال وعلاء المكتب .. ثم إنها فعلا صاحبة حق في أن تطلب

منه أن يزورها .. زيارة عمل .. إنها صاحبة قضية .. وقال وهو يحاول أن

يصد حيرته :

— متى .. ؟

وقالت فوراً :

— غدا ..

قال :

— إلى مرتبط بمواعيد بالمكتب .. إما أن آتي إليك في الساعة الرابعة بعد

الظهر .. أو بعد التاسعة مساء ..

قالت ورنين صوتها يزداد حلاوة :

— بعد التاسعة حتى نستطيع أن نتحدث أكثر .. هل تعرف

العنوان ؟ ..

وقال وكأنه ساهم :

— أعرفه ..

وكان بطبيعته التي تدفعه لأن يعرف كل شيء حتى يزداد علماً قد عرف

أنها منذ تزوجت وهي تقيم في شقة بالمعمارة الفخمة التي بنيت في شارع

الجبيلية .. نفس الشارع الذي عاشا فيه سنوات حبيما .. كأنها تعلمت

أن تبقى معه .. على الأقل مع ذكرياتها معه .. وقد قضى يومه وليله وهو حائر

مع نفسه .. إنه يعلم أنه لن يذهب إليها في زيارة عمل .. إنه يعود إليها ..

يعود إلى حبه الوحيد الذي كان يعيش فيه .. فهل يعود ؟ .. إنه لم يعد يطبق

المقاومة .. وإن كان قد قضى عمره وهو يتفرج على الحياة فدليل كانت

الوحيدة التي لم يستطيع الاكتفاء بالفرجة عليها وعلى طبقتها .. لقد تسلمت

الفرجة في كل أعصابه حتى أصبحت حبا .. أصبحت حياة .. وابتسم

ساخراً من نفسه .. إنه لن يستطيع أن يتفرح على قضيتها كما يتفرج على باقي

القضايا حتى وهو يتحمل مسئوليتها .. إن قضية دلي هي قضية عودته

إليها ..

والثقا .. ومنذ اللحظة الأولى كان لا يمكن أن يكون مجرد عمام .. وتكون

هي مجرد زبونة لهذا المحامي وصاحبة قضية .. الثقا وكأنهما لم يعترقا أبدا ..

وقال وهو يتلفت حوله :

— أين زوجك عادل ؟ ..

وقالت بصراحة من خلال ابتسامتها الهادئة التي تحمل حبا الهادئ :

— تركته يسهر مع أصدقائه حتى نبقى وحدنا ..

ولم يرد ذكر هذه القضية بينهما .. إنه حديث يشمل الماضي كله والواقع

الذي وصلا إليه .. وقد أصبحا كأنهما يستسلمان لهذا الواقع ولا يريدان أن

يضحيا بفسهما فيه بل يتحايلان عليه حتى يعيشاه .. إنه واقع فرضه

المعارف بين ابنة الباشا وابن الأقدى .. وفرض زواجها من غيره .. وهو يحس أنه بدأ يرتفع بنفسه فوق طبقة الأقدية .. إنه ليس موظف حكومة .. إنه يبنى نفسه حرا ويخطو بسرعة في طريق النجاح .. قد يستطيع يوما ما أن يكون باشا لو أراد .. ثم إن زواجها بغيره لا يبرر حرمان كل منهما من الآخر ما دامت لا هى ولا هو كانا يريدان هذا الزواج .. إنه زواج مرضه عليهما المجتمع الطاعى .. ومن حقهما أن يتحديا الطغاة دفاعا عن حقهما في الحب ..

ووجدنا نفسيهما في قبلة .. إنها قبلة أقوى من القبلات التي يذكرانها .. إن قبلة المرأة تختلف عن قبلة الفتاة .. وهى قد أصبحت امرأة .. والرجل في سن العشرين يختلف عن الرجل الذى تعدى العشرين .. وهو قد تعدى الرابعة والعشرين .. ولذلك وجدنا القبلات تشدهما إلى ما هو أكثر ..

وفضت بكارته لأول مرة في حياته .. إن دلير هى حبه الوحيد وهى المرأة الوحيدة التى أصبحت له كلها .. وربما حدث هذا مع أول لقاء بعد الغيبة الطويلة لأنه لم يكن لهما إحساس بأنه نقاء أول .. لقد عاشا أيام العيبة الطويلة وكل منهما مع الآخر .. وعادا كأنهما لم يفترقا أبدا .. أو ربما كانت الوحشة والحرمان الطويل دفعهما لأن يأخذ كل منهما كل ما فى الآخر .. وانتقل مير إلى حياة جديدة .. إن التلفون يجمعه كل يوم بدلير .. قد تتصل به هى فى تلفون المكتب بكلمات قصيرة مراعاة لحو المكتب .. ويتصل بها هو فى كلمات طويلة من خارج المكتب .. فقط من أجل أن يعيش أكثر مع دلير .. وقد حدث التفسير أيضا في علاقته بزواجها السلائكى .. إنه لم يعد يستهين به أو يحتقره بل أصبح يرافقه ويبدى نحوه اهتماما كادبا .. إنه يعترف بأنه أصبح سافكا كادبا .. والسلائكى لا يشعر

بشئ ولا يهم بشئ ..

ولكن دلير لم تأخذه من الشهوة المتأصلة فيه .. شهوة العرجة على الحياة .. شهوة العمل .. وشهوة اكتشاف الجديد .. وكانت لقاءاتهما تخضع دائما لما يتخذه له عمله من فراغ .. قد تتباعد اللقاءات حتى لا يتعد عن عمله عن انطلاقاته داخل الحياة السياسية .. وقد كسب قضية عمارة دلير وسجلها باسمها ورفض طلبا أن يأخذ أتعابا .. إنه يرفض أن يأخذ مليما واحدا من دلير .. بل إنه اتفق معها على ألا يتبادلوا الهدايا .. حتى لا يقع في مشكلة المساواة بين ما عهده وما يهديه .. ولكنه كان قد أتم هرة المحررين على المحاماة .. وكان يستطيع أن يستمر في مكتب الأستاذ عبد الهادى مرعى .. بل إن الأستاذ مرضى بلمح عليه أن يستمر معه .. ولكنه يحلم بأن يكون محاميا كاملا حرا له مكتب خاص .. فأين يجد شقة خالية يقيم فيها مكتبه ؟ .. وعرضت عليه دلير أن يأخذ شقة فى العمارة التى كسب قضيتها حتى لو اضطر أن يطرد منها أحد السكان .. وقبل منير ولكنه اشترط أن يدفع لها الإيجار .. إنه لا يقبل أن تمن عليه .. وقالت دلير ضاحكة :

— تدفع إيجارا بشرط ألا تمده .. تدفع كل شهر ما تريد .. وإلى أينك أن تتركنى أحس بأن هذا المكتب مكسب ما دام مكتبك .. وكانا يلتقيان هذا اللقاء المتباعد فى عمارة الجبلاية .. فى شقة الزوجية .. وأصبحا يلتقيان أكثر فى المكتب الجديد ..

ومير يزداد نجاحا فى عمله .. لقد أصبح محاميا معروفا .. ويزداد نشاطا فى مجال الحياة السياسية التى تجمع الجيل الجديد .. أصبحوا كلهم يقفون به رغم أنه لا يتمنى إلى أى تجمع منهم ويستشيرونه فى كثير من أرائهم

وتحركاتهم .. وقد عاد كمال الروزنامي من لندن .. إنه لم يكتب بلندن بل
 مسافر أيضا إلى موسكو .. وقد عاد وهو متطور فعلا .. إنه يتبع أسلوبا
 جديدا في تنظيم وتوجيه الشلة الماركسية .. وفي اتصالاته بكل التجمعات
 الثورية التي أصبحت القاهرة مزدحمة بها .. وقد عاد وهو أشد حرصا على
 الاحتفاظ بصداقة مير ولم يعد يحاول أن يضمه إلى الشلة أو يقنعه بالماركسية
 ولكنه أصبح كأنه يعتمد عليه ، كأنه مستشار يمينه في تكوين رأيه وتحديد
 تصرفاته .. وكان مير هو الذي بدأ بفكرة الدعوة إلى توحيد القوى الثورية ..
 يجب أن تكون قوة واحدة حتى تستطيع القيام بثورة تنفيذية تصل بها إلى
 حكم مصر .. بعدها .. بعد الثورة يبدأ بتحديد الأمور .. دور كل مذهب
 وكل جماعة .. وبدأ فعلا بأن استطاع أن يجمع صديقه كمال الروزنامي
 الماركسي بالأستاذ عضو الإخوان المسلمين منصور أحمدين في محل بيع
 الأقمشة الذي يملكه صديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. وتركهما
 يتحدثان معا دون أن يتدخل .. يردهما أن يقررا ما يمكن أن يجمعهما ..
 ولا يمكن أن يجمعهما سوى الاشتراك في ثورة واحدة متجاهلين خلافتهما ..
 وكل منهما وافق على أساس اعتزازه بقوته وثقته بأن يستطيع أن يحمي الآخر
 بعد أن تنجح الثورة .. وقد بدأ يسمى بين باقي التجمعات الثورية .. وكثيرا
 توافق على مبدأ الوحدة الثورية وكل تجمع يرحب بالاجتماع بالتجمع الآخر ..
 وكان يجمعهم فعلا في مكتبه .. ويبدو كأنهم اتفقوا على كل ما يحقق
 الوحدة .. ولكن آماله كانت تنهار سريعا .. فالاجتماع لا يكاد أن يفضى
 حتى يتنزل كل منهم بنفسه في تحركاته عن الآخر .. إن كل منهم يخاف
 الآخر .. كل منهم يريد الثورة لنفسه وبقيادته .. يردها على الأقل أن تسب
 إليه ..

وكان مير كلما التقى بكمال يبدو بنظرة صامتة كأنه يسأله .. هل
 عرف شيئا .. هل عرف أنه عاد إلى أخته ؟ .. لا شك أنه عرف أنه أصبح
 على صداقة مع عادل السلانكي .. فالسلانكي دعاها أكثر من مرة
 للاجتماع في بيته .. في شقة شارع الجبلية .. وكانت دليز ترحب به أمام
 أحبابها .. فهل يعلم أنه وصل مع أخته إلى أكثر من الصداقة .. إلى كل
 شيء ؟ .. ربما لم يعرف .. وربما عرف ولم يهتم فقد قال له مرة إنه لا يهتم بالحياة
 الخاصة لأى فرد من عائلته .. ومن حق أخته دليز أن يكون لها حياة خاصة
 حتى وهي متزوجة .. حياة لا تحس حياة العائلة .. حياة الطبقة العليا التي
 لا يمسها إلا الزواج .. وهو لم يتزوج أخته ..

وكان كمال بعد أن عاد من رحلته قد تطور أيضا من هذه الناحية .. فلم
 يكن معروفا عنه أنه على علاقة بأى امرأة أو فتاة .. بل كان كما كان
 مير لا يحس بإحساس الجنس الذي يدفعه للبحث عن امرأة .. ولكنه بعد
 أن عاد بدأ يظهر مع عائشة .. إنها فتاة مثقفة من عائلة متوسطة غير
 معروفة .. وكان يظهر معها كثيرا ويصحبها حتى في لقاءاته مع أصدقائه
 وأفراد الشلة .. ويبدو أنه قد أقنعها بالماركسية أو ربما كانت ماركسية من قبل
 أن تلتقي به .. وقد أصبحت عضوا رئيسيا من أعضاء الشلة .. والجميع
 يعرفون أن ما بينها وبين كمال أبعد من الماركسية .. إنه يملكها .. وهي
 تملكه .. دون أن يهتض أحد على ما بينهما .. كل منهما حر مع نفسه ..
 وقد سألتها مير مرة بعد أن عرفها فترة طويلة .. وكأنا جالس في انتظار
 كمال :

— هل تتزوجان ؟

وقالت مبتسمة في ساطعة :

— تقصد أنا وكال ؟ .. لماذا تزوج ؟ .. إن الزواج وضع اجتماعي معروض للاعتراف بالإعجاب .. أى الاعتراف بالأولاد .. وأنا وكال لا نريد أولادا .. وقال منير معارضا :

— ولكن الزواج هو الوضع الشرعى الذى يعترف به المجتمع حتى بلا إعجاب .. أى أن المجتمع لا يعترف الآن بوضعكما أنت وكال .. وقالت عائشة بلهجة فتاة مثقفة تنهاهى بثقافتها :

— ما هو الوضع الشرعى ؟ .. إنه الإعلان .. أى أن يعلن الرجل والمرأة أن كلا منهما أصبح للآخر .. ونحن قد أعلننا وضعنا أنا وكال عليكم وعلى كل المجتمع .. كلكم تعلمون أنى لكمال وكال لى .. ولسنا فى حاجة إلى المأذون ليسجل هذا الإعلان رسميا .. إن الإعلان الشمسى له قوة الإعلان الرسمى ..

وسكت منير ..

إن هذه هى آراء كال التى رفض بها زواجه من أخته دلبر .. وربما لا يهجه الآن ما يهينه وبين أخته ما دام لا يعلن رسميا حتى ولو كان معلنا شعبيا ..

* * *

ومضى يعيش فى هذا الزحام ولا يكون وحده أبدا إلا عندما تكون دلبر بين أحضانها فى هذه اللقاءات المتباعدة .. وهو واثق أن الثورة الوطنية ستقوم قريبا .. ربما غدا أو بعد غد .. فكل السلطات فى مصر أصبحت مفتة .. الحكم الملكى تفتت وفاروق أصبح أصحوة كأنه بلياتشو فاشل فى سيوك السياسة .. والإنجليز أصبحوا حريصين على الانزواء فى منطقة القضاة .. والأحزاب السياسية كلها مفتة .. حتى الحزب المحترم حزب الوفد .. أصبح كأنه ذكاز فى سوق الكانتو يتأحر فى الملابس

القديمة .. وقوة البوليس أصبحت مفتة .. وقوة الجيش أكثر تفتتيا حتى أصبحت الثكنات العسكرية كأنها تلور فيها المناقشات السياسية أثناء تناول أقذاح القهوة والشاي ..

إن الثورة ستقوم حتما .. كل مصر أصبحت معدة للثورة .. ولا شك أن الجيل الجديد هو الذى سيقوم بهذه الثورة ويتحمل مسئوليتها .. ولكنه لا يستطيع أن يحدد كيف يعد هذا الجيل الثورة .. وكيف يخطط لها .. وكيف يقوم بها .. وقد قامت عدة محاولات ثورية ولكنها فشلت كلها .. ربما لأن حلمه فى توحيد القوى الثورية لم يتحقق ..

إلى أن فوجئ ذات صباح بالمفاجأة الكبرى ..

لقد قامت الثورة ..

واشتدت دهشته ..

إنها ثورة عسكرية ..

بالكلية العسكرية بعد أن انتهى من دراسته الثانوية رغم إلحاح كثير من أصدقائه أهل الحجة الذين التحقوا بها .. فقد كان يعتقد أن الالتحاق بالجيش قاصر على نوعين من الشباب .. أولاد الفئات الذين يريدون التباهي بالبدلة العسكرية والتباهي بأنهم يتولون حماية طبيقتهم التي تتولى الحكم .. أو أولاد الطبقة العادية الذين يعضلون الحرب من الدراسة الجامعية والاعتقاد على مرتب ثابت محرم حتى لو تنازلوا عن حريتهم .. وهو لا يقبل أن يتنازل عن حريته .. لذلك لم يلتحق بالكلية الحربية .. ولم يحاول أن يكتسب صداقة أحد من رجال الجيش .. ولكنه فوجئ عندما وجد بين الصور التي تنشرها الصحف صورة الصديق القديم معتز الجنيدي .. إنه صديق منذ أيام الطفولة وكان يقم في نفس الحى وفى البيت الملتصق ببيته وزامله فى المدارس من روضة الأطفال حتى الثانوى .. ولكنه كان صديقا من نوع عريب .. كان معروفا عنه الانزواء والخجل حتى إنه كان لا يشترك مع باقى الأولاد فى ألعابهم .. ولا حتى يشترك مع أحد فى المذاكرة بعد أد كبر .. لذلك كانت صداقته به صداقة عاتمة لا تجمعهما فى شيء مشترك .. وربما أدخله أهله الكلية الحربية ليأسهى من أنه يستطيع أن يتحمل الحياة أو الدراسة الجامعية أو يعيش حياة أسعد بعد الجامعة .. وهو لم يره أبدا منذ التحق بالكلية الحربية فعاثت نفسها التفتت من الحى لتقيم فى حى مصر الجديدة البعيد .. وقد دهش وهو يرى صورته بين رجال الثورة .. لم يكن ينتظر أن يكون بينهم هذا النوع من الشخصيات .. ولكنه استنتج أنه ليس قطعاً من أعضاء مجلس القيادة ولكنه بلا شك لا بد أن يكون من الصباط الأحرار فهو يتولى مهمة لا يعرقها داخل مجلس القيادة .. وفكر أن يتصل به معتمداً على الصداقة القديمة ويحاول أن يفهم منه اتجاه الثورة وبعض خباياها .. ولكن

وقضى منير أياما وهو يتخبط فى محاولة فهم وتحليل هذه الثورة مع فرحته بها .. كل الشعب يتخبط وهو فرح .. واعتقد فى البداية أنها ليست ثورة .. إنها مجرد ظهور قوة تستطيع أن تفرض إرادتها على الملك وعلى الحكومة لتحقيق مطالب خاصة برجال الجيش .. ثم بدأ تفكيكو يتطور .. إنها ليست مجرد قوة لتحقيق مطالب خاصة .. إنها انقلاب عسكرى سيشمل كل نظم الحكم .. ثم يستمر فكره فى التطور السريع من الأحداث السريعة التي تقع ساعة بعد ساعة .. إنه ليس مجرد انقلاب عسكرى .. إنها قوة تحقق ثورة شعبية بدليل أن القادة العسكريين يعضدون على الشخصيات المدنية التي تمثل القوى الثورية ..

ورما زاد في تحبطه أنه لم يجد بين قادة الثورة الذين يسمع بأسمائهم ويرى صورهم في الجرائد أحدا يحتر صديقا له أو يعرفه معرفة كاملة .. إنه يرى في صور الجرائد وجوها يتذكر أنه سبق أن رآها في بعض الاجتماعات أو الجلسات السياسية .. ولكنه لم يكن بينه وبين أى واحد منهم أى ارتباط شخصى أو حتى ارتباط برأى سياسى .. ربما لأن طبيعة فكره كانت تبعد الجيش عن السياسة .. إن أساس كل ما يؤمن به هو الحرية الشخصية .. وليس من حق أى عسكرى أن يكون حرا .. إن مسئولية ومهمة العسكرى تفرض عليه أن يكون حاضعا خضوعا تاما لأوامر رؤسائه .. أن يخضع للأوامر العسكرية والسياسية .. أيضا .. لقد خرج رجال الجيش عدة مرات ليصدوا ثورات شعبية سياسية إطاعة للأوامر .. وهو نفسه رفض الالتحاق

مستحيل .. إنه لن يشترك في هذا الرحام الذى أصبح يحيط برجال الثورة .. زحام الشخصيات التى تحاول أن تستغل الثورة وتحقق من خلالها أغراضا خاصة ولو مجرد الوصول إلى وظيفة أكبر .. إنه لو اتصل بصديقه القديم معتز فسيستقبله على أنه واحد من المحتاجين المنافقين .. لن يتصل به إلا إذا كان اتصال صدقة ..

وفي هذه الأيام الأولى من الثورة قال له صديقه عبد الله عبد اللطيف :
— إنها ثورة الإخوان المسلمين .. كل هؤلاء الضباط من الإخوان ..
وكان قد بدأ يتبع الاتصالات المستمرة بين قيادة الثورة وقيادة الإخوان .. ولكنه لم يستطع أبدا اكتشاف دور الإخوان فيها .. وكثير من الضباط الذين يتحركون يعلم أنهم فعلا من الإخوان ولكن ليس بينهم من يعتقد أنه يتحمل مسؤولية قيادة ..

وفي نفس اليوم فوجئ بصديقه كمال الروزنامجى يقول له :
— إننا نؤيد الثورة واشتركنا فيها منذ البداية ولنا ممثلون ماركسيون في مجلس القيادة .. لم أكن أقول لك شيئا لأن كل شيء كان يتم في منتهى السرية ..
ودعش منير .. كيف يكون الإخوان والماركسيون قد اشتركوا في ثورة واحدة ؟ .. لعلهم قد تحالفوا سرا كما كان هو نفسه يسمى إلى تحالفهم وهو يسعى إلى توحيد القوى الثورية .. أو ربما كانت قيادة الثورة قد تكونت على أساس الارتفاع فوق كل المذاهب والتجمعات السياسية حتى تجمع بينها .. أو ربما كان صديقه كمال يبالغ في ادعاء أن الماركسيين اشتركوا في الثورة .. إن من طبيعته المبالغة ..

ومرت الأيام وهو يتخبط في أفكاره ولا يحاول أبدا أن يسعى إلى اتصال بأحد من قادة الثورة ويكتفى باستمرار اتصالاته بالتجمعات التى يعرفها ..

تجمعات الجيل الجديد .. إلى أن قال له صديقه كمال :
— لقد قررنا أن نحرك العمال كقوة قائمة بذاتها ..

وقال متعجبا :

— كيف ؟ ..

وقال كمال في لهجة القائد الأعلى :

— سيتحركون في دمنهور وفي شبرا الخيمة وفي أسيوط وطبعا في القاهرة مطالبين بحقوقهم في تولي إدارة مصانعهم ..

وقال منير كأنه ينصحه :

— ولماذا لا تبدأ هذه التحركات بالاتصال بين القيادات وقد تصل إلى تحقيق مطالب العمال دون أن يتحركوا ..

وقال كمال في صوت عال كأنه يلقى خطابا :

— لا .. إننا نحيش العترة الوحيدة التى يستطيع العمال فيها أن يثبتوا وجودهم كقوة .. إن الثورة إلى الآن مركزة في قوة الجيش .. وكل القوى الأخرى تحاول أن تثبت وجودها بجانب قوة الجيش .. الوفد يبرز قوته .. والإخوان المسلمون يبرزون قواهم .. وكل تجمع يبرز قواه .. وهى الفرصة الوحيدة التى يبرز فيها العمال قوتهم .. قوة الطبقة العاملة التى تعترف الثورة بها ..

لم يستجب منير لرأيه ..

وكان منذ بدأت الثورة قد ترك بيت العائلة وأقام في مكتبه .. مكتب المحاماة .. الذى كان قد خصص فيه حجرة تعود أن يلتقى فيها بدليو .. وهى لا تزال تحاذى في التلفون وتتردد عليه في مكتبه .. ولكن لقاءها وحديثها أصبح شيئا آخر .. إنها خائفة حتى لا يستطيع حبا أن يتغلب

على حقوقها .. خصوصا بعد أن عزل فاروق عن الحكم .. إن كل الحياة التي تعيشها بدأت تنهار .. وهي تسمح أن الثورة ستفضي على كل العائلات المالكة القديمة .. وطبعا من بينها عائلة الروزناجي .. وهي تسمح أنهم سيأخذون منهم الأرض .. إن أرضها هي أساسا أرض أمها قبل أن يقلها أبوها إلى اسمه .. وأمها من عائلة الملك حتى لو كانت تنتمي إليها من بعيد .. فكيف يتركون لها الأرض أو أرض زوجها السلانكي ؟ .. وكيف يعيشان بعد أن يفقدوا الأرض ؟ .. ومنير يقضي اللقاء كله في تهدئتها .. إن من حظها أنها وإخوتها قسموا الأرض بعد وفاة أبيها .. وقد سمع أن الثورة ستحدد ملكية الأرض بثلاثمائة فدان .. ولن تكون هذه الثلاثمائة فدان ملكا لهم جميعا بل سيكون كل واحد فيهم مالكا لثلاثمائة فدان .. وإيرادها يمكنها لتعيش كما هي .. بل إنها ستكون أغنى من زوجها لأن أولاد السلانكي لم يقسموا الأرض بينهم .. ثم إن العمارات لم يأت ذكرها في أى مشروع .. وهي تملك هذه العمارة التي تضم مكتبه وسيدفع لها الإيجار إذا احتاجت .. ثم من يدري ما يمكن أن يحدث ؟ .. كل هذا الكلام مجرد مشروعات لا تزال الثورة عاجزة عن تحقيقها .. ولا تدري بعد كيف تحكم حتى تغطي عجزها .. ولكن دليلا لا تطمئن أبدا .. ولا تتوقف فيها ارتعاشة الحرف حتى وهي بين أحضانها تحاول أن يوقف بشفقة ارتعاشة شفتيها .. وفوجئ منير بعد أيام بثورة داخل مصانع دمهور استولى بها العمال على إدارة المصانع .. تحققت أهداف كمال الروزناجي .. ولكن مجلس القيادة في القاهرة واجه هذه الثورة العمالية بعنف فاقع حكومات ما قبل الثورة حتى إنه أرسل قوات من الجيش احتلت دمهور وقبضت على العمال المضربين الثائرين .. ولم تستمر هذه الثورة إلا يوما واحدا .. وقد تم بعدها

بأيام الحكم على اثنين من قادة هؤلاء العمال بالإعدام .. لأول مرة تصل أحكام الإعدام في مصر إلى رقاب الثوار ..

وبعد ما حدث في دمهور يومين اثنين فوجئ منير في ساعات أخيرة من الليل بباب مكتبه يدق بعنف حتى أيقظه من النوم .. وفتح الباب ليجد أمامه ضابطا من ضباط البوليس ومعه أربعة عساكر وقال له في هدوء :

— تفضل معنا ..

وقال منير في دهشة :

— هل تقبضون على ؟ ..

وقال ضابط البوليس وهو يتنسم كأنه يشفق عليه :

— إنك مطلوب .. ربما لسؤالك بضعة أسئلة ..

وقال منير بلهجة المهمل :

— أريد أن أعرف حتى أعد نفسي ..

وقال ضابط البوليس من خلال ابتسامته :

— أنا نفسي لا أعرف ..

وقال منير كأنه يستجيب لهدوء الضابط :

— هل تسمح لي بارتداء البذلة ؟ ..

وقال الضابط :

— تفضل ..

ولكنه دخل وراءه إلى الحجرة الداخلية التي يبذل فيها ملبسه .. وعاد سير يقول له :

— هل آخذ معي حقيبة ملابس ؟ ..

وقال الضابط في صوته المهذب :

— خذ .. من باب الاحتياط ..

وتعمد أن يراقب ما يضعه منير في الحقبة الصغيرة التي حملها .. ثم صاحبه بين العساكر إلى سيارة البوليس .. وسأل في أدب والسيارة تتحرك به :

— إلى أين ؟ ..

وقال الضابط في إشفاف واعتذار :

— ستعرف عندما تصل ..

ولم يلح منير في سؤاله .. إنه يقدر لهذا الضابط معاملته المهذبة .. إنه يطبق الأوامر في رفق .. ولعله لا يعلم فعلا لماذا يقبض عليه .. إنها ليست ثورة البوليس .. إنها ثورة الجيش .. وضباط البوليس لا يعلمون شيئا مما يجري في الثورة إلا تنفيذ الأوامر ..

وسارت السيارة طويلا حتى بدأت السماء تتفتح على نور الفجر .. ودخلت السجن الكبير .. إنه سجن أبو زعبل ..

وقال منير وضابط البوليس يسلمه إلى ضابط السجن ويقدم إليه الأوراق الخاصة به .. قال في أدب :

— هل أستطيع أن أعرف الأسماء الموجهة إلى ؟ ..

ورفع إليه ضابط السجن عييه في دهشة .. ثم عاد وأطرق في أوراقه .. ثم قال له ساحرا :

— اسأل نفسك يا حضرة المهامي ..

ثم قام وأخذ يفتش جيوبه ويخرج منها كل شيء حتى منديله ويأمره بأن يخلع الرباط عن حنائه ويأخذ منه ساعة يده ثم شنه من كتفه وسار به إلى داخل السجن ومعه مجموعة من العساكر إلى أن وقف يفتح بالمفاتيح باب

زنازة كبيرة .. كأنها ملجأ أيتام .. ودفعه كأنه يلقي به داخلها ثم أعلق الباب وراءه دون أن يلغظ بكلمة .. وشهق مير دهشة .. إذ صديقه كمال الروزماحي يقف أمامه داخل الزنازة .. ومعه عادل السلانكلي .. وخليل .. وكل أفراد الشلة الماركسية .. ومعهم عدد كبير من أفراد لا يعرف معظمهم .. لعلهم ماركسيون .. واحتصنه كمال وهو يقول ضاحكا :

— الآن أنت ماركسي بحكم الواقع ..

ورفع منير عينيه إلى وجه كمال وهو يتندب في سخط واستسلام .. فرأى على وجهه كدمات تشق انفه وصديغه ويبدو أنها كدمات حديثة فلا تزال تحمل لون الدم .. فقال في جرع :

— ما هذا .. هل كنت في معركة ؟ ..

وقال كمال مع ضحكته :

— لا .. كنت في مناقشة ..

وأفسحوا لخير مكانا على الأرض بفرش عليه البطانية التي ألقاها المسكري وراءه بعد أن رج به .. واستلقى عليها وكلهم من حوله يسألونه عن آخر الأخبار .. ثم انهالت عليه الكات لأنه جاء إليهم وهو مرتد بدلة كامنة وقميص ولا بد أن ضابط السجن قد نزع منه رباط العنق .. ومنير سارح بعقله وسط كل هذه الضجة التي أقامها زملاء الزنازة ترحيبا به .. إن من السهل عليه أن يعرف أنه ليس مقبوضا عليه في قضية محددة .. إنه معتقل ضمن المعتقلين الماركسيين .. ولكنه ليس ماركسيا .. ثم إنه لم يشترك في أي تحرك أو أي عمل قام به الماركسيون .. إنه كان يعرفهم كمتفرج .. حتى الآراء التي يذيعها هي مجرد آراء متفرج على ما يخطر أمامه دون أن يكون له دور فيه .. وأعجب آرائه كانت دائما آراء رافضة معارضة .. فلماذا

يعتقلونه ؟ .. هل لأنه صديق كمال الروزنامجي ؟ .. إن الصداقة كالأحوة
وهم لن يحتفلوا فؤاد أخا كمال .. كيف يدافع عن نفسه ويقول لهم كل هذا
الكلام .. ويقولون لمن ماداموا لم يحققوا معه ؟ ..
وبدأت أيام السجن ..

أيام تستمد فيها الحياة من تعمد إثارة المناقشات .. إسم يتناقشون دائما
كأنهم يتنفسون الهواء .. إن السجن ليس فيه ما يرمز إلى الحياة إلا المناقشة
بين الزملاء المساجين .. وهو قد بدأ يعجب بأفراد الحركة الماركسية .. إسم
بسرعة استطاعوا أن يظموا أنفسهم داخل السجن .. ويتفقوا على أسلوب
للتعامل مع إدارة السجن ومع السجناء بحث بكسبون رضاهم
ويطمئنونهم على استسلامهم .. وهم مستسلمون فعلا .. لا يحاولون تحدي
ما يفرض عليهم .. ولا يخطر على بالهم أى تفكير فى الهرب .. وكلى آمالهم
معلقة بما يمكن أن يحدث خارج السجن لا ما يحدث داخله .. الوحيد
الذى كان يخرج على هذا الاستسلام هو كمال الروزنامجي نفسه .. ربما لأنه
عاش طوال عمره سيدا .. ابن باشا .. فلا يستطيع أن يستسلم ليعيش
عبدا للضباط والعساكر .. فكان يثور في وجه أى ضابط وأى عسكري ..
ويحتداهم في تصرفاته كأنه لا يزال مقتنعا بأن هؤلاء هم العبيد وهو
السيد .. ولذلك كان الضابط يعتدون عليه كثيرا بالضرب .. وأحيانا
يعزلونه في زنزانة منفردة كأنها قبر تحت الأرض .. بل إنهم أكثر من مرة
أصدروا قرارا بجده .. وكان يجده يعنف أمام المساجين بعد أن تصفهم الإدارة
حوله كأنها تدعوهم لحضور حفل كبير .. حفل للحد .. وكان كمال
يتعذب .. والسياسة تركت أثرا ثابتة دائمة على جلده الأبيض .. وأصابع
العساكر ترقد على وجهه إثر الصفعات التي تهال عليه .. وكان كمال يعاني

ويتعذب ويرقد أياما عقب كل علة دون أن يستطيع الحركة .. وربما حاول أن
يعدل عن طبيعته .. طيبة السيد .. ولكنه كان لا يلبث أن يعود إليها ..
وكان أشد ما يحرص عليه هو أن يعمر بكل تصرفاته بحيث تسب إليه
وحده .. حتى لا يعرض أحدا من زملائه المساجين إلى معاناة ما يعانيه من
وسائل التعذيب .. ولم يفكر أبدا في القيام بعمل جماعي داخل السجن ربما
لأنه لم يجد خطة يمكن أن يحققها بعمل جماعي .. أى بثورة .. إنه مهما كان
فهو إنسان شهيم .. زعيم ماركسي شهيم ..

وقد حاول عادل السلانكي مرة أن يتحدث السجن تقييدا لكمال ..
إنه طول عمره شخصية مقيدة تافهة .. ولكنه بعد أول علة انصبت عليه
أصبح مستسما ولم يعد يقد كمال في شخصية السيد ..
ومر مستسلم منذ أن خطا بقدميه داخل السجن .. ويعينه على
الاستسلام متعته كمتفرج .. إنه يتفرج على مسرحية جديدة من
مسرحيات الحياة ..

ولم تذكر الصحف شيئا عن الاعتقالات أو أسماء المعتقلين .. ممنوع ..
والعائلات لا تعرف كيف احتفى أولادهم ولا أين اختفوا .. وفي كل بيت
مأتم يستقبل المعزين مع احتفاء جثة الميت .. وطبعا كان محرما تبادل
الخطابات بين المعتقلين وأهلهم .. ولكن كان هناك بعض العساكر
يتطوعون بتزيين هذه الخطابات نظير أتعاب سحبة يقبضونها من كل عائلة
يصلون إليها .. إنها سوق رائجة للكسب ..

وم يحاول منير أن يهرب خطانا إلى أبيه وعائلته .. إنه يتصور العذاب
الذى يعيشون فيه .. وهو الذى يهدمهم .. ربما لو كان قد حسب حسابهم
منذ البداية لما أقدم على حياة العرجة التي يعيشها .. أو لاختار ما يترج

عليه حتى لا يعرضهم للعداب من أجله .. وهو مهمما على من وحشة إليهم
ومن الوجود داخل السجن ههـ معاناة أرحم من أن يتفرغ دقائق بمواجهة أبيه
وأمه وأخواته وهو يكتب لهم خطابا .. كيف يخفف عنهم ما صبه عليهم من
عذاب ؟ .. كيف يواجه المحرم ضحاياه ؟ .. أما حبيبته دليـر فشيء
آخر .. إن لها حياة وله حياته .. ولن تتأثر حياتها بعد أن انتقل بحياته إلى
داخل السجن .. لذلك لم يفكر أبدا في إرسال كلمة لها .. إلى أن وجد
صديقه عادل السلاكي يكتب خطابا لهدية لزوجته دليـر .. فقال له
باختصار :

— قل لزوجتك أن تتصل بأختي وتطمئنها ..

واستمرت أيام أبو رجب شهرين .. إلى أن فوجئ الماركسيون المعتقلون
بإيقاظهم في الليل وإخراجهم من الزنازين وتحميل كل منهم حاجاته
المسموح بها واتخاذ إجراءات سريعة معهم انتهت بحشرهم في سيارات
أوتوبس مع عدد من الحراس ونقلهم إلى محطة السكة الحديد ثم حشرهم في
قطار تحرك بهم .. إلى أين ؟ .. واستطاعوا بسهولة أن يستجروا أن القطار
يسير بهم في اتجاه الصعيد ..

وهم رغم حيرتهم التي تنطلق مع جزعهم يحاولون التخفيف عن أنفسهم
بالغناء وتبادل النكات وبالرقص البلدى وأحيانا تهد قواهم فيسودهم صمت
حزين .. صمت الاستسلام .. أو ربما بدأ يهدم الجوع .. فهم منذ
أخذوهم من أبو زعبل لم يقدموا لهم شيئا من الطعام .. ولا هذا الخبز الأسود
العطـر . وفي آخر النهار وصل بهم القطار إلى أسيوط .. ووجدوا المظفة
يحتلها قوات ضخمة من قوات البوليس .. كان كل بوليس الصعيد يجمع
فيها .. وأنزلوهم كأنهم يلقون بهم على الأرض .. وعادوا وجمعوهم في سيارات

صحبة سارت بهم طويلا في طريق الصحراء .. إنه الطريق إلى الواحات ..
إلى أن وجدوا أنفسهم أحياء أمام مجموعة من الخيام ملقاة وسط الصحراء ..
هـا سيعيشون .. إنه اعتقال جديد أقامته الثورة خصيصا لهم .. وما داموا قد
ألقوا بهم وسط الرمال بعيدا عن كل مظاهر الحياة .. فمعنى ذلك أن الثورة
نقلتهم إلى عالم آخر .. حكمت عليهم بالاختفاء من الدنيا إلى الأبد ..
بالموت .. وربما لم تنفذ فيهم الإعدام لأن عددهم كبير وقد تستغل جثثهم
الصحف الأجنبية للتشهير بالثورة ..

وانهار معظمهم ملقيا بنفسه فوق الرمال .. وظهر أمامهم المسئول عن
المعسكر .. إنه من ضباط البوليس أيضا وليس من ضباط الجيش .. ضباط
الثورة .. وأمر فوراً بتوزيع أرغفة العيش عليهم .. كل فرد رعيفاً واحداً من هذه
الأرغفة السوداء العظنة .. ثم طلب اثنين من المندوبين عنهم يتولون توزيعهم
على الخيام .. إنه ضابط يبدو معقولا رغم جديده .. ويصدر أوامره كأنه
يفصل التفاهم .. على كل حال فلا شك أنه مطمح على تحمل مسؤوليته
فلا أحد من المعتقلين يمكن أن يعمر في الحرب إلا إذا فكر في الانتحار
باللقاء نفسه في رمال الصحراء ..

وبدأت أيام معتقل الواحات ..

وقد ازداد إعجابا بالعقيلة الماركسية .. العقلية العلمية .. فقد استطاعوا
أن يظموا أنفسهم بشكل جديد بعد أن انتقلوا إلى الواحات .. كانوا كأنهم
يقيمون لأنفسهم دولة لها نظمها ولها قوانينها ولها تقاليدها .. ووصلوا إلى أن
تحملوا مسئولية العمل كله داخل معسكر الاعتقال .. وملئوا كل فراغهم
بإقامة فرق ومباريات رياضية .. وانطلقت المواهب الفنية بينهم تكتب وترسم
وتسحت تماثيل .. وقد كتبوا أكثر من مسرحية وشيدوا مسرحا يمثلونها عليه

ويدعون قائد المعسكر والصباط والعساكر ليكونوا بين المتفرجين .. بل إن القائد ورجاله اندمجوا بين المعتقلين كأنهم تجمعهم حالة واحدة ومصيبة واحدة . مصيبة الإلقاء بهم جميعا في عمق الصحراء .. وربما كان الضابط أو الخندي يتعذب بهذه المصيبة أكثر من المعتقل .. فهو لم يرتكب جريمة أو لم يكن يؤسس بمذهب سياسي معين أو يحاول تحقيق أهداف هذا المذهب حتى يكون هناك ما يبرر إلقاءه في الصحراء وبهية على التحمل كالمعتقلين .. ولكنه ألقى به في الصحراء بحكم وظيفته .. وقد أصبح يكره هذه الوظيفة ويندم ويتهم نفسه بالغياء لأنه احتارها لنفسه .. احتار أن يكون رجل بوليس ..

ولم يكن كمال الروزنابجي هو رئيس أو زعيم هذه الدولة الجديدة .. دولة صحراء الواحات .. إن الشلة الماركسية التي كونها وتزعمها لا تمثل أغلبية المعتقلين .. إنها شلة تمثل أقلية صغيرة .. وربما كان السبب الأقوى أن كل المعتقلين لا يزالون يعتبرونه ابن باشا .. ومهما بلغت ثقهم في إيمانه بالماركسية فهم يحسون بأن دوافع إيمانه تختلف عن دوافع إيمانهم .. ورغم ذلك كانوا يعاملونه باحترام كبير ويضفون عليه بعض مظاهر عظيمة الزعامة حتى يشجعون طبيعته .. أي طبيعة السيد .. دون أن يتركوا له حرية الزعامة .. والواقع أنه لم تقم في المعسكر .. أو في الدولة الجديدة .. أي مخلفات أو معارك يثيرها التصاحري على فرض سلطة الرئاسة أو الزعامة رغم تعدد التشكيلات والتجمعات أو الأحزاب الماركسية المعتقلة .. كانت الدولة الجديدة تعيش في وحدة كاملة .. وحدة المصيبة .. وتطبيقات ثابتة مستقرة تحقق القدرة على الاحتمال .. احتمال الدفن في رمال الصحراء التي تمتد على مدى النظر من جميع الجهات ..

وكان منير مستمرا في حياة الاستسلام الهادئ .. استسلام المتفرح .. ولكنه لم يكتب بالفرجة فقد كان يشترك في مناقشات تحديد التنظيمات .. بل كان كأنه يكلف بوضع قانون غير مكتوب للدولة الجديدة .. وتوسع في وضع هذه القوانين إلى حد أنها شملت فرض عقوبات على المخالفين للنظم من المعتقلين .. عقوبات نفسية .. أشدها عزل المخالف عن التعامل مع المجموع .. مع المجتمع المعتقل .. أي أن يفرض عليه الخصام .. كان المعتقلون قد قرروا الاعتماد على أنفسهم مستقلين عن قوة البوليس الذي يحكمهم ..

وكان منير قد مضى عليه أربعة أشهر في معتقل الواحات بعد الشهرين اللذين أمضاها في سجن أبو زعبل .. مضت ستة شهور على اعتقاله .. وفوجئ بقائد المعتقل بدعوه يوما إلى لقاء في مكتبه .. بدعوه وحده .. ثم فوجئ بأن وجد في مكتب القائد رجلا في ثياب مدنية تولى هو كل الحديث معه .. ورجع منير بعد كلمات أنه لا شك من رجال المخابرات .. وهو لا يتكلم بأسلوب رجال البوليس .. إنه من رجال المخابرات العسكرية .. إنه ضابط جيش ..

وقال له ضابط المخابرات :

— هل لازلت ماركسيا .. أم استفدت من الدرس الذي تلقينته ؟

وقال منير في هدوء :

— أنا لم أكس أبدا ماركسيا .. ولم أكن عضوا في أي تنظيم ماركسي ..

وقال رجل المخابرات ساخرا :

— إنا نعلم أنك كنت الرجل الثاني في شلة كمال الروزنابجي ..

وقال محتفظا بهدونه :

— كل ما بينى وبين الروباجى صداقة قديمة لا علاقة لها بالشللة الماركسية ..

وصاح ضابط المخابرات كأنه يشتم منير :

— إن امثالكم لا تجمعهم صداقة .. لا يجمعهم إلا تدير المؤامرات ..

وقال منير وهو يتهد حتى يخفى سخطه :

— أنا لم أشترك أبدا فى أى عمل يمكن أن تسميه مؤامرة ..

وقال الضابط ساخرا أكثر :

— وهل لازلت مصمما على صداقة الروباجى .. صداقة ابن الباشا ..

وقال منير وهو يشد نفسه حتى لا يقع من الغيظ :

— لم يقع بينى وبين كمال ما يعكر صداقتنا .. فليس هو الذى اعتقلنى ..

وصاح ضابط المخابرات :

— هو الذى اعتقلك .. وما تعتبر صداقة هو ما أدى إلى اعتقالك ..

وقال منير وهو يزفر أنفاسه :

— إن الصداقة حالة تخضع لظروفها .. وتتغير مع تغير الظروف .. أى

لو لم يكن كمال ماركسيا لما اعتقلت أنا رغم أنى لم أكن أبدا ماركسيا ..

وقال الضابط وهو يتسم ابتسامة رسمية كأنه يبلغ منير الخبر السعيد :

— لقد قرنا أن نساعدك على تغيير حالتك .. سنجلك عن كمال حتى

تبتعد عن صداقه .. سنفرج عنك ..

واتسعت عينا منير دهشة مصحوبة بالفرجة :

— هل سيفرج عنى ؟ ..

وقال الضابط من خلال ابتسامته الرسمية :

— فعلا .. سيفرج عنك ..

وقال منير وقد انقبضت فرحته :

— هل سيفرج عنى وحدى ؟ ..

وقال الضابط وهو يلوى شفاهه قرفا :

— وحيدك .. إلا إذا فضلت أن تبقى معتقلا مع أصدقائك ..

وصاح منير فى رجاء :

— لا .. إلى منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه السجن وأنا أتمنى

الإفراج .. لم أقنع أبدا بأن هناك سببا يدعو إلى دخول السجن ..

وتاه منير مع أفكاره .. إنه فعلا فرح بالإفراج حتى لو أفرج عنه وحده ..

ولا يدرى كيف يستقبل بقية المعتقلين هذا الخبر .. ربما اعتبرو بعضهم

كأنه كان جاسوسا عليهم لحساب المخابرات .. ولكن أغليبتهم تعلم أنه ليس

منهم .. ليس ماركسيا .. وأنه اعتقل معهم لمجرد صداقه للروباجى وتردده

على شللة مقهى الأسبوتى .. ربما فرحوا بالإفراج عنه بدافع الإنسانية

وإشفاقهم عليه .. وقد انقسم المعتقلون حوله فعلا .. بعضهم هنأه بالإفراج

مع فرحة صداقة .. وبعضهم لوى شفاهه احتقارا له وابتعد عنه .. واحتضنه

صديقه كمال الروباجى قائلا :

— لقد كنت دائما أتمنى الإفراج عنك حتى دون أن يفرج عنى ..

وأقاموا فى المساء حفلا من حفلاتهم بمناسبة الإفراج عن واحد منهم ..

ولكنه كان حفلا هادئا لم يشترك فيه كل المعتقلين .. ومنير يتلقى مطالب كل

معتقل التى يريد أن يحققها له فى القاهرة .. ويكتب العناوين وأرقام

التليفونات .. ولكنه كان يحتل عن أى مطلب يحققه لأى منهم خارج الاتصال بمائلته .. ويقول صاحبا :
 — إنى متأكد أنى سأعيش طول عمري تحت المراقبة .. ولن أتمكن من حرية الاتصالات ولو باسم الصداقة ..
 وسؤال یرن فی رأسه منذ سمع خبر الإفراج عنه من ضابط المخابرات ..
 لماذا أفرج عنه ؟ .. لقد أفرج عنه وحده أى لم يفرج عنه نتيجة اتجاه سياسى جديد لمجلس قيادة الثورة .. ربما تأكدت المخابرات أنه ليس ماركسيا وأنه مظلوم .. ولكنه لا يعتقد أن البحث عن العدالة يمكن أن يخطر على بال المخابرات .. ربما توسط له أحد المقرين من القيادة .. ولكن من يتوسط له ؟ .. إنه لا يعرف أحدا من هؤلاء المقرين ..
 ولم يجد جوابا على تساؤله .. ولكن الحمد لله .. لقد أفرج عنه ..
 وفى فجر اليوم التالى صحبه أحد ضباط المعتقل فى سيارة إلى أسبوط .. وعلى محطة أسبوط وجد ضابط بوليس آخر فى انتظاره وركب معه القطار إلى القاهرة .. وكان ضابطا مهذبا يعامله باحترام وإن لم يطل الكلام معه .. لم يجد الناس يتكلمون كثيرا ولكن السعادة كانت تملو وجهه طوال الطريق .. ليس سمينا لأنه يصاحب مظلوما أفرج عنه ولكنه ربما كان سمينا مجرد أن صادفته مهمة تحمله لزيارة القاهرة ..
 وصاحبه ضابط البوليس بمجرد وصولهم إلى القاهرة إلى مبنى وزارة الداخلية .. ودخل به إلى مكتب موظف كبير .. وما كاد يدخل هذا المكتب حتى شق من الدهشة ..
 إن مع الموظف الكبير صديقه عبد الله عبد اللطيف والأستاذ منصور أحمدین .. وقفز صديق العمر مهللا بمجرد أن رآه واحتضنه يقبله والدموع

فى عييه وهو يردد كأنه يلمت :
 — الحمد لله على السلامة .. الحمد لله على السلامة ..
 واحتضنه وقبله أيضا الأستاذ منصور .. وصافحه الموظف الكبير باحترام كبير .. وتم ما بقى من إجراءات الإفراج سريعا وخرج من مبنى الوزارة مع عبد الله ومنصور .. إنهما هما اللذان سميا للإفراج عنه .. أى أن الإخوان المسلمين هم الذين أخرجوا عنه .. وقد كانوا فى السنة الأولى من الثورة لهم نفوذ كبير لدى مجلس القيادة .. وقال للأستاذ منصور :
 — لا أدري كيف أشكرك ..
 وصاح صديقه عبد الله :
 — إن الشكر لكل أفراد مكتب الإخوان .. لا تدري كم بذلوا ونصروا حتى وصلوا إلى الإفراج عنك .. إننا سنمر عليهم جميعا واحدا واحدا .. ولا نستطيع لا أنا ولا أنت إغناء حقهم من الشكر ..
 ونظر منير إلى وجه صديقه الدائم فى حب وقال :
 — الفضل لك ..
 وقال عبد الله كأنه يعلن القرار النهائى :
 — الفضل لهم ..
 وسار معهما منير وأفكاره تحيطها ابتسامة متعجبة ..
 لقد أدخله الماركسيون السجن .. وأفرج عنه الإخوان ..

يعرفونه يصيحون فيه .. أين كنت يا رجل ؟ .. مضت شهوور ونحن لا نراك ولا نسمع عنك .. هل كنت مسافرا إلى الخارج ؟ .. ويرد منير ساخرا .. تقريبا .. كنت مسافرا ..

وذهب إلى صديقه عبد الله الذى يدين له بفضل الإفراج عنه .. يدين لشهامته التى عاش فيها طول حياته منذ كان طالبا فى المدرسة الابتدائية وتحولت زاملته له إلى صداقة العمر .. وألح عليه عبد الله أن يبدأ فى زيارة شخصيات الإخوان الذين سعى للإفراج عنه .. وقال منير مترودا :

— إنهم سعى لك وكفى أن تزورهم أنت ..
وقال عبد الله مصمما :

— إنهم كانوا يسعون لك أنت وليس لغيرك أنك صديقى .. إنهم يعرفونك ويقدرونك .. بل إن الأستاذ منصور أحمدين يحتبك من الإخوان رغم كثرة مناقشاتك معه ..
وقال منير فى رجاء :

— إنى خرجت من السجن متعبا وأريد أن أبعد عن المجالات السياسية على الأقل إلى أن أستريح ..
وقاطعه عبد الله ببراءته التى تصل إلى حد السذاجة :

— إن الإخوان ليسوا مجال سياسة .. إننا مجال الإيمان بديننا وما يفرضه الله على المسلمين ..
وقال منير فى أسى :

— حتى المؤمنين قد يصل إليهم الاعتقال والسجن لغير أنهم مؤمنون بالله ..
وصاح عبد الله بسذاجته :

وكانت مفاجأة زلزلت العائلة كلها بالفرجة عندما رأوا ابنهم منير معهم فى البيت .. لقد عادت اللجنة المدفونة إلى الحياة .. والفرجة تعبر عن نفسها بالدموع تروى القيلات .. ولكهم بدوا بسرعة يخفون فرحتهم .. وعدلوا عن فكرة دعوة الأقرباء وأهل الحى لتوزيع الشربات عليهم بمناسبة الإفراج عن منير .. إن كثيرين منهم لا يعلمون أنه كان سجنا معتقلا .. والذين كانوا يعلمون جاءوا للثبته فى هدوء كأنهم يشاركونهم فى التستر على السر .. وقد قضى منير فى البيت أياما يعيش الحنان والحب العائلى الذى افتقده شهورا طويلة ويختار الكلمات المضحكة التى كانت تحدث داخل السجن ويحكىها لهم ليضحكوا معه .. يريد أن يخفف عن أمه وأخواته الينات صورة ما كان يعانيه .. ولم يكن والده يهتم بمحكايات السجن .. كان ينظر فى وجه ابنه بعينه المتعبين المعجوزين ويردد .. يجب أن تكون حريصا على نفسك أكثر .. إن الدنيا فى مصر تتغير كأننا مقبلون على حياة جديدة .. والحياة الجديدة فى حاجة إلى طريق جديد تسير فيه ..

وكان منير مقتنعا بأن مصر بدأت تعيش حياة جديدة .. ولكنه لم يكتشف الطريق الجديد الذى يسير فيه .. إنه لا يسير داخل الأحداث ولكنه يتفرج عليها فما حاجته إلى البحث عن طريق جديد .. إن طريق الفرجة لا يتغير .. ولكنه رغم ذلك بدأ يعاني الحيرة فى أيامه .. ربما ما جد عليه هو ما يفرضه عليه الخوف .. الخوف من أن يعود إلى السجن .. وقد بدأ يخرج من البيت إلى شوارع الحياة .. وكل من يصادفه ممن

— لن تستطيع يد كافر أن تمس أحدا من الإخوان .. إن هذه الثورة هي ثورتنا ولم يعد يتقصها إلا إعلان شريعة الإسلام .. ولنا مندوبون عما في مجلس القيادة .. وكل الضباط والجنود الذين منا أصبحوا هم أصحاب الكلمة .. علاوة على أن الإخوان هم كل المسلمين .. هم الأغلبية الشعبية الكاسحة ..

واستمع منبر إلى كلام عبد الله وهو مشفق عليه .. إنه يعلم أن فكره لا يتسع لأي تقدير سياسي صحيح .. وهو لم ينضم إلى الإخوان سياسيا ولكنه انضم إليهم تبرا .. ويحضر اجتماعاتهم بنفس الروح التي يحضر بها اجتماعات المصلين في جامع الحسين .. ويكرر ما يسمعه منهم كأنه يكرر أحاديث شريفة .. ويشرع لهم بأمواله كأنه يدفع الزكاة .. إنه مجرد شخصية متدينة عميقة الإيمان بالدين .. وقد اضطر أن يستجيب لإحاحه بأن يزور الشخصيات الإخوانية بعد أن اقنعه باختصار بعضهم .. وكان خلال هذه الزيارات يكتفي بكلمات الشكر ولا يدخل في أي مناقشة كما كانت عادته .. ويستمع إلى كل منهم كأنه يستمع إلى محاضره يلقها أستاذ في الراديو دون أن يستزيد الأستاذ أو يسأله أو يناقشه .. وقد أراد صديقه عبد الله بعد ذلك أن يقيم دعوة غدا يدعو إليها الشخصيات الإخوانية وبعض تجار المحي احتفالا بالإفراج .. ولكن منبر رفض إقامة هذه الدعوة أو هذا الحفل وأصر على الرفض واكتفى بدعوة خاصة للأستاذ منصور أحمدين لتناول العشاء على مائدة عبد الله .. إن منبر أصبح يعاني الخوف .. والخوف يدفعه إلى كل هذا الحرص في تحركاته واتصالاته .. وقد استطاع في هذه الأيام أن يقنع صديقه عبد الله بأن يتولى بعض موظفي الدكان وعماله توصيل الخطابات التي حملها من السجن إلى عائلة كل سجين .. إنها لا شك

عائلات مفروضة عليها الرقابة وهو أيضا مراقب وقد تتصور المخابرات أنه يتصل بها لتنفيذ خطة مؤامرة جديدة .. كما أنه كصف صديقه عبد الله بأن يقوم بالاتصال تليفونيا بعائلات المساجين الذين أعطوه أرقام تليفوناتهم .. لا شك أن كل هذه التليفونات مفروضة عليها الرقابة .. وهو واثق أن صوت صديقه عبد الله ليس معروفا ولا مسجلا لدى المخابرات ..

وبدا منبر يتردد على مكتبه .. مكتب المحاماة .. لقد مضت سبعة شهور فقط منذ غاب عنه ولكنه أحس بعد أن دخله كأنه غاب عنه سنوات .. بل أحس كأن شخصيته كمحام قد ضاعت منه وأن عليه أن يبحث عنها حتى يستعيدها .. وأخذ يقلب في أوراق القضايا ويتصل بأصحابها ليلعلم أنه عاد إلى العمل .. واحترار بينهم .. إن بعضهم يعتقد أنه كان مسافرا إلى الخارج ويتركه على اعتقاده .. وبعضهم يعلم أنه كان معتقلا ولكن مادام قد أفرج عنه سريريا فالثورة اعتبرته بريئا أو غفرت له .. وهناك البعض الذين سحبوا قضاياهم من مكتبه وحولوها إلى مكاتب أخرى .. ثم إن منهم — وخصوصا من رجال الأعمال — متفائلون جدا ويحاولون توسيع أعمالهم .. ومنهم وخصوصا من أصحاب الأرض متشائمون جدا وكل ما يسعون إليه هو بيع الأرض قبل أن تؤخذ منهم .. وهو وسط هذه الحيرة العامة يحس أن مهنة المحاماة كلها تهتز وتكاد تسقط وتختفي في قاع كما بدأت تختفي محال صناعة الطرايش بعد أن ألغى الطربوش كغطاء الرأس المصري .. لعله كان يتبا بالعبء عندما أصبحت المحاماة بكل جلالها مجرد وظيفة حكومية .. عندما أصبحت العدالة كلها ليست حقا إنسانيا ولكنها أصبحت أيضا مجرد مصلحة حكومية ..

وحلال هذه الأيام كانت دبر تيش في فكره وإحساسه .. حبه

الوحيد .. لعلها لا تعلم أنه قد أفرج عنه .. ويجب أن يتصل بها .. ولكنها
أنت كآل الروزنامي وزوجة عادل السلانكي وكلاهما معتقل .. وقد اعتقل
هو بسبب صداقته لهما .. ربما اعتقل بسبب حبه لهما .. ثم لا شك أن
تليفونها مراقب .. تليفون عائلة من أكبر العائلات الإقطاعية وأفراد منها تحت
الاعتقال .. ثم إنه لا يدري إذا كانت لا تزال تقيم وحدها في بيت الزوجية أم
انتقلت إلى قصر الروزنامي لتعيش مع أمها .. فأين يتصل بها ؟ ..
وقاوم معاناته .. معاناة الحب .. حتى لا يتصل بها .. ولكنه كان يسير
يوما في الشارع ودلبر مسيطرة على فكره وإحساسه ودون أن يحاول المقاومة
دخل إلى أقرب تليفون صادفه واتصل بها .. وسمع صوتها .. إنها لا تزال تقيم
في شقتها بشارع الجبلية .. شقة الزوجية .. وما كاد يقول .. ألو ..
حتى صرخت :

— منير ..

وقال بصوت أعلى من صوتها كأنه يحاول أن يغطي على ذكر اسمه الذي
نظفت به :

— أختي تحبك .. وتقول إنها في انتظارك اليوم الساعة الثامنة في آخر
الشارع لتذهب معك في سيارتك لزيارة والدتك .. ومع السلامة ..
ولا يدري هل فهمته أم لا .. لقد أراد أن يتحائل حتى لا تفهم الرقابة
المفروضة على التليفون أنه يريد لقاءها في آخر شارع الجبلية .. وأن تأق
إليه بسيارتها كما كانا يلتقيان أيام رمان .. أيام بكارة حبيبا .. فهل
فهمته ؟ ..

وذهب إلى انتظارها .. لقد فهمته فعلا وجاءت إليه تقود سيارتها ..
وكانت فرحتها فرحة يعلبها الأسى والحلموم والصباغ والحيرة .. فرحه يضح فيها

الأخيرة .. وقد بدأ يطمئنها على حال أختها وروحها وهما في معتقل صحراء
الوحدات .. ولكن لا يبدو عليها الاهتمام بحال أختها أو روحها .. إن كل
ما يهتم به هو حالها هي .. لقد أصبحت في متنتي حالة اليأس .. وهي تريد
أن تهرب من مصر كلها .. تريد أن تسافر إلى الخارج .. حتى لو سافرت
بلا ولا مليم تحمله معها .. إنها تعرف بعض الناس في لبنان وفي باريس ..
وفي لندن .. وتريد أن تسافر حتى لو اضطرت أن تعمل خادمة في
الخارج .. وقال مشفقا عليها :

— لم تعد هناك حرية السفر إلى الخارج ..

وقالت وهي تكاد تمهم بالبكاء :

— أعرف .. ولكن الأميرة فايزة استطاعت أن تسافر من مصر .. وتقول

إن الذي ساعدها ضابط من القيادة اسمه البكاشي عزت ..

وقال في عرف ساعط :

— دعي البكاشي عزت يساعدك أنت أيضا ..

وقالت وقد بدأت دموعها تنزف على خديها :

— إن مستعنة أن أرغمي على أي رجل حتى أسافر .. ولكنني قبل أن

أعاني ما عانته فايزة حاول أن تساعدني أنت .. انبحث لي عن طريق آخر

للسفر .. لقد كنت قد فقدت الأمل في أي طريق آخر ولكن بعد أن عدت

إلى عدت أتعلم بالأمل ..

وقال بصوت يائس بعد أن حفف دموعها بشفتيه :

— سأحاول ..

واستمر حديثهما الممزق الحائر وهما محتببان في السيارة واتفقا على موعد

للقاء آخر حتى لا يضطرا إلى حديث التليفون ..

والتقى منير مع زميل قديم يعمل في مكتب محاماة الأستاذ الكبير عبد الهادي برعي الذي قضى فيه فترة التمرين على المحاماة .. اتفق معه على البحث عن طريق قانوني سليم يوفر لدلبر السفر إلى الخارج .. وأوصى دلبر بالاتصال به .. إنه لا يريد أن يقوم بهذه المهمة بنفسه حتى لا يعرض نفسه للشبهات ويمتثل من جدهد ..

وقد استمرت اللقاءات بينه وبين دلبر .. بل إنهما في مرة اتفقا على أن يلتقيا في مكتبه .. وكان قد ترك بيت العائلة وأقام في المكتب حتى يبعد عن أفراد العائلة خوفه وحيوته وما قد يتعرض له من احتمالات .. وكان لقاء أعتدا له وخططا حتى يهربا من المراقبة .. إن كلا منهما يحس بمحاجته إلى الآخر بعد هذا الحرمان الطويل .. ولكنهما عندما التقيا فوق الفراش أحسا كأن جسد كل منهما يكمي مع جسد الآخر .. حتى لو كانت الدموع دموع متعة .. ولم يستطع زميله المحامي أن يحصل لدلبر على إذن بالسفر إلى الخارج .. مستحيل .. وتلقت دلبر الخبر صامتة ثم قالت لمنير وهي تهتمس ابتسامة مرة :

— إن أختي نسيار تعرفت إلى ضابط اسمه الصاغ هاشم .. ونقول إنه ضابط مهم وسيحصل لها على إذن بالسفر ..

ثم لم تزد ولا كلمة وابتسامتها المرة معلقة فوق شفيتها ..

حتى أختها نسيار التي كانت معروفة بالعرفة والتكبر على كل البشر نزلت إلى السوق الجديد تبحث عن ضابط إلى أن وجدت واحدا .. هل تلقى دلبر أيضا بنفسها في السوق .. سوق الرقيق .. سوق الجوارى .. بعد أن وصلت إلى متهى اليأس ؟ .. إنها لا تقول شيئا .. ومنير لا يسألها ولا يحاول أن يعرف .. حتى حبه أصبح مستسلما للقدر ..

ومرت شهور وصبر يتفرج من بعيد على ما يجري في مصر .. إن الاعتقالات بدأت تشمل كل الأحزاب .. وكل الشخصيات التي عاشت الحركة الوطنية .. إنه يستح أن الثورة بدأت تقضى على كل ما كان موجودا قائما .. دود أن يستطيع أن يتصور ما أعدته من جدهد مكان القديم .. إلى أن بدأ الانقسام داخل مجلس قيادة الثورة نفسه .. قامت معركة في داخلها .. معركة عنيفة .. والأحداث والقرارات تتغير يوما بعد يوم .. يوم تقضيه مصر وشعبها في متهى الحرية .. يوم يقضيه كل فرد من أفراد الشعب مكبلا بالأغلال .. وهو مع كل هذه الأحداث لا يؤيد ولا يعارض .. إنه فقط متفرج .. بل إنه حرم على نفسه التفكير السياسي فلم يجد ولو خيطا رفيعا يستطيع أن يطلق به فكره ليصل إلى التنبؤ بالمستقبل .. بل إنه توقف عن الاتصال بأحد من أصدقائه أو ممن يعرفهم وأبعدهم جميعا عن زيارته في مكتبه .. لم يعد يتردد إلا على صديقه عبد الله عبد اللطيف .. إنه رغم أنه من الإخوان المسلمين إلا أنه ليس شخصية هامة ولا معروفة بينهم .. ولا علاقة له بأي تحرك من تحركاتهم .. إنما فقط يتبرع لهم من أمواله .. وهو يستريح إلى التردد عليه في محل بيع الأقمشة .. إنه طول حياته لا يستريح إلا في جلسة ساعة مع صديقه عبد الله ..

إلى أن فوجئ في ليلة بطرقات عنيفة على باب مكته .. إنها طرقات أعنف مما ينتظر حتى تكاد تكسر الباب .. وقام فرعا من النوم وفتح الباب .. إنه ضابط وضعة جنود .. إنهم يقبضون عليه مرة أخرى .. والضابط أعنف من الضابط الآخر الذي سبق أن قبض عليه .. وصاح وهو يلقي بكفه الثقيلة على كتفيه :

— معنا يا أستاذ ..

وقال وهو يتلوى تحت قبضة الضابط كالفرحة التي يعدها للذبح :
 — هل أستطيع أن ألبس ملابسى ؟ ..
 وصاح الضابط صيحة ساخرة :
 — لا يا أستاذ .. هكذا يكفى ..

وجروه وهو مرتد بيجامة النوم إلى السيارة التي تنتظر في الشارع وكانت
 مردحة بغيره من المعتقلين لا يعرف أحدا منهم .. ووقف بينهم وكلهم
 ينظرون بعضهم إلى بعض دون أن يتفوهوا بكلمة ..
 واسطلقت بهم السيارة في طريق طويل إلى أن دخلت بهم إلى سجن عرف
 فيما بعد أنه السجن الحرى التابع للجيش مباشرة .. ودون أن يمر على مكتب
 أو على مسئول جروهم جميعا وألقوا بهم في زنزانة واسعة ..
 وشهق دهشة ..

إن معه في الزنزانة صديقه عبد الله عبد اللطيف والأستاذ منصور أحمدين
 وكثيرين ممن يعرفهم من الإخوان المسلمين .. لقد اعتقل هذه المرة مع
 الإخوان ..

واحتضنه عبد الله وهو يقول وكله يرتعش من صدمة المفاجأة :
 — وأنت ما ذنبتك يا منير .. لماذا حشرك بيننا ؟ ..

وقال منير من خلال الاتصامة المرة :

— إننا دائما معا يا عبد الله ..

وقضى كل أيام السجن وهو فعلا مع عبد الله .. لا يتعد عنه .. وهو
 مستسلم لقسره استسلاما كاملا منطلقا مع طبيعته كمتفرج .. ولكيها
 كانت فرجة مزرة معذبة .. إنه يتخرج على أشبع ما في الحياة .. عندما
 يصبح الإنسان يقوده حيوان .. والحيوان لا يعرف إلا أن يأكل .. يأكل

البند كلها .. ويأكل السلطة .. ويأكل بنى البشر .. وكانت القياد العليا
 كأنها تأكل الإخوان المسلمين وتمزقهم بكل ما في الحيوان من قتل الأنياب
 والمخالب .. ولم يكن الإخوان يفكرون في تنظيم أنفسهم داخل المعتقل ولم
 يصلوا إلى أسلوب علمي للتعامل مع ضباط وجنود السجن كما كان يفعل
 الماركسيون في سجنهم حتى يسعهم بالتحفيف من تعذيبهم .. إنما كان كل
 اعتمادهم على إيمانهم بالله .. ويحملون العذاب كأنه يقرهم من الله ويرتفع
 بهم في طردهم إلى الجنة .. وكل لحظاتهم التي تمر بهم بعيدا عن مخالب
 الحيوان كان لا يشغلهم فيها إلا الصلاة وتلاوة القرآن .. وكان من بينهم
 شخصيات بارزة تبدو كأنها تتولى قيادتهم .. ولكنهم لم يكونوا قادة منظمين
 مخططين ولكنهم كانوا كأنهم أئمة .. كل إمام يقف بالمسلمين ويجلس هم
 تلاوة القرآن ..

ولم يكن ضباط وجنود السجن الحرى يتركوبهم لله ولو هذه اللحظات ..
 كانوا يهجمون عليهم وهم يؤدون الصلاة ويبالون عليهم ضربا بالكرايح
 وأكعاب البنادق كأنهم ضبطهم في مؤامرة .. مؤامرة مع الله .. وقد
 حدث أن كان منير يصلى مرة وحده .. لقد أصبح مفرطاً الصلاة .. ولم
 يعد يجد ما يخفف عنه إلا هذه اللحظات التي يسلم بها نفسه لله .. وإذا
 بقدم جندى ترتفع أمامه بالحذاء الثقيل ثم تنال عليه ركلا حتى يسقط على
 الأرض .. وصاح الجندى :

— إذا كنت تريد الصلاة فاصل لسيدك ..

وقال منير كأنه يشهق آخر أنفاسه :

— إني أصلى لله ..

وصاح الجندى :

— الله الذى يحرضكم قبضاً عليه وأعدماه .. الله الواحد الذى يستطيع أن يفرس عليك أمره هو الرئيس .. فغزى اتجاه القلعة حتى تثبت إيمانك ويروضى عنك .. إن الله الذى تصلى له لن يفرج عنك فصل لمن يفرح عنك ..

وأشار الجندى بأصبعه ناحية القبة الجديدة التى يريده أن يصل لها .. ناحية حى منشية البكرى .. ناحية مجلس قيادة الثورة .. وسكت منير متحملاً الركلات ..

وكان كل ما يشغل منير داخل السجن هو حال صديقه عبد الله .. إنه يتحمل السجن وتحمل العذاب الذى يصب عليه وهو ساهم كأنه لا يحس به .. إن كل فكره وكل إحساسه محصور فى مصير محله التجارى ومصير زوجته وأولاده .. إنها المرة الأولى فى حياته التى يحس عن محله وعائلته .. لم يكن يغيب عنهم من قبل ولو يوماً واحداً .. وتمضى الشهور وهو غائب عنهم .. وكان لا يصارح أحداً من أصدقائه المعتقلين بحالته إلا منير عندما يتخلى به .. وكان منير يحس دائماً أن عبد الله يهتم بالكاء .. ولكنه لم يكن يبكى أبداً أمام أحد .. ولا حتى أمام رجال السجن وهم يعذبونه .. كانت قوة رجولته وشهامته تتحمل كل شيء بلا بكاء .. لن يكون أبداً صغيلاً إلى حد أن يبكى .. ولكن منير استيقظ مرة فى أواخر الليل وهو راقد بجانب عبد الله على أرض الزنزانة وسمع صوت دموعه تنهمر على خديه .. ولم يعد عبد الله يتحمل .. لقد ثار مرة فى وجه السجنائين وأخذ يشتمهم .. يا كفرة .. يا مجرمين .. يا أولاد الكلاب .. وعندما امهلوا عليه بالكرايح تصدى لهم وأخذ يضرب فيهم لا دفاعاً عن نفسه ولكن ثورة عليهم .. حتى عندما جاء الضابط استطاع أن يصل بنزاعه إليه ويضربه ..

إنه قوى .. وبقية الإخوان يتفرجون من بعيد وهم يدعون له بالشفاعة ويرسلون له من داخل صندوقهم آيات من القرآن .. إلى أن انتهت المعركة الصعبة وأخذ الجنود عبد الله واحتضوا به .. ولم يعد عبد الله ..

لقد صوبوا عليه العذاب حتى قتلوه .. مات عبد الله قبل أن يحاكم على اعتقاله ..

وأحس منير كأن كل شيء فى حياته قد انتهى .. أحس كأنه ملجأ مع عبد الله .. وعاش أكثر استسلاماً دون أن يخفف عن نفسه بالفرجة .. لا شيء يتفرج عليه وهو فى القبر .. بل إنه لم يعد يتكلم ..

وقد مضت ثلاث سنوات وهو داخل السجن .. إن سجنه مع الإخوان كأنه لن ينتهى .. ليس كسجنه مع الماركسيين الذى لم يستمر سوى شهر .. وكانوا ينقلونهم من سجن إلى سجن .. يقوهم من السجن الحرقى إلى سجن طرة .. ثم ينقلونهم من سجن طرة إلى سجن أفى زحيل .. إلى أن كان يوم واستدعى إلى مكتب المأمور .. وفقر فاه دهشة .. إن حول مكتب المأمور يجلس صديقه كمال الروزايحي وصديقه خليل أحد أفراد الشلة الماركسية .. ولكنها دهشة لم تنطلق بمثل الفرحة التى انطلقت منه عندما شاهد صديقه المرحوم عبد الله فى ورادة الداخلية عندما أفرج عنه بعد أن اعتقل أول مرة .. وكان قد سمع وهو فى السجن عن أن الثورة بدأت تخرج عن الماركسيين ولكنه لم يكن يتصور أنهم خرجوا من المعتقل ليعملوا مع الثورة .. ويحتلوا من النفوذ والقدرة إلى حد أن يستطيع كمال ريارته فى السجن .. واحتضنه كمال وختيل .. وقال رجل آخر كان يجلس بجانب المأمور لعله منلوب المخابرات :

— مبروك يا أستاذ منير .. لقد أفرج عنك ..

وقال في صوت خافت :

— شكرا ..

وعاد الرجل يقول :

— لقد تأكدنا أنك لست من الإخوان .. وإن كنا قد تأخرنا إلى أن

تأكدنا .. آسفون ..

وقال منير كأنه يحدث نفسه :

— لم أكن أبدا إخوانيا ..

وقال الرجل كأنه يدافع عن المخابرات :

— ولكنك كنت متصلا بهم وصديقا للكثيرين منهم ..

وقال منير وهو يتنهد في أسى :

— كنت صديقا للمرحوم عبد الله عبد اللطيف .. ولم أكن أستطيع أبدا

أن أستغنى عن صداقته .. حتى بعد أن مات وهو معنا في المعتقل فلا زلت

أعتر بصداقته ..

وسكت الجميع كأنهم لا يريدون أن ينظروا إلى عورة من عورتهم

كشفت أمامهم .. وتمت إجراءات الإفراج بسرعة .. وودعه بقية المعتقلين

من الإخوان بلا فرحة ولا تعليق ودون أن يطلب منه أى واحد خدمة يؤديها

له بعد الإفراج .. إنهم في منتهى الاستسلام للقدر .. ربما حتى لو أفرج عنهم

جميعا فليس تسودهم الفرحة أبدا .. كلها أحكام الله إلى أن يدخلوا الجنة ..

وقال له صديقه كمال وهو يجلس بجانبه في سيارته التي يقودها ومعهما

صديقه الآخر خليل وضابط المخابرات .. إنه صابط مباحث .. وليس

ضابط مخابرات عسكرية .. لأنه صحبهم يومها إلى وزارة الداخلية لإتمام

إجراءات الإفراج .. قال كمال :

— لقد كنت أقول لهم .. كيف يعتقل مير مع الإخوان وقد سبق أن

اعتقل معنا باعتباره ماركسيا ؟ ..

وقال منير كأنه يسخر من نفسه :

— إنه نصيب كل من يؤمن بالحرية .. حرية الجميع .. وكل ما يصيب

أى جانب يصيب هذا الذى يؤمن بالحرية .. إلى لا أعتقل لأنى ماركسى أو

لأنى إخوانى .. بل لأنى أؤمن بالحرية ولن أضمن سلامتى إلا إذا كفرت

بالحرية ..

إنها لهجة جديدة يتكلم بها منير .. وقال له كمال مشفقا عليه :

— لا تقل هذا الكلام .. ستبقى دائما حرا كما كنت ..

وتمت بقية الإجراءات في وزارة الداخلية بسرعة .. وحمله كمال وخليل إلى

بيت عائلته وقال له وهو يودعه :

— سأراك غدا :

وقال منير مبتسما :

— بعد غد .. إلى لا أعرف بعد كيف أمام على سرير بعد أن تعودت

النوم على الأرض ..

وفوجئت العائلة بظهوره بينهم .. لقد خرجت اللجنة من القبر وعادت إلى

الحياة .. ولكن المفاجأة كانت أبدا من المفاجأة التي شملتهم عندما أفرج

عنه بعد الاعتقال الأول .. ودموع وقلبات الفرحة كانت أيضا أبدا ..

كأنهم أصبحوا مستسلمين إلى أن هذا هو نصيب ابنهم الوحيد .. وبدأ كمال

فى العادة يحكى لهم عن سنوات السجن دون أن يحسم مالا قاه من

عذاب .. ويدعوا يحدثونه عما مر بهم من أحداث .. ووالده العجوز يستمع

صامتا .. ولم يقل إلا كلمة واحدة هي نفس الكلمة التي سبق أن استقبله بها وهو خارج من السجن :

— الدنيا تعوت أكرها مير .. واحسب حسابك لتتغير معها ..

وقال منير متنبها في بأس :

— ربنا يستر يا أبا ..

وعندما دخل غرفته ليبدل ثيابه دخلت معه أمه ورأت على ظهره خطا أحمر طويلا .. إنه خط تركته لسعة كرناج .. وانمخت تقبل آثار التعذيب ودموعها في عينها دون أن تنطق بكلمة ..

ونام .. كأنه لم يسم أبدا طوال هذه السنوات الثلاث ..

وقام في الصباح وخرج من البيت دون استئذان وانجه كأنه يجرى إلى محل بيع الأقمشة الذي كان يملكه صديقه المرحوم عبد الله عبد اللطيف .. إن أخاه الأكبر أحمد هو الذي يدير المحل الآن .. واستقبله لي يرود .. وقال له منير :

— البقية في حياتك ..

وقال أحمد لي يرود :

— لقد علمنا بخبر وفاة المرحوم ..

وقال منير كأنه يهيم بالبكاء :

— إني لم أكن صديقا للمرحوم وحده .. بل صديقا للعائلة كلها .. وأنا

تحت أمر العائلة و كل ما تريد ..

وقال أحمد كأنه يطرده :

— أنا لست كالمرحوم أخي .. لا يهمني سوى المحل .. ولا دخل لي في

السياسة ولا علاقة لي بالإخوان .. ولا أحب أن أعرض نفسي للشبهات ..

إنه يطرده من الاقتراب منه أو من العائلة ..

وابتعد حزينا .. لقد مات كل ما كان يربطه بصديق العمر عبد الله .. لم

يبق منه إلا ذكريات يعيش فيها وحده ..

وسار يبحث عن صديقه كمال .. إن قصر الروزنامي قد صودر وأصبح للحكومة .. ولم تعد الشقة تجتمع في مقهى الأسبوعي كما كانوا يجتمعون أيام زمان .. واحتار أين يجد كمال ؟ .. وتذكر أن صديقه خليل قد قال له إنه أصبح موظفا في وزارة الثقافة .. فذهب يبحث عنه هناك .. إن كل أفراد الشلة أصبحوا موظفين .. وهم موظفون لهم نفوذ والوزير في كل وزارة يعتمد عليهم .. وقد وجد خليل وأخذه للقاء كمال .. إنه يقيم الآن وحده في شقة صغيرة .. وقال له ضاحكا :

— لقد اتفقنا أن أتركك تنام حتى الغد ..

وقال منير وهو يبادل الضحك :

— ليلة واحدة نمت فيها على سرير كانت تكفي لأعود إلى الحياة ..

وبدا يلتقي بأفراد الشلة .. التقى بصادق السلانكي وسأله خلال

الحديث في لهجة رسمية وقد عاد قلبه ينبض من جديد :

— كيف حال زوجتك ؟

وقال السلانكي ضاحكا :

— سافرت منذ سنوات .. إنها تقيم الآن في بيروت .. وقد أذهب إليها

قريبا ..

وابتسم منير في حيرة .. لا يد أنها وجدت الكباشي أو الصاع الذي

أباح لها أن تسافر كما فعلت الأميرة وأميرة نسليلار .. يجب أن يتخلص

من كل فكره وإحساسه بها .. يتخلص حتى من ذكرياته معها .. إذا كانت

قد بقيت ذكرياته مع صديقه المرحوم عبد الله فلا يجب أن يبقى على شيء من حبيبته دلي .. ورغم ذلك تعود آماله تزحف عليه . هل يستطيع أن يذهب إليها هو الآخر ويتنقى بها في بيروت كما يأمل زوجها ؟ ..

وتمر الأيام وهو يلتقي بأفراد الشلة الماركسية .. لقد أصبح لهم فعلا معوذ كبير في الدولة .. طبعاً بعد أن احتل الاتحاد السوفيتي مصر .. وهم يعرضون عليه أن يتولى وظيفة ذات قيمة .. وهو نفسه بدأ يفكر واقعياً .. والواقع يفرض عليه أن يعلن أنه ماركسي حتى يضمن على الأقل القوة التي تحميه من الاعتقال .. ولكنه لا يزال يرفض الوظيفة ويرفض الانضمام لأي حزب .. إنه بذلك يحتفل نفسه في سجن أعنف من السجون التي كان معتقلاً فيها .. إن السجون إذا كانت تحرم حرية الحركة فهي جبرة لا تحرم حرية الفكر .. إنك داخل السجن تستطيع أن تطلق فكرك لما تريد حتى وأنت مقيد الجسد .. أما الوظائف والأحزاب فهي تحرمك من حرية الفكر حتى لو أطلقت حرية جسدك .. حرية السر على قدميك .. لذلك كان يعتمد عن كل أصدقائه الذين يحبون من كبار الموظفين .. بل ابتعد عن واحد منهم أصبح وزيراً ..

وقد رفض كل الوظائف التي عرضها عليه الماركسيون .. وقد لاحظ أن صديقه كمال الزورباجي ومعه عادل السلانكلي .. لم يوضعا في وظائف رئيسية مهمة .. لعلهما رغم صدق ماركسيتهما ورغم أنهما أيدتا مصادرة قصورهما وأرضهما .. وأرادا أن يؤكد إيمانها بأن العنالة الاجتماعية التي تسود الشعب حتى لو ضحيا بأمل كليهما ومصالحهما الخاصة .. رغم ذلك فهما لا يزالان يسانان إلى أن كلا منهما ابن باشا قديم .. لذلك لا يستطيع أي قيادة أن تظهر اعتمادها عليهما .. واكتفى المسئولون بتعيينهما هما الاثنين

محررين في إحدى الصحف ..

وظل يرفض الوظيفة ويرفض إعلان أنه أصبح ماركسياً .. ولكن الماركسيين لا يزالون محتفطين بصدافته .. إنهم يؤمنون بأنه صاحب رأي يستفيدون منه .. إنه دائماً مستشار لهم حتى لو لم يكن معهم .. ويساعدونه بأن يمدوه بقضايا لها أتعاب ضخمة ويقعون بأن ينضم إلى لجاء بعيدة عن الحكومة لها مكافآت محترمة ..

ولكن الاتجاه نحو الواقعية لا يزال يراوده .. إنه لو كان أكبر واقعية فلماذا لا ينضم للحزب الرسمي .. حزب الثورة والحكومة .. أي ينضم إلى الاتحاد القومي ؟ .. إن الماركسيين فضوا حزبهم وأعلنوا انضمامهم إلى الاتحاد القومي الذي تطور وأصبح يحمل اسم الاتحاد الاشتراكي .. رغم أنهم لا يزالون ماركسيين .. ثم من أدراه بمحير هؤلاء الماركسيين ؟ .. قد تغير الأحوال من جديد ويعتقلون ويعتقل معهم .. إنه ليكون أكثر واقعية فالطريق الوحيد هو أن ينضم إلى حزب أو تنظيم الاتحاد القومي .. ولكنه لا يستطيع ..

إن فكره لا يستطيع أن يتحول ويخرج به عن طبيعته .. طبيعة المتفرج ..

بل إنه لا يستطيع بعد كل ما عاناه أن يلجأ إلى صديق صباه وجاره وابن الحنة .. البكباشي معتز الجنيدى .. إن معتز لم يعد يعرف الآن رتبة البكباشي .. لم يعد يعرف بأى رتبة عسكرية .. ولكنه أصبح يتولى مركزاً مهماً ومسؤولية واسعة من داخل مركز قيادة الثورة .. إن جمال عبد الناصر نفسه لم يعد يعمل أو يعرف بأى رتبة عسكرية .. لا بكباشي ولا فريق .. كذلك كل أعضاء مجلس القيادة ما عدا عبد الحكيم عامر يحكم مركزه

وكان منير في متبى السعادة بقاء أصدقاء الصبا أبناء الحى .. إسم كلهم نأحون في الحياة مع اختلاف درجة نجاحهم .. كلهم وصلوا إلى فوق وأعلامهم هو ما وصل إليه الصديق معتز الجيدى .. إنه صاحب مكتب من مكاتب قيادة الثورة .. وإن كان لا أحد يدري مهمة هذا المكتب .. أهو سكرتير .. أم مستشار .. أم قائم بالأعمال .. وأعمال من ؟ .. أعمال عبد الناصر أم أعمال المشير عبد الحكيم عامر ؟ .. لا أحد يدري مهمته بالضبط .. ولكن الجميع يعلمون أنه أصبح مهما جدا وسلطاته تمتد إلى كل شبر في الدولة وتقوده يصل إلى أى مكان منها .. وكان منير خلال الدعوة يطلب اللصحات إلى معتز .. لقد تقرر عما كان في صباه .. لقد كان معروفا في الحى بانزواته وخجله وسكوته وعدم إقدامه على الاشتراك في ألعاب الحى أو في الحفلات .. إلى أن اختفى عن الحى كله بعد أن التحق بالكلية الحربية وبعد أن تركت عائلته الحى إلى حى آخر .. وظل محتفيا مجهولا إلى أن قامت الثورة فبدأ اسمه يظهر من بعيد .. ثم بدأ هذا الاسم يقترب حتى أصبح من أسماء الصف الثانى بعد صف أعضاء مجلس القيادة .. إلى أن أصبح اسمه يتردد حتى مع أسماء مجلس القيادة .. ووصل إلى كل هذه السطة وهذا النفوذ .. وهو يجلس الآن بين أصدقاء الصبا بشخصية أخرى . شخصية معتزة بنفسها وكأنه يتباهى بسجانه وشطارته وذكائه .. وهو ليس بخجولا ولا منزويا كما كان .. إنه بفرص شخصيته .. ويبدأ في الأسئلة .. ثم يقدم من عنده تفاصيل كثيرة عن كل ما يتعرض له

كقائد للجيش لا يحكم عصويته لمجلس القيادة .. لذلك فليس غريبا أن يصبح زميل صباه معتز الجيدى بلا لقب عسكري لأنه أصبح يحمل مسؤولية سياسية رئيسية .. وهو لو أراد أن يكون واقعا ويضمن الأمان طول العمر فيحب أن يبحث عن لقاء معتز ويعتمد على صداقة صباه .. ولكنه لا يستطيع أن يسجن نفسه داخل صداقة أحد كبار المسؤولين .. لا يستطيع .. إنه لا يستطيع أن يتنازل عن حرمة حتى باسم الصداقة .. ولكنه التقى صديقة بصديق آخر من أصدقاء الصبا وأبناء الحى .. إنه ممدوح رفعت .. وفرح ممدوح بقاءه كما فرح به هو .. إنه أصبح الآن موظفا كبيرا يتولى مسؤولية عدة مصانع .. وقال له ممدوح إنه قرر إقامة دعوة لكل أصدقاء الصبا أبناء الحى الذين لا يزال يلتقى بهم .. وهو يدعو .. وقبل منير الدعوة مرحبا .. وقال له ممدوح كأنه يتباهى بنجاح الدعوة : — ستلقى بصديقنا معتز ..

والتقى بمعتز الذى وصل إلى أكبر مركز وصل إليه واحد من أبناء الحى ..

حديث .. ولكن الواقع أن هذه الشخصية تحفظ بأنها شخصية رجل مهذب .. مؤدب .. نظيف اللسان والكلمات ..

وقد بدأت الدعوة بين أصدقاء الصب بتبادل الذكريات والضحك طويلا على نواذر كل مهم .. وبعد فترة بدأ كل واحد من المدعوين يقترب من معتر الجنيدي ويبدأ معه حديثا هامسا .. ربما كان يطلب منه .. أو يشكو إليه .. ولكن منير لم يحاول أن يفرد بمعتر .. ولا حتى أن يحيطه باهتمام خاص يميزه عن باقي الأصدقاء .. إنه مجرد صديق آخر من أصدقاء الصب الذين فرقت بهينه وبينهم الأيام .. ورغم ذلك فقد كانت اللحظات والاشتغالات المتبادلة بينهما تعبر عن فرحة كل منهما بلقاء الآخر .. وكأن ما بينهما من أحاسيس صداقة الصبا أقوى كثيرا مما بينهما وبين الآخرين ..

وكان معتر الجنيدي هو الذى بدأ الحديث الخاص مع منير أثناء تناول طعام العشاء الفخم الذى أعده هاجب الدعوة صديق الصبا مملوح رفعت .. وكانوا يحملون أطباق الطعام ووقفا بسبب زحام المدعوين ..

واقترب معتر من منير وهو يحمل طبقه قائلا :

— إنك لم تحاول أبدا أن تسأل عنى ..

وقال منير ضاحكا :

— إلى أتتبع ما ينشر من أخبارك دائما .. وكنت أدهش .. كيف استطاع الصبي الفجول معتر أن يسير في هذا الطريق الصعب ؟ ..

وقال معتر ضاحكا وهو يسير بمنير بعيدا عن باقي المدعوين :

— وأنا أيضا كنت أتتبع أخبارك .. كانت أخبارك تصلنى .. وكنت أيضا أدهش .. كيف يمكن أن يكون الصبي الهادئ العاقل مرة ماركسيا .. ومرة إخوانيا .. ولا يكف عن التحرك في المجال السياسى ..

وقاطعه منير دون أن يدهش من أنه يعرف كل أخباره :

— أنا لم أكن أبدا ماركسيا ولا من الإخوان ولا أى شيء آخر .. ولكن لعلك تذكر أنى منذ صغرى وأنا من هواة الفرجة .. وكنت معروفا بتيكمن بأنى أقرأ كثيرا .. وكنت أقرأ لأتفرح على ما تقدمه لى القراءة .. ثم أصبحت ألتقى بكل أصحاب الاتجاهات السياسية كأتى وجدت مسارح أخرى للفرجة عن طريق القراءة .. إلى أصف نفسى دائما بأنى متفرج .. وإن كانت الفرجة قد كلفتنى كثيرا من المعاناة ..

وقال معتر مبتسما :

— لو كنت قد اتصلت لى فرما كنت أستطيع أن أنقلك من المعاناة .. وأنا لم أغير رأيى فبك منذ الصبا ولكن عدم اتصالك لى جعلنى أشعر كأنك أنت الذى غيرت رأيك لى وأصبحت ترفض استعادة صداقتنا ..

وقال منير مبتسما :

— أبدا .. لم يتغير رأيى فبك رغم دهشتى بك .. ولكن مركزك الآن يجعل كل من يتصل بك وكأنه صاحب طلب .. إما طلب ليحقق مصلح خاصة وإما طلب لإنقاذه .. وأنا لا أحب أن ألقاك كصاحب طلب .. أو إلى لم أتعهد أن أطلب .. إلى لا أطلب حتى أتعاب القضايا التى أترافع فيها بل أترك صاحب القضية هو الذى يطلب منى أن أقبل ما يدفعه لى ..

وقال معتر وهو يتناول الطعام من الطبق الذى يحمله يديه :

— إنك مثالى .. ترفض الاعتراف بالواقع .. ولذلك عشت تعانى الواقع .. ولكن اسمع .. ليس كل ما يتصل لى من أصحاب المطالب .. وليست كل مهتة استجابة أو رفض هذه المطالب الخاصة .. إن هناك قضايا عامة تخص مصر كلها وأحتاج فيها إلى الاتصال بمن يعنى فيها .. وقد

خطرت على بالي كثيرا لأعتمد عليك ..

وقال منير في دهشة :

— أى قضايها تقصد ؟

وقال معتر وهو يلقى الطبق من يده على المائدة :

— قضايها كثيرة .. وأنا أعلم أنك تقرأ كثيرا .. أو كما تقول عن نفسك

تقضى حياتك متفرجا .. وأنا ليس لدى وقت للقراءة أو للفرجة وتستطيع

أنت أن تشركني مهلك فيما تقرره وتتفرج عليه .. وليس هنا مجال الحديث .. هل

أستطيع أن أراك غدا ؟ ..

وقال منير وهو متردد كأنه لم يفهم بعد ما يطلبه منه معتر :

— يشرضى .. أين أراك ومتى ؟

وقال معتر وكأنه فرح :

— غدا في مكتبي .. الساعة العاشرة صباحا .. (وتوقف برهة ثم

استطرد) .. لا . لنلتقي في بيتي وفي العاشرة مساء ..

وانتهى حفل لقاء أصدقاء الصبا ..

وفي مساء اليوم التالي كان منير جالسا مع معتر في بيته .. وبعد حديث

طويل عما يريده منه معتر .. قال له :

— أنت تعلم أن اتصالاتنا الرئيسية الآن مع الاتحاد السوفيتي .. وأنا أريد

أن أعرف كل شيء عن الماركسية .. لا كنتظرية ولكن كما هي مطبقة في

روسيا .. حتى أفهم وأقدر كيف أتعامل مع هذه الدولة الجديدة علينا ..

هل تعلم كيف تطبق الماركسية في روسيا ؟ ..

وقال منير مبتسما :

— إنها ليست مطبقة في روسيا ولا في أى مكان من العالم ، إني قرأت

كثيرا ومعتت كثيرا عن النظم القائمة في روسيا ..

وحذته مير كثيرا بكل ما يعرفه عن نظم الاتحاد السوفيتي .. وطالت

الجلسة حتى قرب الفجر .. وقال له معتر وهو يودعه :

— إن كل ما بيننا مجرد صداقة ليس لها أى صفة رسمية ما دمت لا تريد

منصبا ولا وظيفة .. اعتبر كأننا في كمية من كليات الجامعة أنت أستاذها

الوحيد وأنا طالبا الوحيد .. وطبعا دون أن يعرف أحد شيئا عن هذه الكلية

الجامعة القاصرة علينا ..

ونخرج مير من لقاء معتر وهو سعيد .. يحس كأنه وجد طريقا يستطيع

فيه أن يشترك في حكم مصر .. يشترك برأيه لا بمنصب يصل إليه ..

ومرت سنوات واتصاله بمعتر الجنبدي لا ينقطع .. وظل هذا الاتصال

كأنه سر لا يعرفه أحد وإن كان الكثيرون قد بدعوا يكتشفون أن هناك

صداقة وطيدة تربطه بمعتر .. وهو ما فصح أمامه مجالا جديدا للعمله

كمحام .. إن كثيرا من القضايا التي أصبحت تقدم إليه لا يمكن أن يحلها

القضاء .. ولكن يمكن أن يحلها معتر .. وكان يرفض معظم هذه القضايا ولا

يقبل منها إلا ما يستطيع أن يطرق لحلها باب القانون والقضاء أو على الأقل

طريق السعى الشرعي ..

وكان معتر يتصل به عندما يطرأ عليه موضوع جديد يريد أن يستعين به

في دراسته .. وكان منير يقدم إليه ما يعرفه عن هذا الموضوع .. وكان أحيانا

يقرأ كتابا جديدا أو يبذل جهدا في البحث حتى يستكمل الموضوع الذي

يسأل فيه .. ولكنه كان دائما يقول رأيه الصادق في اقتناعه به .. ولم يكن يهمه

أن يأخذ معتر برأيه أو لا يأخذ به .. المهم أنه يحفظ بحريته في إبداء رأيه ..

وهو واثق أن معتر يقبل منه هذه الحرية ما دامت حرية مقصورة فيما يدور

بينهما ولا تخرج إلى الشارع ..

وفي يوم قال له محتر :

— إني حائر .. فالمفروض أنك الآن أستاذ جامعي أمام طالبك الوحيد الذي هو أنا .. والمفروض أن الأستاذ الجامعي له مرتب أو أتعاب .. فكيف أحسد أتعابك وكيف أدفعها لك ؟

وقال محتر هذا الكلام وهو يضع على المائدة أمام منير رزمة كبيرة من الأوراق المالية .. كلها أوراق من العشرة الجنيهات .. ونظر منير إلى الرزمة ساخرا ثم قال مبتسما :

— أنا لست أستاذ .. ولا أقبل أن أكون بالنسبة لك أستاذ .. إن كل ما أعجز به بيننا هو أننا أصدقاء .. والصداقة ليس لها مرتب ولا أتعاب .. وإلا حاسبتك على المفاسد من الأتعاب منذ كنا أصدقاء أيام الصبا ..

وقال محتر ضاحكا :

— كنت وألقا أنك سرفس ..

ولكنه ترك رزمة الأوراق المالية أمام منير لعلها تغريه .. إلى أن انتهت المقابلة ..

وكان ارتباط منير بصداقة كمال الروزناجي واتصالاته ببال الشلة الماركسية لا يزال مستمرا .. ولم يكن له اتصال بالإخوان المسلمين فكلمهم لا يزالون في المعتقل .. ربما لو كان على صلة بمحتر أيام زمان لاستطاع عن طريقه أن يخرج عن صديقه هبد الله هبد اللطيف قبل أن يموت في المعتقل .. الله رحمه .. ولم يعد لخبر أى اتصال بأى حركة سياسية أخرى فقد شطبت جميع الأحزاب السياسية وتم احتقال معظم رجالها .. ومن لم يحتقل منهم فضل الانزواء بعيدا عن السياسة .. لم يعد هناك إلا بعض التحركات السرية حتى بين الماركسيين

ولكنه لم يتعود التعامل تحت الأرض مع التحركات السرية ..

وفوجئ منير يوما بصديقه كمال الروزناجي يقول له إنه قرر السفر إلى الخارج .. وسأله منير في دهشة :

— إلى أين ؟

وقال كمال ضاحكا ويبدو أنه كان يخفى سرا وراء ضحكته :

— لم أقرر بعد .. ولكننى سأصل إلى جنيف ومن هناك إما أن أتجه إلى موسكو أو إلى لندن ..

وسافر كمال فعلا وسافر معه عادل السلانكل زوج دلي .. إن السفر للخارج أصبح مباحا للماركسيين .. ومن يدري ؟.. لعلهما سافرا للقاء دلي أو على الأقل للبحث عنها .. وقد مضت شهور دون أن يرسل له كمال أى خطاب كما تعود أن يرسل له عندما سافر لأول مرة .. وهو لا يعلم أين هو ؟.. لقد سمع أنه في لندن .. وسمع أنه في بيروت .. ولكنه لم يرسل أى خطاب لأى أحد يستطيع أن يعرف منه أين هو ..

لماذا لا يجرب هو الآخر السفر .. ليجي كمال أو على الأصح ليجي دلي .. إن حبه لدلي وصل إلى منتهى الأسى ولم يعد له فيه أى أمل .. ولكنه يطمئنه أن يراها ولو من بعيد ليشرح طبيعة الفرجة فيه .. ولكن إلى أين يسافر ؟.. إنه يستطيع أن يطلب من محتر الجبندى أن يعرف له عن طريق المخابرات أين تقيم دلي وأين يقبع أعمومها كمال .. ولكن ليس من مبادله أن يستعين بالمخابرات وإلا ترك نفسه بينهم بأنه منها .. ثم لماذا لا يسافر لمجرد الفرجة على العالم حتى دون أن يرى دلي أو كمال ؟ إنه لم يتفرج على خارج مصر أبدا رغم شهوة الفرجة المتمكنة منه ..

وقدم طلبا للسفر إلى الخارج كما تنص الإجراءات ..

ورفض طلبه ..

إن اسمه في القائمة السوداء ..

ولو كان الماركسيون هم المحرم عليهم السفر فاسمه في القائمة السوداء للماركسيين .. وإذا كان الإخوان المسلمون هم المحرومين فاسمه في قائمة أسمائهم أيضا ..

وروى هذه الحادثة لصديقه معتر وهو يضحك .. ورد عليه معتر في بساطة :

— ولا يهلك .. ستسافر ..

وبعد أيام استدعاه معتر إلى لقاء وقال له :

— لقد اكتشفت أن هناك معلومات كثيرة تفحصنا ولا أظن أنك جمعتها .. وهي معلومات خاصة بموقف السياسة البريطانية من السياسة الأمريكية .. وهناك كتب جديدة صدرت في لندن بعد عام ٥٦ تحمل هذا الموقف .. ثم هناك وثائق كثيرة قد نشرت .. وبما أنك ستسافر فأرجو أن تبقى في لندن إلى أن تجمع معلومات كافية في هذا الموضوع ..

ثم رفع معتر حقيبة سامسونيت صغيرة وناولها لمير .. وحاول منير أن يفتحها سائلا :

— ما هنا ؟ ..

وقال معتر مبتسما :

— هذه حقيبة جمعت لك فيها أوراقا خاصة بهذا الموضوع .. لا تفتحها هنا .. فليس لدى وقت لنقاش طويل .. خذها معك واتحدها وأنت وحده .. وقد صدرت الأوامر بالسماح لك بالسفر ..

وحمل مير الحقيبة الصغيرة وفتحها في مكتبه .. إنها تحمل مبلغا كبيرا

من الدولارات .. عشرة آلاف دولار .. إن معتر يريد أن يدفع له مقات سفره .. وربما اعتل هذا الموضوع الذي كلمه بحته مجرد تبرير دفع هذا المبلغ الكبير له .. هل يرفض ؟ .. هل يعيد الحقيقة إلى معتر ؟ .. ولكنه لو أعادها فربما حرم من السفر .. أو ربما غضب منه معتر .. لماذا لا يكون واقعا ولو مرة .. ولو على حساب مبادئه .. إنه سبق أن كان واقعا على حساب المبادئ عندما كان قد قرر أن يعتد عن دليز بعد أن تزوجت .. كان لا يريد أن يكون عشيقا لامرأة متزوجة .. هذه مبادئ شرعية صارمة يؤمن بها .. ولكنه استسلم للواقع وأصبح عشيقا لدليز .. فلماذا لا يستسلم للواقع هذه المرة أيضا ؟ ..

وسافر .. ودخل المطار وهو يحمل الحقيبة في يده بما فيها من دولارات .. واستقبل باحترام كبير ولم يجرؤ أحد على تفتشه .. إن الأمر الذي يبرح له السعر صدر من الرئاسة .. فأدى موظف في الدولة يستطيع أن يفتشه وكأنه يفتش الرئاسة .. وكان قد سبق وسمع أن رجال المخابرات يسافرون إلى الخارج وهم ليسوا معتمدين على أموال تحول إليهم أو يهدونها هناك .. بل يسافرون وهم يحملون مثل هذه الحقيبة الصغيرة التي تحمل آلاف الدولارات .. وطرد عن فكره هذا الحفاظ بسرعة .. إنه ليس من رجال المخابرات .. إنه مجرد صديق .. أو إنه أخذ أتعابه .. أتعاب الأستاذ ..

ووصل إلى لندن .. وفوجئ بأن أحد موظفي السفارة يستقبه في المطار .. إنه موظف من موظفي مكتب الملحق العسكري .. لقد كان الملحق العسكري أيامها هو مندوب المخابرات .. إن المحابر هي التي تبهم به .. كأنه يتبعها وسافر بأوامرها .. وذلك علاقة على الاستقبال الرسمي الذي أقامه له السفير وإن كان لم يتعد دعوته إلى العشاء دعوة خاصة .. وقد وجد

كل شيء سهلا في لندن بفضل اهتمام السفارة .. وكان يريد أن يرى كل الشوارع والدور والمتحف التي قرأ اسمها في قصص أرسين لوين عندما كان يقرأها في صباه والتي سمع بها من أصدقاء سبقوه في السفر .. كان يريد أن يتفرج على كل شيء .. وقد سأل منذ اليوم الأول عن صديقه كمال الروزنجي .. وعن أخته دلير وزوجها عادل السلانكلي .. وأكد له الملحق العسكري أن لديه أسماء كل المصريين الذين في بريطانيا كلها وليس بينها هذه الأسماء .. لعل كمال احتار أن يذهب إلى موسكو .. ولكن أين دلير ؟ .. إنها قطعا لم تفكر في موسكو .. لعلها في بيروت .. ولعلها تعمل جرسونة في مقهى أو في بار .. ومن يدري ؟ .. لعلها استطاعت أن تعيش في البلد الآخر حياة بنات الذوات التي كانت تعيشها في مصر قبل الثورة ..

وقد أراد أن يظهر أمام السفارة كأنه فعلا في مهمة رسمية فأخذ يطلب زيارة أهم المكتبات .. وتصفح فضلا كثيرا من الكتب .. وحمل معه بعضها .. ولم يكن بينها كتب عن الموضوع الذي ادعى محتر الجينيدي اهتمامه به ..

وكان قد مضى عليه عشرين يوما في لندن وقرر العودة .. وقال له موظف المخابرات المكلف بمصاحبه :

— إذن نبدأ في الشراء ..

وقال منير في دهشة :

— شراء ماذا ؟ ..

وقال مراقبه في تعجب .. فقد كان كل من يأتي إلى لندن من الرسميين يأتي للشراء .. فلماذا أتى هذا الشخص ؟ .. وقال في بساطة :

— شراء الهدايا وما يحتاج إليه .. إن دكاكين لندن معروفة بأن فيها كل ما

لا تجده في مصر ..

ولم يكن يريد شيئا .. ولكنه يجب أن يشتري .. واشتري هدايا لأهله وأخواته البنات .. واشتري لنفسه بدلة حاهرة وقطعة من القماش وقمصان وكوفيات .. وكان يجب أن يشتري أيضا هدية لصديقه محتر الجينيدي .. واشتري له قدم باركر .. إن أقلام الباركر أصبحت نادرة وعالية في مصر .. ورغم ذلك كان كل ما أنفقه في لندن أقل من نصف الدولارات المعبأة في الحقبة السامسوليت الصغيرة ..

وقد احتار أن يعود إلى مصر عن طريق بيروت .. قد يجد دلير أو كمال هناك .. إنه محبوب شوقا للتفرج عليهما .. ولقد أمضى في بيروت أسبوعا متفرغا للفرجة على كل لبنان .. ولم يجد دلير رغم أنه وصل إلى حد التردد على البازارات وكباريات الليل بحثا عنها ولما سمعه من أن كثيرا من النساء المصريات حتى من نساء عائلات كبيرة محترمة عن هربن من مصر إلى بيروت كن يعملن في الكباريات والبازارات .. ولم يجد دلير ولا كمال .. ولا سمع عنهما شيئا من رجال المخابرات في السفارة ..

لقد أنفق على نفسه في بيروت وفي سبعة أيام صنف ما أنفقه في لندن خلال عشرين يوما .. ولا يدري فيما كان ينفق .. إن بيروت لها قوة جذب خاصة لكل ما في جيبيك ..

وعاد إلى مصر وقضى أياما في مجاملات وتقاليده العودة بعد أول غيبة عن مصر .. إن العيبة عن مصر تركت شوقا أكثر إلى الحرية أكثر من العيبة في السجن ما دام السجن داخل مصر .. إن الإنسان لا يستطيع أن يلدق طعم الحرية إلا داخل بلده .. وبدأت حياته تستمر كما كانت .. أهم ما في هـ اتصالات الصداقة التي تجمعهم بمحتر الجينيدي ..

وكان يعتمد أن يتبع كل أحيار معتز حتى يزداد بهما له .. وقد فهم في فترة أن معتز هو من رجال المشير عبد الحكيم عامر .. إن مكبة في نفس ميسى قيادة المشير .. ولكنه كان يعود في فترة أخرى ويقدر أن معتز هو من رجال جمال عبد الناصر .. إنه يتحمل مسئوليات داخل رئاسة عبد الناصر .. وأحيانا يعتبره محل ثقة الأتني .. عبد الناصر وعبد الحكيم .. ولم يكن هو شخصيا بهمه أن يفرق بين ناصر وعامر .. كلاهما في تقديره واحد .. حتى بعد أن مرت السنوات وأصبحت مصر هزيمة عام ٦٧ لم يفرق في مسئولية الهزيمة بين عبد الناصر وعبد الحكيم .. إنها مسئولية واحدة مشتركة .. وإذا كان عبد الحكيم قد انتحر كما قيل فإن عبد الناصر أيضا قد انتحر .. لقد مات بعد المشير ثلاث سنوات ولكنه كان يقال إنه كان يعيش ميتا منذ أعلنت الهزيمة .. كان ميتا مع عبد الحكيم ..

وقد أعقبت الهزيمة وموت المشير حملة اعتقالات واسعة شملت كل رجال المشير .. وبدأ سير يقدر أن صديقه معتز سيعتقل .. وإذا اعتقل فقد يعتقل معه فقد أصبح معروفا أنه صديقه ويعمل معه .. ولكن حملة الاعتقالات لم تكن عنيفة واسعة كالحملة التي قامت بها الثورة على الإخوان المسلمين بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر .. رغم أن هزيمة ٦٧ كانت اغتيالاً لمصر كلها .. ولم يسمح أن صديقه معتز الجنيدى قد اعتقل ..

وكانت قد مضت شهور لم يتصل به معتز .. إن الاتفاق بينهما كان يقوم على أن يتصل به معتز كلما أراد .. وهو قطعاً لم يكن يحتاج إليه في فترة الإعداد للهزيمة ولا بعدها .. لذلك لم يتصل به .. ولكنه كان وثقاً أنه لم يعتقل .. ثم تأكد أنه سافر إلى الخارج .. إلى لندن .. ودون أن يودعه

بكلمة .. ترى ما حجم الشبهة الساموسيت التي سافر وهو يحملها معه ؟ ..

وعاش منير حياة مصر السياسية الجديدة كمادته .. مجرد متفرج .. وإن كان قد تعدد أن يعدد نفسه إلى آخر صفوف المتفرجين .. وكان من الأحداث الهامة التي وقعت هو حدث الإفراج عن كل المعتقلين من الإخوان .. لقد سبق الإفراج عن بعضهم ولكنه لم يتصل بأحد من المفرج عنهم ولا أحد منهم اتصل به .. ولكن في هذه المرة أفرح عن صديقه الأستاذ منصور أحمدين الذي جمعه به أيام زمان صديق عمه عبد الله عبد اللطيف .. إنه يجب أن يزوره بعد الإفراج عنه على الأقل يقرأ الفاتحة معا ترهما على صديقهما عبد الله .. ولكنه ظل مترددا شهورا .. لقد أصبح يتردد دائما قبل القيام بأى حركة .. ربما وصل به العمر .. عمر العجز .. إلى سن التردد .. إلى أن فوجئ بالأستاذ منصور يزوره بنفسه في مكبة .. إنه لم يتغير .. لا يزال على إيمانه بنفس آرائه وحماسه رغم أنه قضى أكثر من سبعة عشر عاما معتقلا .. وقال له منصور في هذه الأثناء :

— إن هناك أحداث كثيرة تتردد هذه الأيام حول السماح بإقامة التجمعات السياسية والدنية .. وأعتقد أنها فرصة لطلب الاعتراف الرسمي بجماعة الإخوان المسلمين .. وأرجو أن تساعدنا .. لقد خرجت من المعتقل منذ زمن طويل وأعتقد أن لك القدرة على الاتصال أكثر من أى واحد فينا .. وقال منير مبتسما كأنه بعيد حديثا قديما ولا يعترف بتطور الزمن :

— إن الأحداث التي تدور الآن تنحصر في إعادة تكوين الأحزاب .. فلماذا لا يطلب الإخوان تشكيل حزب إسلامى مصرى كما سبق أن

عرضت عليك أيام زمان ؟ ..

وقال الأستاذ منصور في تصميم :

— لا .. إن جماعة الإخوان ستبقى دائما دعوة ..

وقال منير ملحا :

— إن الإسلام دين ودنيا .. والدين يقوم على الدعوة .. والدنيا تمرص

ممارسة الواقع .. والواقع يفرض عليكم إقامة حزب سياسي ..

وقال الأستاذ منصور في هدوء وهو لا يزال على إصراره :

— إن الدعوة تشمل الدين والدنيا ..

وعاد منير إلى إلحاحه قائلا :

— إن جماعة الإخوان المسلمين تعتبر جماعة الشهداء .. وقد مات

مؤسسها الشيخ حسن البنا مقتولا .. واعتقل رئيسها التالي وخرج من

الاعتقل لموت في بيته .. وأنتم في حاجة الآن إلى تشكيل جديد وإلى رئيس

جديد .. والخطة الحريفة نحو التطور الواقعي هي أن تكونوا حزبا ..

وقال الأستاذ منصور وكأنه يطالبه بالانتقال إلى موضوع آخر :

— إن قوة الإخوان في مبادئها وليس فقط في تنظيمها أو رئاستها ..

وستبقى قوية دائما ..

وانتهى اللقاء على أن يبدأ منير في السعي لاعتراف الدولة بتنظيم جماعة

الإخوان .. ولكنه لم يستطع أن يحقق شيئا .. رغم أن الدولة كانت في فترة

عجالة للإخوان حتى إنها أباحت لهم إصدار مجلة خاصة بهم .. ومنير يعترف

أنه لم يعد يستطيع أن يبذل نفس الجهد الذي كان يبذله لكسب القضايا

التي يقبل تحمل مسئوليتها .. ربما كان قد تعب من كل حياته .. أو ربما كان

الملل .. لقد أصبح يعيش الأحداث حتى دون أن يتعب نفسه بإبداء الرأي

كمتهرج .. لقد نقل نفسه إلى الصفوف البعيدة للمتفرجين .. بعيدا عن

يستمع إلى رأيه .. سواء صفق مؤيدا أو بصق رافضا .. حتى عندما اغتيل

أنور السادات .. كان رأيه رافضا لعملية الاعتقال .. ولكنه لم يترك نفسه

لمجرد إبداء رأيه .. وسكنت مستسلما للأنس والملل والتعب من كل الحياة

السياسية التي عاش يفكره ..

وهو يعيش وحده إلى الآن في الغرفة الضيقة الملحقة بمكتبه .. مكتب

الهامامة .. فهو لم يتزوج .. إن المرأة الوحيدة التي دخلت حياته ولمسها هي

دلبر .. لم يكن في حياته نساء لا قبلها ولا بعدها .. ولم يفكر أبدا في الزواج

منذ فشل في الزواج من دلبر .. وإلحاح أبيه وأمه وأخواته البنات عليه ليتزوج

كان يدفعه إلى الضحك الساخر .. ماذا يفعل بالزواج ؟ .. ماذا يفعل

بامرأة إلا إذا كانت دلبر ؟ .. إنه ليس في حاجة إلى خادمة .. وكل عائلته

لا تفكر إلا في أن تكون له خادمة يسموها زوجة .. وهو سعيد بوحده ..

سعادة دفعته حتى أن يرفض الإقامة مع العائلة .. ولكن على قدر سعادته

باحتمال هذه الوحدة فأحيانا يصيق بها .. وقد دفعه الضيق إلى أن يسعى منذ

سنوات بعيدا إلى الانضمام إلى النادي الأهلي .. واختار الأهلي لأنه اعتبره

ناديا مدنيا في حين كان يعتبر الزمالك ناديا عسكريا ربما لأن المشير عبد

الحكيم عامر هو المسيطر عليه .. ولكنه لم يكن يتردد على النادي الأهلي ..

كان مشغولا بعمله كمحام وبتصالاته كمفكر سياسي .. وكان يعتز بأن

الكثيرين من المشتغلين بالسياسة يلجئون إلى رأيه .. إهم يعرفون أنه ليس

معهم ولا ضدهم .. ويعرفون أنه لا يبحث عن منصب أو مركز يمكن أن

يمسهم من بعيد أو قريب .. ولكنه صاحب رأى محترم .. رأى قائم على

سنوات طويلة من الفرجة على الحياة السياسية المصرية كلها .. فرجة دراسية بروح وطنية خالصة .. وكانوا يترددون الآن كثيرا عليه في مكتبه ليستمعوا إلى رأيه .. ولكنه بدأ يصيق حتى بالمكتب .. وأصبح يتردد كثيرا على النادي الأهلي .. ولكن حتى في النادي الأهلي كانوا يلجئون إليه لمعرفة رأيه السياسي ..

وكان جالسا في الركن المنزوي من حديقة النادي الأهلي عندما لمح من بعيد عباس ربيع وهو يتقدم إليه .. وبدأت الدهشة تلعب في عينيه .. إنه يعرف عباس ربيع منذ بدأ شابا لامعا في العلوم الاقتصادية واستطاع بسرعة أن يكون معروفا لدى كل الدوائر الرسمية التي يسهها الاقتصاد .. ثم بسرعة استطاع أن يكون وزيرا في عهد حكومات عبد الناصر .. ولكنه لم يبق طويلا في الوزارة .. خرج .. ولم يخرج لظروف متعلقة بالحالة الاقتصادية ولكنه خرج لظروف سياسية كانت تسيطر عليها الشلل .. خرج هو وشلته من الوزارة .. ومنذ خرج لم يعد متفرعا للعلوم الاقتصادية .. أصبح معروفا أكثر بتفرغه السياسي رغم أنه لا يزال يتولى مسؤوليات اقتصادية خارج الوزارة .. كان على اتصال وثيق بكل الشخصيات السياسية وكان عضوا في كل المؤتمرات واللجان الاقتصادية التي تقيمها الحكومة .. وكان مرشحا دائما للعودة إلى الوزارة .. ولكنه لم يعد في أيام عبد الناصر .. وعندما بدأت حكومات أنور السادات اتحد موقفا سياسيا قفز به هورا إلى الوزارة .. إنه يبدو شخصية أخرى أكثر هدوءا وهو داخل الوزارة .. ولكنه أيضا لم يبق في الوزارة فترة طويلة .. خرج .. وعاد إلى أسواق السياسة ولكنه عاد أكثر اندفاعا وأصرح في تحديد مواقفه .. وعندما قامت الأحزاب نسب اسمه إلى أكثر من حزب معارض .. ولكنه رغم اتصاله بالجميع لم يثبت عليه انضمامه

لحزب .. بل إنه كان مستمرا في اتصالاته بالمستولين كواحد من علماء الاقتصاد ..

وحلال كل هذه السنوات الطويلة لم يمكن ما بينه وبين عباس ما يعتبر صداقة .. ولكنها كانت معرفة .. وتخصى فترات طويلة دون أن يلتقي به .. ثم فجأة يراه أمامه .. ولم يمكن يراه أبدا عندما يكون وزيرا .. ولكنه لا يراه إلا وهو خارج الوزارة .. وكان الحديث بينهما يقتصر على السياسة .. ويبدو عباس وكأنه يستطلع رأيه أو يبحث عن مستقبل موقف من مواقفه السياسية .. ثم يعود ويغيب عنه فترة طويلة إلى أن يفاجئه بقاء آخر .. ترى ماذا جاء به اليوم ؟ ..

واتسم منير بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة وهو يقوم واقفا يستقبل عباس ربيع ..

وصاح عباس وهو يهز يده في حرارة :

— انك يا منير بك .. أين أنت ؟ لقد طفت القاهرة كلها باحثا عنك إلى أن اكتشفت أنك تجلس في حديقة النادي الأهلي .. لا شك أنك اخترت النادي لتحتفظ بشبابك ..

وقال منير من خلال ابتسامة لاهية :

— إن هذه الحديقة تجمع بين منتهى الشباب ومنتهى العواجز .. وأنا أعيش الآن المنتهى ..

وقال عباس وهو يجلس بجانبه مقتربا :

— لقد نعدناك على أنك تعيش دائما المستقبل .. تميشه بآرائك وصدق تقديرك .. والمستقبل لا نهاية له ..

وقال منير في برود :

— التفكير في المستقبل مسئولية .. وقد أعفيت نفسي من المسئولية وأحلت نفسي على المعاش ..

وقال عباس مبتسما ابتسامه رجاء :

— الفكر لا يحال أبداً على المعاش .. ومهما تمدى الإنسان في العمر يبقى الفكر في شبابه .. لا يشيخ ولا يضعف .. بل لا يتغير .. فالشاب الغني يبقى غنيا مهما مضى به العمر والذكي يبقى ذكياً .. ولو عدنا إلى الفكر الذي كان يرسم لك المستقبل أيام شبابه لوجدناه يرسم نفس الخطوط اليوم .. وقد اعتمدنا كثيراً على فكرك منذ بدأنا .. والصور التي كنت ترسمها للمستقبل تحققت كلها رغم أنها كانت تذهلنا عندما نسمعها بل كنا أحياناً نرفضها .. وقد مضى علينا فترة طويلة لم نطلع فيها على فكرك ولا سمعنا صوتك .. والواقع أني كنت أبحث عنك إلى أن وجدت لك لأني في حاجة إلى أن أعيش فكرك الذي تعودت عليه ليصور لي المستقبل .. فأنا حائر إلى أقصى حدود الحيرة .. لم أعد أستطيع أن أرى صورة للمستقبل ..

وقال منير في هدوء :

— أي مستقبل ؟

وقال عباس في عنف :

— مستقبل بلدنا .. مستقبل الحالة التي نعيشها ..

وضغط منير على شفاهه كأنه يجمع فكره ثم قال :

— هناك فرق بين الحالة الوطنية والقضية الوطنية .. فالحالة تدفع إلى حصر الفكر في الواقع حتى يتغلب على مشكلات هذا الواقع .. والقضية تدفع الفكر إلى تصور المستقبل لأنه فكر يرفض الواقع من أساسه .. ولو راجعت تاريخ مصر الحديث لوجدت أن تطور المستقبل قام على قضايا وطنية

واشترك فيه كل الشعب بما فيه غير المتخصصين بالحاح الدافع الوطني .. ونحن الآن نعيش بلا قضايا وطنية أو أن هناك إجماعاً كاملاً على تأجيل كل ما يخطر على الفكر من قضايا وطنية إلى أن نجتاز الحالة التي نعيشها .. وهي حالة تقتصر مسئوليتها على المتخصصين ..

وصاح عباس في دهشة :

— ألا تعتبر الغلاء الذي يعصر عروق الشعب قضية وطنية تستحق

البحث عن المستقبل ؟

وقال منير في هدوء :

— لا .. الغلاء ليس قضية وطنية ، إنه حالة وطنية .. وقد كان الغلاء بالنسبة لطبقة الأغلبية الشعبية قائماً دائماً ولكننا كنا ننسبه إلى قضايا وطنية .. كنا ننسبه إلى الاحتلال البريطاني أو إلى حكم العائلة الملكية أو إلى ضعف الأحزاب السياسية القائمة .. وانحصر الفكر السياسي بيننا في تحديد مستقبل كل هذه القضايا بدافع إصلاح الحالة .. ولذلك قامت الثورة وقضت على الاحتلال البريطاني والعائلة المالكة والأحزاب السياسية .. وحالة الغلاء مستمرة حتى اليوم ولكننا لا يمكن أن ننسبها إلى قضايا وطنية حتى ندعو إلى ثورة أخرى .. إنها حالة تنحصر مسئوليتها في المختصين الإداريين ..

وقال عباس في حدة :

— إن هؤلاء الإداريين مضت عليهم سنوات وهم يتحملون المسئولية والغلاء يشتد .. فلماذا لا يطردون ليحل محلهم من هم أقدر منهم على تحمل المسئولية ؟ .. لماذا لا نطالب بطردهم حتى بأن تقوم ثورة عليهم ..

وقال منير مبتسماً في إشفاق :

— هناك إحساس شعبي عام بالمساواة بين كل الإداريين بما فيهم الوزراء .. ليس بينهم في نظر الناس من هو أقدر من الآخر .. وربما كان ذلك يرجع إلى الخطأ الأكبر الذي بدأ منذ قامت الثورة .. وهو التحريم على أى شخصية بأن تقدم نفسها للشعب كشخصية لها ذاتها ولها ما تتميز به .. فلم يجد الشعب شخصية يعلق أمله عليها ويطلب بأن تتحمل مسئوليته .. إن الناس اليوم لا تعرف حتى أسماء الوزراء ولا تهتم بمعرفتها .. ليس هناك إلا اسم واحد وشخصية واحدة يعرفها الناس .. اسم وشخصية رئيس الدولة .. لذلك لا يمكن أن تصبح المطالبة بتغيير الوزارة والوزراء قضية وطنية .. إنها مجرد حالة تعتمد على ما يقرره رئيس الدولة وحده .. وافترض أنك عدت اليوم وزيرا في الوزارة فما هو الأمل الذي يمكن أن يعلقه الناس عليك ؟ .. إنك رغم كل تاريخك الطويل لا يعرف الناس عنك شيئا لأنه لم يكن أمامك أبدا الفرصة لأن تقدم نفسك للناس .. كان الطريق الوحيد أمامك هو أن تقدم نفسك لرئيس الدولة .. وأنتى لك ألا تعود وزيرا .. إنك تستطيع أن تقتنع نفسك بإنشاء شركة لصيد السمك حتى ينخفض سعر السمك فيعرفك الناس وتصبح شخصية وطنية كما كانت شخصية طلعت حرب ..

وقال عباس وهو يقلب شفتيه قرفا :

— حتى لو أنشأت مثل هذه الشركة فستسبب إلى الحكومة وسأدعو رئيس الدولة لافتتاحها كأنى أعترف أن الفضل له .. إن عثمان أحمد عثمان أنشأ عشرات الشركات ورغم ذلك فكل قيمته تقدر وترتفع وتنخفض على أساس صلته الخاصة برئيس الدولة .. ولم يستكمل أبدا شخصية مستقلة وطنية بحيث يطالب به الشعب كزعيم أو كقائد لإنقاذ الحالة ..

وقال منير في هدوء :

— كل ما يهمنى أن اقتنعك بأننا نعيش حالة لا قضية وطنية .. ولا يستطيع أن يعينك على التوضيح بهذه الحالة إلا الخبراء وأنا كما تعلم لست خبيرا في شيء ..

وقال عباس بسرعة :

— إنك خبير في القضايا الوطنية .. فلماذا لا تقتنع بأن ارتباطنا بأمريكا هو أساس الحالة التي وصلنا إليها .. كما كان ارتباطنا بالإمبراطورية البريطانية هي الحالة التي كنا نعيشها أيام زمان ؟ .. وارتباطنا بأمريكا هو أساس ارتباطنا بإسرائيل .. وكنا في حالة من نوع آخر أثناء ارتباطنا بالاتحاد السوفيتي ؟ .. أليست هذه قضية وطنية تدفع الفكر إلى البحث عن طريق المستقبل .. حتى لو كان طريق الثورة ؟ ..

وقال منير وهو يتسهم ساخرا :

— إن الحالة أقوى من القضية .. ليس في مصر إحساس وطني بالتخلص من أمريكا .. إن أشكال الاحتلال الأجنبي قد تغيرت .. ثم إننا مررنا بتجارب أفقعتنا بأن التخلص من أمريكا معناه الاعتماد على روسيا .. وأفقعتنا التجربة بأن الاعتماد على أمريكا أرحم من الاعتماد على روسيا .. لم نعد هذه القضايا تعتبر قضايا وطنية .. ما هو الفرق بيننا وبين سوريا أو ليبيا مثلا ؟ .. هل هو فارق في الإحساس الوطني .. أبدا .. إنه فارق في الاختيار بين أمريكا وروسيا .. لذلك فارتباطنا بأمريكا ليس قضية إنما هو أيضا حالة لن تتطور إلا إذا ارتفعت إلى مستوى قضية ..

وقام عباس واقفا والسخط يكسو وجهه :

— إنك تدفعني إلى اليأس .. يبدو أنك قد أحلت فكرك فعلا إلى

المعاش .. سلام عليكم ..

وابتعد وهو يلقى الأرض بقدميه ساخناً ..

ومنير يتبعه بابتسامة ساخرة ..

واسترخى على مقعده وأطلق عينيه إلى حدائق النادي كأنه يبحث عن شيء .. يبحث عن ماض انتهى .. إن كل شجرة في هذه الحديقة عاشت الماضي ولكنها لم تعد تظلل .. لم تعد تظلل العواجيز ولا الذكريات .. ولكنها تظلل الجيل الجديد والمستقبل .. وشبان النادي يتجمعون ويتناقشون .. ولكنه لا يسمع في مناقشاتهم شيئاً مما كان هو يتناقش فيه .. ولا يسمع رأياً كأرائه .. إن الجيل الجديد لا يعيش قضية وطنية عامة كالقضايا التي كان يعيشها ولكنه يعيش قضية فردية تخص كل منهم .. قضية القرش .. كيف يصل إلى القرش ؟ .. ولكن .. من يدري .. لعل الجيل الجديد يكتشف أن الفرد لا يستطيع أن يصل إلى القرش وحده .. إن القرش هو قمة القوة التي تقوم عليها الدولة .. إن القرش هو القوة التي تعتمد عليها حرية الدولة .. وهو الذي يقيم الجيش الذي يسمى الحرية .. وهو الذي يحقق الحضارة التي سبق أن بنت الأهرام لتبنى أهراماً جديدة .. لذلك فالقرش لا يمكن أن يكون هدفاً فردياً .. إنه هدف عام يجمع الشعب كله في طريق واحد للبحث عنه .. إن القرش هو الحياة .. ولا يمكن أن تكون الحياة حرة إلا إذا كان القرش حراً .. ولا يمكن أن تكون الحياة نظيفة إلا إذا كان القرش نظيفاً .. ولا يمكن أن تكون للحياة مبادئ إلا إذا كان للقرش مبادئ .. ولا يدري متى يمكن اكتشاف الجيل الجديد طريق مستقبل الحياة .. أى مستقبل القرش ؟ ..

وابتسم منير ابتسامة ساخرة .. لقد أخطأ بتريد رمز القرش تعبيراً عن رأيه .. لقد اختفى القرش .. وكان يجب أن يردد رمز الجنبه .. فإن الجنبه لم يختلف بعد .. وسمع على جبينه بكفه كأنه يزعج عنه هذه الآراء وعاد يطلق عينيه ليمش الماضي بين فروع الشجر العجوز ..

(قمت)

« سهر الليل .. ليلاس »
www.lilias.com

الإستاذ احسان عبد القدوس

- (١ ، ٢) صالح الحب ويائع الحب
 (٣) أنا حرة
 (٤) الطريق المسدود
 (٥) أين عمري
 (٦) النظارة السوداء
 (٧) في بيتنا رجل
 (٨) لا أنام
 (٩) منتهى الحب
 لا تطفىء الشمس (جزء أول)
 (١٠) لا تطفىء الشمس (جزء ثان)
 (١١) شيء في صدري
 (١٢) زوجة أحمد
 (١٣) البسات والصيف
 (١٤) لا شيء يهم
 (١٥) أنف وثلاث عيون (جزء أول)
 أنف وثلاث عيون (جزء ثان)
 (١٦) شفتاه
 (١٧) لا .. ليس جسده
 (١٨) عقلي وقلبي
 (١٩) ينز الحرامان
 (٢٠) علبة من صفيح
 (٢١) ثقب في الثوب الأسود
 (٢٢) بنت السلطان
 (٢٣) سيدة في خدمتك
 (٢٤) نساء لهن أسنان بيضاء
 (٢٥) لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص
 (٢٦) الوسادة الخالية
 (٢٧) دمي ودموعي وأبتسامتي
 (٢٨) الراقصة والسياسي
 (٢٩) حتى لا يطير الدخان
 (٣٠) العذراء والشمس الأبيض
 (٣١) ونسيت أني امرأة
 (٣٢) الهزيمة كان اسمها فاطمة
 (٣٣) لا تتركوني هنا وحدي